المدخل إلى التصوف الإسلامي

أ.د علي جمعة

إمام الطريقة الصديقية الشاذلية

بسم الله الرحمن الرحيم

بطاقة فهرسة

أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

المدخل إلى التصوف الإسلامي / تأليف: الأستاذ الدكتور علي جمعة محمد

ط ١ القاهرة: دار الوابل الصيب للإنتاج والنشر والتوزيع، ٢٠١٩م.

١٧& ٢٤ سم.

تدمك: ٦-٨٦-٦٢١٤-٩٧٧-٩٧٨

١ **التصوف الإسلامي** . ٢ **الشيخ علي جمعة**. ٣ **الطريقة الصديقية الشاذلية**

أ **محمد؛ علي جمعة** (**تأليف**)

رقم الإيداع: ٢٠١٨/٢٧٢٨٥

الترقيم الدولي: ٦-٨٦-٦٢١٤-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩مـ

دار الوابل الصيب

٧ **شارع الجمهورية. عابدين. القاهرة**

جمهورية مصر العربية

ت: ٠١١٤٧٢٠٨١٧٣ (٠٠٢٠٢)

٠١٢٠٨٣٠٣٩٠١ (٠٠٢٠٢)

Elwabel١٥@outlook.com

https://www.facebook.com/dar.elwabil

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله ﷺ، خير خلق الله أجمعين، وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه واتبع هداه إلىٰ يوم الدين.

أما بعد... فهذا كتاب: "المدخل إلى التصوف الإسلامي" والذي نتعرض فيه للحديث عن حقيقة التصوف وأركانه وأصوله، ونبين فيه التصوف الإسلامي كما ورد في الكتاب والسنة، وظهر في أقوال أئمة الدين وأفعالهم، ونعرض ما أبداه أهل السلوك والمعرفة بالله في هذا الشأن من معانٍ دقيقة، ومدارك رقيقة، في كيفية السلوك والسير إلىٰ الحق سبحانه وتعالى، ونرجو بذلك أن تتضح حقيقة التصوف ويسطع نوره، بعد أن غبَّش على هذه الحقيقة أدعياء التصوف وأعداؤه معًا، والله من وراء القصد.

إن التصوف هو منهج حياة، وهو درجة الإحسان في عبادة الله والتوجه إليه، والإحسان هو أعلى درجات الإيمان والإسلام لله عز وجل، إن التصوف هو تزكية النفس وتربيتها وفطمها عن الشهوات التي تُعيق سلوك الروح وعروجها إلى الله عز وجل، وابتناء التصوف يقوم على الزهد في الدنيا والإعراض عنها بالقلب بعد امتلاكها باليد والسيطرة عليها وتسخيرها في نفع الخلق وعمارة الأرض.

لقد صرنا نعيش في مجتمعات تسيطر عليها المادية وتحركها شهوات وأهواء، دفعت الإنسانية إلى ارتكاب أفظع الجرائم في حق الكون: الإنسان، والنبات، والحيوان، والجماد. حتى صرنا مهددين بدمار العالم، حيث إن طغيان المادة جعل الروح تنزوي وتضعف، وجعل العقل والفكر تتخبطه دوافع من المصالح الآنية والأغراض الذاتية.

وهنا يقوم التصوف بإصلاح ما فسد في حياتنا في العصر الحاضر؛ إنه يزيد فرصة التواصل مع الآخرين والتحاور والتعارف معهم من أجل خدمة الإنسان وتيسير سبل عيشه، وتبصرته بآخرته ومآله إلى ربه ومرجعه إليه، إن الإيمان بالله واليوم الآخر يدفع الإنسان إلى الإحسان إلى نفسه وتقويمها والمحافظة عليها، وكذلك الإحسان إلى الخلق وتقديم النافع لهم وإبعاد الضار عنهم.

ولذلك فقد حرصت على تأسيس طريقة صوفية سنية أخذت سندها وإجازتها عن أئمة وأولياء صالحين أناروا الدنيا بعلومهم ومعارفهم وتربيتهم، وهي الطريقة "الصديقية الشاذلية"، والصديقية نسبة إلى الإمام الولي المحدث الفقيه عبد الله بن الصديق الغماري رضي الله عنه، والشاذلية نسبة إلى الإمام سيد الطريق العالم المربي سيدي أبي الحسن الشاذلي قدس الله سره، وارتجوت من الله عز وجل أن يبارك في هذا المسعى ويألف القلوب حوله، حتى تتاح الفرصة إلى توجيه المسلم وتربيته إلى نفع نفسه وأمته وإنسانيته.

إن الجماعات الضالة التي نبذت التصوف؛ وحاربته؛ واستقطبت شباب الأمة ورجالها ونساءها إلى ضلالها المبين؛ نشرت الخراب في بلاد الإسلام وغيرها، وشوهت صورة الإسلام في العالمين، بما ارتكبته من فظائع وجرائم، ولقد آن أن يتوقف هؤلاء النابتة الخوارج عما يفعلون، ويتركون فرصة لإصلاح ما أفسدوه، بالعودة إلى سماحة الإسلام وعظمته ورحمته، وتأصيل وسطيته الصحيحة، وهداية الخلق وتعريفهم بصحيح الدين، وجمال الشريعة.

والله ولي التوفيق

أ.د علي جمعة

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

التمهيد

أولا : مدخل في بيان أن " حديث جبريل" أصلٌ بَنَت عليه الأمة علومها الفقه، والعقيدة، والتزكية

أول ما نستهلُّ به كلامنا هو حديث سيدنا جبريل المشهور، الذي اشتمل علىٰ معالم الدين الكبرىٰ، والذي أخرجه الأئمة الكبار، واهتموا به، وجعلوه من الأحاديث التي توضح دين الله بالكلية، وفي آخره يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم »[1].

وجبريل عليه السلام كان يأتي في صورة مرئية للصحابة، مرة في صورة صحابي اسمه: دِحْيَة الْكَلْبِيّ، وكان دِحْيَة رضى الله عنه جميل الهيئة، وقد أرسله النبي صلى الله عليه وآله وسلم للسفارة مرات، أي أنه كان سفيرًا عن المسلمين عند غير المسلمين، وكان سيدنا جبريل عليه السلام يأتي المسلمين في صورة دِحْيَة، وكان بعضهم يدرك أنه جبريل عليه السلام إذا ما ظهرت بعض الظواهر الخارقة للعادة حوله، كأن يختفي فجأة، أو يظهر فجأة، وكأن يكون بينهم من غير إدراك لبداية دخوله ولا لنهاية انصرافه، فجاء جبريل عليه السلام إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجلس إليه جلوس المتعلم إلىٰ معلمه، ووضع يديه علىٰ فخذيه، أي : علىٰ فخذي جبريل، وسأله: «يَا رَسُولَ اللهِ مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَام الصَّلاَةِ، وَإِيتَاء الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَحَجّ الْبَيْت لِمَن اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا».

قَالَ: صَدَقْتَ. فَقَالَ عُمَر: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ!!؛ [لأن السؤال يقتضي الاستفهام،

---

١ – صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر حديث رقم ٨ .

والاستفهام طلب المعرفة، وتصديقه معناه أنه يعلم هذا الأمر قبل ذلك، واجتماع هذين الأمرين عجيب.]

قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِّ: وَمَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِّ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَّ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1].

وقد جعل العلماء هذا الحديث مقدمة لتحصيل العلوم الشرعية، فأقاموا علومها على أساسه، وهي علم التوحيد وعلم الفقه وعلم التصوف :

١ - علم التوحيد: وهو العلم الذي يدرس مسائل الإيمان، ومن أسمائه: (علم الكلام)، أو: (علم العقائد)، أو: (أصول الدين).

وفي هذا العلم نقل العلماء لنا كل ما يتعلق بالإيمان بالله، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر، وجعلوا علم التوحيد هذا على ثلاثة أبواب:

- الباب الأول: الإلهيات. ويتكلمون فيه عن الله وما يجب له، وما يستحيل عليه، وما يجوز في حقه سبحانه وتعالى.. ودليل ذلك من العقل والنقل.

- الباب الثاني: النبوات. تكلموا فيه عن صفات الرسل الكرام، وما يجب لهم من عصمة، وما يستحيل عليهم من الكذب، وما يجوز في حقهم عليهم الصلاة والسلام.

-الباب الثالث: السمعيات. وهي الأمور التي نقلت إلينا من قبيل السمع لا من قبيل الفكر والنظر، والعقل والتدبر، كمعرفة اليوم الآخر ووجوب الإيمان به، والجنة، والنار، والصراط، والميزان، والحساب، والملائكة، والجن، وغير ذلك مما جاء في القرآن والسنة فآمنَّا

---

١ - صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر حديث رقم ٨

به، فهذا العلم الشريف قام بمرتبة الإيمان.

٢ – علم الفقه: ثم بعد ذلك أقاموا الفقه ليحافظ علىٰ معرفة أركان الإسلام في العبادات والمعاملات، وأصَّلوا في الفقه حتىٰ زادت الفروع والمسائل الفقهية عن مليون فرع فقهي، مردها كلها إلى الكتاب والسنة.

وقد اختلف الفقهاء في فهم الأحكام من خلال الكتاب والسنة، فتكونت المذاهب الفقهية، وكانت أكثر من تسعين مذهبًا، وبعد ذلك رأوا أن هذه المذاهب تتشابه في معظم آرائها، ثم إن كثيرا من تلك المذاهب لم يكن لأئمتها تلاميذ، لينقلوا مذهب شيخهم ويعتنوا فيه ويؤلفوا؛ فذهبت تلك المذاهب وبقيت لنا المذاهب الثمانية إلىٰ يومنا هذا، منها أربعة مشهورة وعليها جماهير أهل السنة والجماعة، وهي مذهب: الحنفية، والشافعية، والمالكية، والحنابلة، ومنها أربعة غير مشهورة؛ لأن عدد المتبعين لها قليل، وهي: الجعفرية (ويتبعها الشيعة الإمامية)، والإباضية (ويتبعها أهل عمان وبعض أهل الجزائر)، والزيدية (ويتبعها بعض أهل اليمن)، والظاهرية (ويتبعها قليل جدًا من أهل المغرب).

فأصبح هناك علىٰ سبيل الشيوع التام الأئمة الأربعة: أبو حنيفة، وقد مات سنة مائة وخمسين من الهجرة، عن سبعين سنة، فهو من مواليد سنة ثمانين، ومالك، وقد مات سنة مائة وتسع وسبعين من الهجرة، عن سن بلغ أربعًا وثمانين سنة، أو ثمانيا وسبعين سنة؛ لأنه من مواليد سنة تسعين، أو سنة ست وتسعين، والإمام الشافعي مات عن أربع وخمسين سنة؛ لأنه ولد سنة مائة وخمسين من الهجرة، ومات سنة أربع ومائتين، والإمام أحمد بن حنبل ولد سنة أربع وستين ومائة، ومات سنة مائتين وواحد وأربعين تقريبًا، فهؤلاء الأئمة الذين نقلوا لنا

الفقه وحافظوا عليه، لأن هذا الفقه موروث عن الصحابة والأئمة المجتهدين عبر الزمن[1].

٣ – علم التصوف: أو مرتبة الإحسان؛ التي أشار لها الحديث المار (حديث سيدنا جبريل) بــ"أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك"[2]، وعلى ذلك فالتصوف ليس علمًا دخيلا على العلوم الإسلامية بل هو من العلوم الأصيلة، ومن علوم المقاصد التي تقصد لذاتها، وينبغي على كل مسلم أن يطلب تعلمها بقدر استطاعته، فكما يتعلم أصول الإيمان من علم التوحيد ويتعلم أحكام العبادات والمعاملات من علم الفقه، فكذلك لا بد أن يعرف تلك الأخلاق والآداب التي يجب عليه أن يتخلق بها من علم التصوف.

وإذ قد تعرفنا على العلوم التي تنبني عليه المعارف الإسلامية ويقودنا ذلك إلى المبحث التالي وهو يتناول علاقة ذلك الدين بالحياة، وكيف يصير الدين لصاحبه حياة.

وما علاقة ذلك كله بالتصوف الإسلامي؟

---

١ – انظر تاريخ المذاهب انظر كتاب: تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة ط.دار الفكر العربي.

٢ – صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر حديث رقم ٨.

فصل في علاقة الدين بالحياة

من الحقائق الواضحة في ديننا أن العَلاقة بين الدين والحياة هي علاقة تكامل وانسجام، وليست تضاد أو تنافر، فالدين جاء لتستقر به أمور الحياة وتزدهر؛ قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل : ٩٧] ولذلك رأينا المسلمين الأُوَل كانوا أشد الناس تمسكًا بدينهم وكانوا أصحاب حضارة ورقي وازدهار، مما يؤكد أنه كلما ازداد المسلم تمسكًا بدينه وتعاليمه كلما كان ذلك دافعًا له للعيش حياة كريمة عامرة بالخير والسعادة والصلاح.

ومع مرور الأزمان واحتياج الأجيال إلى أن تسير على درب النجاة بالعودة للحقائق عند اختلاف الطرائق، يتردد على ألسنة الشباب كثيرا السؤالُ الآتي:

هل يعد السير في طريق الله سببا لملاقاة الفتن والمصاعب؟

فمما يشاع عند بعض الناس أن الطريق إلى الله ملىء بالفتن والمصاعب، وأن التزام المؤمن بدين الله وبطريقه قد يغير مجرى حياته.

- وللجواب عن ذلك نقول : ينبغي أن يكون الطريق إلى الله جزءا أساسيا من حياة الإنسان، فلمن يسير الإنسان إذا لم يكن سيره في حياته الدنيا لأجل تحصيل رضا الله، والوصول إلى معرفته حق المعرفة، فالدين يأمر المسلم أن يكون متقنًا في عمله فيزيد بذلك ربحُه، ويطمئن خاطرُه، وتسعد حياتُه، ويتفرغ قلبُه للعبادة، كما يأمره أن يكون نظيفًا جميًلا في صورته وأخلاقه، فعن عبد الله بن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه

حسنا ونعله حسنة، قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس».[1]

أما عن النهي الوارد عن التعلق بالدنيا الذي يفهمه بعضهم خطأ؛ نحو حديث "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها" فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: "بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن". فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت"[2]

فالمقصود به ألَّا تكون الدنيا هي الغاية والمقصد، فتكون مدعاة أن يسرق الإنسان ويكذب لتحصيل منافعها، هذا هو المنهي عنه والذي يتمسك بظاهره من لا يفهمون النصوص فهمًا صحيحًا، وقد علَّمَنا مشايخنا أن تكون الدنيا في أيدينا لا في قلوبنا.

ولا تعارض البتة بين الدين والحياة، فكلاهما طريق واحد، والجميع يسيرون في طريق الله بأصل الخلقة دون أن يلتزموا طريقًا معينا؛ لكن على الإنسان أن يتنبه للمنهج الذي يتبعه في سيره إلى الله فلا يُلْزِمُ نفسه بما يشادُّ عليها ويصعب، بل يسلك مسلك اليسر والرفق في كل أموره؛ يقول صلى الله عليه وآله وسلم: "يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ"[3]، ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: "إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق"[4]

وقال: "إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا،

---

١ – صحيح مسلم :كتاب الإيمان – باب تحريم الكبر وبيانه، الحديث :١٤٧

٢ – سنن أبي دواد، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، حديث: ٤٢٩٩

٣ – صحيح البخاري: كتاب الأدب – باب الرفق في الأمر كله الحديث رقم: ٦٠٢٤

٤ – مسند أحمد: مسند أنس بن مالك، الحديث ١٣٠٥٢

واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة "[١]

فالطريق إلى الله ليس صراعًا مع الحياة حتى يشاد فيه المسلم نفسه ويحملها ما لا تطيق، بل هو السير في الحياة بالله ومع الله وإلى الله، ممتثلا في هذا السير كلَّ ما شرعه الله عز وجل من تشريعات لتنتظم بها حياة الناس جميعًا وليس المسلمون فقط، فيسعدوا بها ويطمئنوا ويصلوا بذلك إلى سعادة الدارين الدنيا والآخرة.

كيف يصير الدين حياة؟

من الأمور التي أكد عليها الإسلام اعتبار العمل الصالح أساس الحياة، وليس ضد الحياة؛ فالعمل الصالح في لغة القرآن والسنة يعني كل معروف وكل نفع لخلق الله، قال صلى الله عليه وآله وسلم: "أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا أو تطرد عنه جوعا"[٢]

إذن ليس في الإسلام مفاصلة بين الدين والحياة؛ بل جعل الإسلامُ العملَ الصالح الذي يحبه الله ويرضاه جزءا من الحياة؛ ووسع الإسلامُ مفهومَ العبادة التي يتقرب بها إلى الله ليشمل أيضا دائرة نفع الناس وتقديم العون ونشر الخير ومنع الفساد في الأرض، ومن هنا يقف التصوف ومعارف الصوفية وسلوكهم ومنهجهم ضد كل ما يروج له المتطرفون من عنف وإفساد لمظاهر الرحمة الإلهية ومعانيها؛ فالمتطرفون يدعون أن الدين جاء من أجل دمار العالم أو من أجل حكم العالم[٣] ؛ وكل ذلك افتراء وكذب على الإسلام؛ والحق أن الإسلام

---

١ - صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب الدين يسر، الحديث : ٣٩

٢ - رواه الطبراني في معاجمه الثلاثة عن ابن عمر رضي الله عنهما

٣ - من أكثر الأطروحات المتطرفة وضوحا ما دعا له سيد قطب عبر كتبه من دعوة لحتمية الصدام بين المسلمين وبين غيرهم من الأمم الأخرى ؛ واعتباره غاية الجهاد هدم نظم العالم المخالفة للإسلام يقول في

جاء لأجل رحمة الناس كافة كما قال ربنا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧]:

كتابه " في ظلال القرآن" : " الإسلام ليس بنحلة كالنحل الرائجة، وأن المسلمين ليسو بأمة كأمم العالم .. بل الأمر أن الإسلام فكرة انقلابية (revolutionary) ومنهاج انقلابي يريد أن يهدم نظام العالم الاجتماعي بأسره ويأتي بنيانه من القواعد، ويؤسس بنيانه من جديد حسب فكرته ومنهاجه العملي " في ظلال القرآن ٣/ ١٤٤٦ ط.الشروق الطبعة الثانية والثلاثون ٢٠٠٣ م، وهو ما يبرأ منه دين الإسلام الذي مقصده السلام والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وليس الجهاد سوى وسيلة لتحقيق السلام بردع المعتدي وتأمين السلم للدول المسالمة .

الباب الأول

بيان نشأة التصوف وسنده وأركانه

التصوف قد يراد منه علم التصوف، وقد يراد منه المنهج والسلوك الذي يقوم على تطبيق مرتبة الإحسان وتحقيقها؛ وقد ظهر العلم المسمى بالتصوف لاحقًا على سلوكيات التصوف المستمد من سنة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم .

أولا : منهج التصوف (السلوك) .

التصوف كمنهج وسلوك ليس شيئًا مستحدثًا في الإسلام، بل هو مرتبة من مراتب الإسلام كما سبق وبَيَّنَّا في حديث جبريل عليه السلام، ألا وهو مرتبة الإحسان، هذا المنهج والسلوك ينتقل من جيل إلى جيل بواسطة التربية والصحبة؛ فالصحابة الكرام تربوا على يدي سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الذي أذن الله له بتزكية أصحابه وتربيتهم على الوجه الذي بينه الله ممتنا على الصحابة الكرام كما في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[الجمعة : ٢]

قال العارف ابن عجيبة رضي الله عنه: "ويزكيهم من الرذائل التي تحجبهم عن الله، ويُعلِّمهم أسرارَ الكتاب، وأسرارَ الحكمة، وهي الشريعة، إذ لا يوقف على أسرارهما إلاّ بعد تطهير القلوب، وتزكية النفوس".[١]

فالتزكية الممتن بها هي أحد مهام النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي انتقلت من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه رضي الله عنهم الذين تشرفوا بصحبته والتربية على يديه ثم تلقى هذه المعارف والأخلاق التابعون عن صحابة سيدنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلموها لتابعيهم ثم من لحقهم، وهكذا حتى وصل الأمر إلينا بالسند المتصل؛ حتى تتصل

١ – البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة (٧/ ٤٢)

الأمة في أفرادها ومجموعها بنبيها صلى الله عليه وآله وسلم.

شرح وبيان سند التصوف إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

كل طريق من طرق الصوفية على اختلافها لا بد فيه من إسناد يصل إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك عن طريق الحسن البصري، عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث نشأ الحسن البصري في بيت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، فكان يجالس الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويتعلم على يديه[١]، كما أن هناك سندًا للتصوف يصل إلى سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما[٢].

وهناك طريق للتصوف عن سيدنا أبي بكر الصديق[٣]، وكلهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فطريقنا الأصل فيه الكتاب والسنة.

وقد استدل بعض العلماء على انتهاء أسانيد التصوف وطرقه واقتصارها – في غالبها الأعم –على سيدنا علي بن أبي طالب عن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بحديث عن زيد بن أرقم قال: كان لنفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبواب شارعة في المسجد. قال: فقال يوما: «سدوا هذه الأبواب، إلا باب علي» قال: فتكلم في ذلك الناس، قال: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحمد الله تعالى، وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإني أمرت بسد هذه الأبواب، إلا باب علي، وقال فيه قائلكم، وإني والله ما سددت شيئا ولا

---

١ – سيأتي تفصيل أكثر في ثبوت تلقي الحسن البصري عن سيدنا علي بن أبي طالب .

٢ – انظر البرهان الجلي في تحقيق انتساب الصوفية إلى علي للسيد أحمد بن الصديق الغماري صـ ٢٢٥ وما بعدها ط.مكتبة القاهرة ؛ حيث ذكر عددا من الأسانيد الأخرى للتصوف.

٣ – وعليه مشايخ الطريقة النقشبندية، انظر رشحات عين الحياة في مناقب السادة النقشبندية للشيخ علي بن حسين الواعظ الهروي ص.٦، ٧ ط.دار صادر

فتحته، ولكني أمرت بشيء فاتبعته».[1]

وفي رواية الطبراني "ما أنا سددت أبوابكم، ولكن الله سدها".[2]

قال الشيخ علي بن حسين النقشبندي في رشحات عين الحياة أثناء كلامه عن سند الطريقة النقشبندية وكيف أن طريق التصوف ينتهي إلى الصحابيين الجليلين سيدنا أبي بكر الصديق وسيدنا علي بن أبي طالب فقال: " ويؤيد ما اختاره أهل الحقيقة ما ورد في باب علي كرم الله وجهه.....، ثم قال (وجه التأييد) أن الخلافة غير مختصة بأبي بكر وعلي رضي الله عنهما بخلاف نسبة الطريقة والخلافة الباطنية؛ فإنها مع كثرة طرقها ينتهي انشعابها إلى هذين البحرين "[3]

ومعنى ذلك الكلام أن من جملة ما خص به سيدنا أبو بكر وسيدنا علي الخلافة الروحية أو الباطنية بالإضافة للخلافة الظاهرة ولم تجتمع إلا لهما؛ لكن جماهير الصوفية إسنادها ينتهي لسيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

هل أخذ الحسن البصري عن سيدنا علي بن أبي طالب (كرَّم الله وجهه)؟

هناك من أعداء التصوف من يشككون في سماع الحسن البصري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يريدون بذلك قطع سلسلة السند في التصوف، إلا أن سماعه منه ثابت بالروايات الصحيحة عن الحفاظ والمحدثين؛ فمثلا الحافظ السيوطي يقول في كتابه "الحاوي": (أنكر جماعة من الحفاظ سماع الحسن البصري من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتمسك بهذا بعض المتأخرين فخدش به في طريق لبس الخرقة، وأثبته جماعة وهو

---

١ – رواه الإمام أحمد في مسنده، أول مسند الكوفيين –حديث زيد بن أرقم، حديث رقم ١٩٥٩٥

٢ – رواه الطبراني في الأوسط، الحديث رقم ٣٩٣٠

٣ – انظر رشحات عين الحياة في مناقب السادة النقشبندية للشيخ علي بن حسين الواعظ الهروي صـــ ١٠

الراجح عندي لوجوه، وقد رجحه أيضًا الحافظ ضياء الدين المقدسي. اهـ[1] وقد أُلفت في إثبات سماعه منه المؤلفات ومنها كتاب "القول المستحسن في سماع الحسن"[2]، شرح لكتاب "فخر الحسن في سماع الحسن"

وقد جاء فيه بالكثير من الأدلة التي يتضح بها كيف نسبت الطرق الصوفية لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالسند المتصل عن الحسن البصري.

ومن ذلك أيضا ما ذكره الإمام الحافظ السيد أحمد بن الصديق الغماري في كتابه الماتع الذي ألفه في إثبات اتصال إسناد الصوفية عن طريق الحسن عن سيدنا علي وسمى كتابه "البرهان الجلي في تحقيق انتساب الصوفية إلى علي"، ومما ذكره في ذلك : أن الحسن صحب عليا من سن تمييزه وهو سن الخمس إلى أن بلغ من العمر أربع عشرة سنة فصحبه نحو تسع سنين أو ثمانية، وتأدب بأدبه واهتدى بهديه؛ لأنه كان جارا له في بيت أم سلمة التي كانت حريصة على تأديبه وتعليمه! وكانت ترسله لأفاضل الصحابة يحنكونه ويبركون عليه ويدعون له، فكيف تغفله عن الاتصال بأعلم الصحابة وأعرفهم بالله في عصره علي بن أبي طالب الذي كان لها به وبأهل بيته مزيد اتصال وكمال محبة"[3]

فمن الثابت أن الحسن البصري قد نشأ وتربى في بيت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها حيث كانت أُمه "خَيْرَةُ" مولاةَ أُمِّ سلمة رضي الله عنها، كما كان علي بن أبي طالب رضي

١ - الحاوي للفتاوي للسيوطى ٢/ ١٢٢ ط.دار الفكر للطباعة

٢ - القول المستحسن في فخر الحسن - حسن الزمان الحيدر أبادي، والأصل هو لفخر الدين النظامي كما قاله اللكنوي في إعلاء السنن ١٥/ ٩٤ ط.إدارة القرآن والعلوم الإسلامية كراتشي - باكستان.

٣ - البرهان الجلي ص ٢١٦، وما بعدها

الله عنه يزور أمهات المؤمنين ومنهم أم سلمة والحسن في بيتها[١]

ثانيا (علم التصوف) :

أما التصوف كعلم فشأنه كسائر العلوم التي نشأت لاحقة عن العصر النبوي نظرًا لاتساع المعرفة والحاجة على نقلها والاستدلال عليها؛ فالتصوف كذلك له نشأة وأعلام أسهموا فيه، وأول بروز للتصوف كان في القرن الثاني الهجري في البصرة، يقول ابن خلدون [ت٨٠٨هـ] "هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم، لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عامًا في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة"[٢].

والمراد بالعلم صياغة المنهج في شكل قواعد ومصطلحات وتقسيم هذه المعارف الصوفية إلى أقسام وفصول ومسائل والاستدلال عليها، وهو ما نراه مثلا فيما كتبه الإمام القشيري في الرسالة ومن قبله الحارث المحاسبي في كتبه وأبو طالب المكي في قوت القلوب وغيرهما، ومن بعد هذه الطبقة الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين، وهكذا صار التصوف متميزا عن سائر العلوم الشرعية وإن كان مستمدا منها كعلم التفسير والحديث والتوحيد والفقه .

---

١ – انظر البداية والنهاية لابن كثير ٩/ ٢٦٦ ط.دار الفكر

٢ – تاريخ ابن خلدون (١/ ٦١١، ط. دار الفكر).

لماذا سمي الصوفية بهذا الاسم ؟

أما عن الأصل في اسم الصوفية فقد اختلف العلماء في سبب تسمهيتم بهذا الاسم إلى أقوال:

- منها أنهم كانوا يلبسون الصوف الخشن من الثياب زهدا فسموا صوفية؛ لأنهم يؤثرون لبس الصوف.

وقيل: إنه من مشتق من الصِّفة، إذ أن التصوف هو الاتصاف بمحاسن الأخلاق والصفات، وترك المذموم منها.

وقيل: إنه من الصُفَّة، لأن صاحبه تابعٌ لأهل الصُفَّة الذين هم الرعيل الأول من رجال التصوف؛ وهم مجموعة من المساكين الفقراء كانوا يقيمون في المسجد النبوي ويعطيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الصدقات والزكاة طعامهم ولباسهم، وكان منهم سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه وغيره وفيهم نزل قول الله تعالى ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[الكهف : ٢٨] (١)

وقيل: إنه من الصف، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع الله؛ وتسابقهم في سائر الطاعات.

وقيل: إنه من الصفاء، فلفظة "صوفي" على وزن "عوفي"، أي: عافاه الله فعوفي، وقال أبو الفتح البستي:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا *** وظنه البعض مشتقًا من الصوف

ولست أمنح هذا الاسم غيرَ فتىً*** صفا فصوفي حتى سُمي الصوفي(٢)

---

١ – انظر تفسير البغوي ٣/ ١٨٨ ط.دار إحياء التراث

٢ – انظر في سبب التسمية الكتب الآتية : قواعد التصوف للشيخ أحمد زروق القاعدة : ٧ ص ١٩ ط.دار

العلاقة بين الطرق الصوفية والتصوف أو ما بين المنهج والعلم :

التصوف هو هذا العلم الذي يهتم بشرح معالم الطريق إلى الله سبحانه وتعالى بين الصفة، هو الذي يهتم بتخلية القلب من كل قبيح وتحليته بكل صحيح، هو الذي ينتج بعد التخلي والتحلي "التجلي"، أي تجلي نور الإله سبحانه وتعالى في القلب.

التصوف هو الذي يعالج المقامات والأحوال والتعامل مع كشف الأسرار وتنزل الأنوار في الطريق إلى الله سبحانه وتعالى، هذا هو التصوف.

أما الطرق الصوفية فهي عبارة عن مدارس مختلفة لتطبيق هذا التصوف، ونمط معين حاز القبول من مجموع الأمة وعلمائها وهي أن يكون هناك شيخ وأن يكون هناك مريد وأن يكون هناك ورد وعهد ومدرسة تدرس فيها، هذه المناهج التي يعمل بها جميع المسلمين بدرجات متفاوتة.

علاقة التصوف بالقرآن الكريم :

لم يرد في القرآن الكريم كلمة تصوف إلا أن المبادئ التي استقى منها الصوفية أسس التصوف كلها مأخوذة من القرآن، ثم من السنة النبوية المطهرة، وحال الصحابة رضوان الله عليهم؛ ولذلك يقول الإمام الجُنَيدِ: «طريقتنا هذه مشيدة بالكتاب والسنة؛ فمن لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر»[1]

فالتزكية عند الصوفية تتم بعلم وعمل ومتابعة، وبهم يكون التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل، هذا إلى جانب التأمل في الكون والنظر في كتاب الله المنظور إلى جانب التمسك بكتاب الله المسطور وهو القرآن الكريم، فهذه حلقة متكاملة لا يخرج عنها الصوفي في

البيروتي، التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي صـ ٢١ ط.دار الكتب العلمية

١ – انظر الرسالة القشيرية للإمام القشيري ١ / ٧٩ ط. دار المعارف

سلوكه، وسيره.

وجميع مقامات الصوفية وأحوالهم مستندة إلى شواهد من القرآن الكريم.

وسنشير فيما يلي إلى آيات من القرآن الكريم التي تستند إليها بعض تلك المقامات والأحوال، وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

فتستند مجاهدة النفس التي هي بداية الطريق إلى الله آيات مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]

ومثل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾ [النَّازعات:٤٠-٤١].

ومقام مثل مقام التقوى يستند إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]

ومقام الزهد يستمد من قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء:٧٧]، ومن قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩].

ومقام التوكل يستمد من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطَّلاق:٣]، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:٥١].

ومقام الشكر مُسْتَمَدٌّ من آية مثل: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

ومقام الصبر مُسْتَنِدٌ إلى مثل قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾ [النحل:١٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥]

أما مقام الرضا فمذكور في قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩].

ومقام الحياء يمكن أن يُرد عندهم إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾ [العلق:١٤].

وهناك مقامات أخرى منها مثلًا: الفقر، بمعنى: الافتقار إلى الله، وهذا يستند عند الصوفية إلى آية مثل قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِالَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٧٣]، وإلى مثل قوله تعالى: ﴿وَاللهُ الغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الفُقَرَاءُ﴾ [محمد:٣٨].

وهناك –أيضًا– مقام المحبة المتبادلة بين العبد والرب، وهو مشار إليه صراحة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَاالَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤].

وكلام الصوفية في المعرفة الحاصلة عن التقوى والتخلق، والإلهام يرد عندهم أيضا إلى آيات مثل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّاعِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥].

بل إن الحديث القرآني عن قصة سيدنا موسى والخضر الذي أتاه الله تعالى من لدنه علمًا لم يعلمه موسى عليه السلام، يعد من الأسس التي ارتكز عليها الصوفية في حديثهم عن علوم الباطن والظاهر.

أما الأحوال فمستندة –أيضًا–إلى القرآن، فهناك مثلًا حال الخوف الذي يستند إلى قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:١٦].

وحال الرجاء الذي يستند إلى آية قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآَتٍ﴾ [العنكبوت:٥].

وحال الحزن الذي يستند إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ﴾ [فاطر:٣٤].

بل إن بعض رياضات الصوفية العملية وأهمها الذكر تستند في الأساس إلى الآمر القرآني مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٤١].

ومعنى الولاية يستند إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

فالقرآن الكريم كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: "حبل الله المتين، هو الجد وليس بالهزل"، لا تنتهي عجائبه، فكلما تقرأه كلما تتفتح لك أبواب، وكلما تربط بين آياته ومعانيها كلما تشعر أن هناك مستوى آخر للمعرفة أعمق من الذي وصلت إليه، وكلما يدخل هذا القرآن في دمك ولحمك، ولذلك شأن غريب.

لذلك كله فالصوفية يؤكدون على لزوم أن تكون بيننا وبين القرآن علاقة، تبدأ بالقراءة والتلاوة، وتنتهي بالتحقق والتخلق به.

فصل

تفصيل لبعض المقامات والأحوال

نتكلم هنا على عشرة مقامات تثمر عشرة أحوال مواهب بقدرة الواهب، وفيما يلي بيان لكل مقام وما يثمره من أحوال :

المقام الأول : التوبة .

قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة : الحجرات]، فاستحق تارك التوبة وصف الظلم، فهو ظالم لنفسه بوقوفه حائلا بينها وبين ربها، والتوبة لا تصح إلا بعد معرفة الذنب، وحتى يكمل لك معرفة الذنب لابد أن تنظر إلى ثلاثة أشياء : أولها : أنك تخليت عن حفظ الله لك، وأسقطته واجترأت على الذنب، ثانيها : أنك فرحت به عند فعله بدلا أن تحزن، ثالثها : أنك أصررت على عدم الرجوع فور فعله مع تيقنك بنظر الحق إليك.

وحقائق التوبة ثلاثة أشياء : تعظيم الجناية وذلك بالنظر إلى من عصيت، واتهام النفس في التوبة، وطلب إعذار الخليقة. وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة أشياء : تمييز الثقة من الغرة، ونسيان الجناية، والتوبة من التوبة أبدا؛ لأن التائب داخل في الجميع من قوله تعالى : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ ﴾ [النور : ٣١]، فأمر التائب بالتوبة.

ولطائف أسرار التوبة ثلاثة أشياء : أولها : النظر إلى الجناية والقضية، فيعرف مراد الله تعالى فيها إذ خلاه وإتيانها، فإن الله تعالى إنما يخلي العبد والذنب لأحد معنيين : أحدهما : أن يعرف عزته في قضائه، وبره في ستره، وحلمه في إمهال راكبه، وكرمه في قبول المعذرة منه، وفضله في معرفته. والثاني : ليقيم على العبد حجة عدله، فيعاقبه على ذنبه بحجته، واللطيفة الثانية : أن يعلم أن طلب النصير الصادق سيئة لم تبق له حسنة بحال؛ لأنه يسير بين مشاهدة المنة وتطلب عيب النفس والعمل. واللطيفة الثالثة : أن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له

استحسان حسنة، ولا استقباح سيئة؛ لصعوده من جميع المعاني إلى معنى الحكم.

فتوبة العامة لاستكثار الطاعة، فإنه يدعو إلى ثلاثة أشياء : إلى جحود نعمة الستر والإمهال، ورؤية الحق على الله تعال، والاستغناء الذي هو عين الجبروت، والتوثب على الله تعالى، وتوبة الأوساط من استقلال المعصية وهو عين الجراءة والمبارزة، ومحض التزين بالحمية والاسترسال للقطيعة، وتوبة الخواص من تضييع الوقت، فإنه يدعو إلى درك النقيصة، ويطفئ نور المراقبة، ويكدر عين الصحبة، ولا يتم مقام التوبة إلا بالانتهاء إلى التوبة مما دون الحق، ثم رؤية تلك التوبة، ثم التوبة من رؤية تلك العلة.

فمن لا توبة له لا مقام له، وسبب توبة الشيخ العارف بالله ذي النون المصري أنه قال وقد سئل عن أصل توبته : خرجت مرة من مصر إلى بعض الطريق فنمت في الطريق وفتحت عيني، وانتبهت فإذا بقنبرة عمياء سقطت من شجرة فانشقت الأرض فخرجت منها سكرجتان (هو ما يشبه الإناء) إحداهن من ذهب والأخرى من فضة، في إحداهن سمسم، وفي الأخرى ماء، فأكلت من هذا وشربت من هذا، فقلت : حسبي، ولزمت الباب حتى قبلني.

أما عن ما يبنى على هذا المقام من أحوال ، فمن تاب توبة النصوح الصادق بصدق النية وشجن القلب، أثمرت له محبة الله تعالى، وهي حالة يجدها العبد في قلبه تلطف العبارة، تحمله تلك الحالة على التعظيم لله وإيثار رضاه، وقلة الصبر عنه والاهتياج إليه، وعدم القرار من دونه، ووجود الاستئناس بدوام الذك له بقلبه.

المقام الثاني : الورع .

قال تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر : ٤]، والورع : هو توق مستقصي على حذر، أو تحرج على تعظيم، وهو آخر مقام الزهد للعامة، وأول مقام الزهد للمريد، وهو على ثلاث

درجات. الدرجة الأولى : تجنب القبائح بصون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان. وهذه الصفات الثلاث في الدرجة الأولى هي ورع المريد. الدرجة الثانية : حفظ الحدود عند ما لا بأس به، إبقاء على الصيانة والتقوى، صعودا عن الدناءة، وتخلصا عن اقتحام الحدود. الدرجة الثالثة : التورع عن كل داعية تدعو إلى شتات الوقت، والتعلق بالتفرق، وعارض يعارض حال الجمع.

رجع الشيخ إبراهيم بن أدهم من بيت المقدس إلى البصرة في رد تمرة، ورجع أبو يزيد وهو طيفور بن عيسى بن شروشان البسطامي من بسطام إلى همذان في رد نملة وجدها في قرطم اشتراه ممن هناك، وقال غربتها عن وطنها.

وبخصوص ما يبنى على مقام الورع من أحوال، فمن أحكم مقام الورع بصدق القلب وشجن القلب أثمر له الحال الوهبي، وهو الشوق والشوق عندهم احتراق الأحشاء، وتلهب الأكباد، وعند بعضهم : ارتياح القلوب بالوجد ومحبة اللقاء بالقرب.

المقام الثالث : الزهد .

قال الله تعالى : ﴿ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [هود : ٨٦] فالزهد : هو إسقاط الرغبة عن الشيء بالكلية، وهو للعامة قربة وللمريد ضرورة، وللخاصة خشية، وهو على ثلاث درجات. الدرجة الأولى : الزهد في الشبهة بعد ترك الحرام، بالحذر من المعتبة، والأنفة من المنقصة، وكراهة مشاركة الفساق. الدرجة الثانية : الزهد في الفضول، وما زاد على المسألة والبلاغ من القوت باغتنام التفرغ إلى عمارة الوقت، وحسم الجأش، والتحلي بحلية الأنبياء والأولياء والصديقين. الدرجة الثالثة : الزهد في الزهد، بثلاثة أشياء : باستحقار ما زهدت فيه، واستواء الحالات عندك، والذهاب عن شهود الاكتساب ناظرا على وادي الحقائق.

أما الزهد في الحرام، وهو فرض على كل مسلم، حكي أنه تحارب ملكان من ملوك

اليمن في قديم الزمان، فغلب أحدهما صاحبه وقتله وشرد أصحابه وهيئ له السرير وزينت له دار الملك، وتلقاه الناس ليدخل، فبينما هو ببعض السكك يقصد دار الملك إذا وقف له رجل ينسب إلى الخير فأنشد :

تسمع من الأيام إن كنت حازما	فإنك فيها بين ناه وآمر
وكم ملك قد ركم الترب فوقه	وعهدي به بالأمس فوق المنابر
إذا كنت في الدنيا بصيرا فإنما	بلاغك فيها مثل زاد المسافر
إذا أبقت الدنيا على المرد دينه	فما فاته منها فليس بضائر

فقال صدقت : ونزل عن فرسه ورقى الجبل، وأقسم على أصحابه أن لا يتبعه أحد، فكان آخر العهد به، رحمه الله تعالى.

ويبنى على هذا المقام من الأحوال، فمن أحكم مقام الزهد بصدق النية وشجن القلب، أثمر له الحال الوهبي، حالة الهيبة الوهبية، وهو خشوع النفس وخضوعها عند ظهور لائح الجلال والعظمة.

المقام الرابع : مقام الصبر .

قال الله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ [النحل : ١٢٨]، فالصبر : هو حبس النفس على جزع كامن عن الشكوى، وهو أيضا من أصعب المنازل على العامة، وأوحشها في طريق المحبة، وأنكرها في طريق التوحيد، وهو على ثلاث درجات. الدرجة الأولى : الصبر

عن المعصية بمطالعة الوعيد، إبقاء على الإيمان وحذرا من الحرام، وأحسن منها الصبر عن المعصية حياء. الدرجة الثانية : الصبر على الطاعة بالمحافظة عليها دواما، وبرعايتها إخلاصا، وبتحصينها علما. الدرجة الثالثة : الصبر في البلاء، بملاحظة حسن الجزاء، وانتظار روح الفرج، وتهوين البلية بعد أيادي المنن، وتذكر سوالف النعم، وفي هذه الدرجات الثلاث نزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا ﴾ يعني في البلاء. ﴿ وَصَابِرُوا ﴾ يعني عن المعصية. ﴿وَرَابِطُوا ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] يعني على الطاعة. وأضعف الصبر : الصبر لله، وهو صبر العامة، وفوقه الصبر بالله وهو صبر المريد، وفوقهما الصبر على الله وهو صبر السالكين.

حكي عن بعضهم أن راض نفسه بالسهر بالليل وصبر عليها حتى صار له عادة فأقام على ذلك مدة من الزمان كما شاء الله عز وجل، فغلبه النوم فرأى الحق سبحانه عز وجل في النوم، فكان متكلف النوم بعد ذل، فقيل له في ذلك فقال :

رأيت سرور قلبي في منامي فأحببت التنفس والمناما

وأما عن أحوال هذا المقام، فمن أحكمه بصدق النية وشجن القلب، أثمر له الحال الوهبي، وهو الأنس والأنس عندهم، ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة، وعلامة الأنس بالله كلما ازداد ازدادت به المحبة والهيبة.

المقام الخامس : الفقر .

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [فاطر : ١٥]، فالفقر : هو اسم للبراءة من رؤية الملكة، وهو على ثلاث درجات. الدرجة الأولى : فقر الزهاد، وهو قبض اليد عن الدنيا ضبطا أو طلبا. وإسكات اللسان عنها ذما أو مدحا، والسلامة منها طلبا أو تركا، وهذا هو الفقر الذي تكلموا في شرفه.

الدرجة الثانية : الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل، وهو يورث الإخلاص من رؤية الأعمال، ويقطع شهود الأحوال، ويمحص من أدناس مطالعة المقامات. الدرجة الثالثة : صحة الاضطرار والوقوع في يد المنقطع، والوحداني في بيداء التجريد، وهذا فقر الصوفية

حكى بعضهم أن قال : كنا بعسقلان وشاب يغشانا يتحدث معنا فإذا فرغنا قام إلى الصلاة يصلي فودعني يوما وقال : أريد الإسكندرية فناولته دراهم فأبى أن يأخذها فألححت عليه فألقى كفا من الرمل في ركوته واستسقى من ماء البحر، فقال : كله فإذا هو سويق وسكر كثير، فقال : من كان هذا حاله ومعه مثل هذا لا يحتاج إلى دراهمك.

وحكى بعضهم أنه قال : رأيت القيامة قد قامت ويقال أدخلوا محمد بن واسع ومالك بن دينار الجنة، فنظرت أيهما يتقدم فتقدم محمد بن واسع، فسألت عن سبب تقدمه فقيل إنه كان له قميص، ولمالك قميصان.

وعن أحوال هذا المقام، فمن أحكم مقام الفقر بالصدق والنية وشجن القلب، أثمر له الحال الوهبي وهو حال القرب. قال تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق : ١٩]، ومعنى القرب وهو قرب العبد أولا بإيمانه وتصديقه ثم قربه بإحسانه وتحقيقه، وقرب الحق من العبد بما يخصه به اليوم من العرفان، وفي الآخرة مما يكرمه من الشهود والعيان، وفيما بين ذلك بوجود اللطف والامتنان.

المقام السادس : الشكر .

قال الله عز وجل ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣]، فالشكر : هو اسم لمعرفة النعمة؛ لأنها السبيل إلى معرفة المنعم، ولهذا المعنى سمى الله تعالى الإسلام والإيمان في القرآن شكرا. ومعاني الشكر ثلاثة أشياء : معرفة النعمة، ثم قبول النعمة، ثم الثنء بها، وهو أيضا من سبل العامة، وهو على ثلاث درجات. الدرجة الأولى : الشكر على المحاب،

وهذا شكر تشاركت المسلمون فيه واليهود والنصارى والمجوس، ومن سعة بر الباري أنه عده شكرا، ووعد عليه الزيادة، وأوجب فيه المثوبة. الدرجة الثانية : الشكر في المكاره، وهذا ممن يستوي عنده الحالات إظهار الرضا، وممن يميز بين الأحوال كظم الغيظ والشكوى، ورعاية الأدب، وسلوك مسلك العلم، وهذا الشاكل أول من يُدعى إلى الجنة. الدرجة الثالثة : أن لا يشهد العبد إلا المنعم، فإذا شهد المنعم عبودة استعظم منه النعمة، فإذا شهده حبا استحلى منه الشدة، فإذا شهده تفريدا لم يشهد منه نعمة ولا شدة.

وقال العارفون : هو اعتراف اللسان بالنعمة، واتصاف البدن بالخدمة، حكي أنه لما بشر إدريس عليه السلام بالمغفرة : سأل الحياة، فقيل له في ذلك، فقال لأشكره فإني كنت أعمل قبله للمغفرة، فبسط الملك جناحه واحتملته الملائكة إلى السماء.

وعن أحوال هذا المقام، فمن أحكمه بصدق النية وشجن القلب، أثمر له الحال الوهبي، وهو حال الحياء، وهو وجود الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك.

المقام السابع: الخوف .

قال الله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : ٥٠] فالخوف : هو الانخلاع عن طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر، وهو على ثلاث درجات. الدرجة الأولى : الخوف من العقوبة، وهو الخوف الذي يصح به الإيمان وهو خوف العامة، وهو يتولد من تصديق الوعيد، وذكر الجناية، ومراقبة العاقبة. والدرجة الثانية : خوف المكر في حال جريان الأنفاس المستغرقة في اليقظة المشوبة بالحلاوة، وليس في مقام أهل الخصوص وحضة الخوف إلا هيبة الجلال، وهي أقصى درجة بشار إليها في غاية الخوف، وهي هيبة تعارض المكاشف أوقات المناجاة، وتصون المشاهدة أحيان المسامرة، وتقصم المعاين بصدمة العزة.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه : إذا تنفس يشم من رائحة الكبد المشوية، وكان

بعضهم إذا غلب عليه الخوف في الخلوة رجع إلى السوق، ولم يزل كذلك إلى أن تمكن وقوى وآذن له في الاجتماع والصحبة، وصحبه الناس وانتفعوا به، ومن ذلك بعضهم أنه كان إذا غلب عليه الحال ركب فرسه وأتى امرأته فيسكن ما به.

وأما عن أحوال هذا المقام، فمن أحكم مقام الخوف بصدق النية ، وشجن القلب أثمر له الحال الوهبي وهو حال السكر، وهو عندهم استيلاء سلطان الحال.

المقام الثامن : الرجاء .

قال سبحانه تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ [الأحزاب : ٢١] والرجاء : هو أضعف منازل المريد؛ لأنه معارضة من وجه، واعتراض من وجه، وهو وقوع في الرعونة في مذهب هذه الطائفة، إلا ما فيه من فائدة واحدة، ولهذا نطق باسمه التنزيل والسنة، ودخل في مسلك المحققين، وتلك الفائدة أنه يفني حرارة الخوف؛ حتى لا يعدو إلى الإياس، والرجاء على ثلاث درجات.

الدرجة الأولى : رجاء يبعث العامل على الاجتهاد، ويولد التلذذ بالخدمة، ويوقظ سماحة الطباع بترك المنأى. الدرجة الثانية : رجاء أرباب الرياضات أن يبلغوا موقفا تصفو فيه هممهم، برفض الملذوذات، ولزوم شروط العلم، واستيفاء حدود الحمية. الدرجات الثالثة : رجاء أرباب أرباب طيب القلوب، وهو رجاء لقاء الحق تعالى الباعث على الاشتياق، المنغص للعيش، المزهد في الخلق.

فقد قال الله تعالى : ﴿ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٣] قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦]، وفي رواية للبخاري « رحمتي سبقت غضبي »، وروى عن بعض الفقهاء كان من الوكلاء على باب القاضي، فكان يقرا في المصحف ويمسح به وجهه في آخر عمره، فرآه بعض الناس بعد موته فقال : ما فعل الله بك

؟ فقال : قال لي : يا شيبة السوء جئتني بالذنوب الموبقات، فقلت : يا رب ما هكذا بلغني عنك، قال : فما بلغك؟ قلت : الكرم، قال : اذهب فقد غفرت لك.

وعن أحوال مقام الرجاء، فمن أحكم هذا المقام بصدق النية وشجن القلب، أثمر له الحال الوهبي، وهو الوصول. والواصل عندهم أن لا يشهد العبد غير خالقه، ولا يتصل بسره خاطر غير صانعه. قال المشايخ : هو أن يكون العبد همه الله وشغله في الله ورجعوه إلى الله، وعند بعضهم مكاشفات القلوب بمشاهدات الأسرار والواصل لا يحجبه الحق عن شيء.

المقام التاسع : التوكل على الله .

قال تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣]، فالتوكل : هو كِلة الأمر كله إلى مالكه والتعويل على وكالته، وهو من أصعب منازل العامة عليهم، وأوهى السبل عند الخاصة؛ لأن الحق دق وكل الأمور كلها إلى نفسه، وآيس العالم عن ملك شيء منها، وهو على ثلاث درجات كلها تسير مسير العامة. الدرجة الأولى : التوكل مع الطلب، ومعاطاة السبب على نية شغل النفس، ونفع الخلق وترك الدعوى. الدرجة الثانية : التوكل مع إسقاط الطلب، وغض الطرف عن السبب اجتهادا لتصحيح التوكل وقمعا لشرف النفس، وتفرغا إلى حفظ الواجبات. الدرجة الثالثة : التوكل مع معرفة التوكل، والمنازعة إلى الخلاص من علة التوكل، وهو أن تعلم أن ملكة الحق تعالى للأشياء، ملكة عزة لا يشاركه فيها مشارك؛ يكل شريكه إليه، فإن من ضرورة العبودية أن يعلم العبد أن الحق تعالى هو مالك الأشياء وحده.

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] قال العلماء : أي كافيه ومنجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة إذا فوض أمره إليه. قال ذو النون المصري :

التوكل ترك تدبير النفس، والانخلاع عن الحول والقوة.

وعن أحوال هذا المقام، فمن أحكمه بصدق النية وشجن القلب، أثمر له الحال الوهبي، وهو حال الفناء، والفناء عندهم : هو سقوط الأوصاف المذمومة. قال المشايخ : الفناء هو الغيبة عن الأشياء كما كان فناء موسى. عليه السلام. حين تجلى ربه للجبل.

المقام العاشر : الرضا .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر : ٢٧، ٢٨]، فلم يدع في هذه الآية للمتسخط إليه سبيلا، وشرط للقاصد الدخول في الرضا، فالرضا : اسم للوقوف الصادق حيث ما وقف العبد، لا يلتمس متقدما ولا متأخرا، ولا يستزيد مزيدا ولا يستبدل حالا، وهو من أوائل مسالك أهل الخصوص، وأشقها على العامة.

وهو على ثلاث درجات. الدرجة الأولى : رضا العامة، وهو الرضا بالله ربا وبسخط عبادة ما دونه، وهو قط رحى الإسلام، وهو مطهر من الشرك الأكبر، وهو يصح بثلاث شرائط : أن يكون الله تعالى أحب الأشياء إلى العبد، وأولى الأشياء بالتعظيم، وأحق الأشياء بالطاعة. الدرجة الثالثة : الرضا عن الله تعالى وبهذا الرضا نطقت آيات التنزيل، وهو الرضا عنه في كل ما قضى وقدر، وهذا من أوائل مسائل أهل الخصوص، ويصح بثلاث شرائط : باستواء الحالات عند العبد، وسقوط الخصومة مع الخلق، وبالإخلاص في المسألة والإلحاح. الدرجة الثالثة : الرضا برضى الله تعالى، فلا يرى العبد لنفسه سخطا ولا رضا، فيبعثه على ترك التحكم وحسم الاختيار، وإسقاط التمييز ولو أدخل النار.

قال تعالى : ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [البينة : ٨]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ذاق طعم الإيمان من رضي الله ربا، وبالإسلام دينا» [رواه مسلم وأحمد والترمذي].

وعن أحوال مقام الرضا، فمن أحكمه بالصدق والنية وشجن القلب، أثمر له الحال الوهبي، وهو مقام البقاء، وهو عندهم : بقاء الصفات المحمودة بعد فناء المذمومة. قال المشايخ العارفون : وصاحب البقاء هو الذي يكون في مقام لا يحجبه الحق عن الخلق، ولا الخلق عن الحق، بخلاف الفناء، فإن صاحبه مستغرق بالحق عن الخلق.

من أركان الطريق

الشيخ

علمنا أن الطريق إلى الله يتطلب وجود شيخ ومريد ومنهج في السير والتربية، وعلمنا أن على المريد أن يختار من كان أقرب إلى السنة وأيسر في السير حتى يكون له شيخًا ويكون عونًا له للوصول إلى المقصود وهو "الله" .

والآن نسير معًا في رحلة المريد مع شيخه، حتى نرى ما الذي سيفعله الشيخ مع المريد، وكيف سيسير به، وما الذي يجب على المريد تجاه شيخه، وما أساس العلاقة بين الشيخ والمريد.

فنقول: الشيخ مرشد إلى الله سبحانه وتعالى، يعلمه كيف يسير في الطريق، وقد استدل أهل الله بجملة من الأدلة على مشروعية الشيخ في الطريق إلى الله، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾ [الرعد: ٧]

قال الشيخ المفسر العارف ابن عجيبة في تفسيره: "... وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ أي: ولكل عصر عارف بالله، يهدي الناس إلى حضرة الله، وهم ورثة الهادي الأعظم والنبي الأفخم، نبينا- عليه الصلاة والسّلام- أولهم سيدنا علي- كرّم الله وجهه للحديث المتقدم[١]، لأنه أول مَن أظهر علم التصوف وأفشاه، ثم أخذه عنه الحسن البصريّ وهذبه، ثم حبيب العجمي، ثم داود الطائي، ثم معروف الكرخي، ثم سري السقطي، ثم إمام الطريقة: أبو القاسم الجنيد، ثم انتشر في الأرض، فلكل عصرٍ رجالٌ يحملون لواء الحقيقة، ويهدون الناس إلى لباب

١ – لعله يشير إلى حديث " أنا مدينة العلم وعلي بابها " وإن لم يكن مذكورا في تفسيره، وقد حكم بصحة هذا الحديث الحافظ المحدث السيد أحمد بن الصديق الغماري كما في كتابه فتح الملك العلي بتصحيح حديث باب مدينة العلم علي .

الشريعة، وهم العارفون بالله "[1]

والطريق إلى الله مؤداه الذكر والفكر، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] .

معنى أخذ الطريق والعهد:

معنى أخذ الطريق والعهد بين المريد والشيخ أي أنه عاهده أن يتبعه على عبادة الله سبحانه وتعالى، فإذا ما راودته شهواتُ الدنيا تذكر شيخه، ونصحه له، وعهده الذي قطعه معه، وسؤاله له الذي لا يستطيع أن لا يصدقه فيه، فيكون ذلك رادعًا له عن أي فعل يخالف ما عاهد عليه شيخه من طاعة الله تعالى، وذلك لأن الإنسان في بداية الطريق يخجل من الناس أكثر مما يخجل من الله؛ لأن الله معه دائما، فقد يجترئ على الذنب، وقد استفيد هذا المعنى من قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقد أخذ أهل التربية من قوله تعالى "مع الصادقين" معنى أن يكون الإنسان في حياته مرافقًا لشيخ يتعلم منه طريق السير إلى الله، ويأخذ منه خبرته في ذلك، وتجربته، فيوفر عليه الكثير من منعطفات الطريق، ويكون بينه وبينه عهدًا على طاعة الله تعالى وتجنب معاصيه على قدر الطاقة والوسع.

وقد يسأل البعض ما هو السبيل للوصول إلى الشيخ؟

فنقول: إن أول خطوة للوصول إلى الشيخ هي الدعاء، وهكذا تعلمنا من مشايخنا أن ندعو الله أن يرشدنا إلى الشيخ، يقول الشيخ الدردير رحمه الله: "فعلى من تشوقت نفسه إلى سلوك طريق التجريد حتى يستغرق في بحار التوحيد ملازمة التقوى والالتجاء إلى الله والتوسل إليه برسوله – عليه الصلاة والسلام – في أن يجمعه على شيخ عارف يربيه ويخرجه

١ – البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة ٣/ ١٢

من الظلمات النفسية ويصفيه "[1].

ما علامة الشيخ في الطريق؟

فإذا دلَّك الله على الشيخ؛ الذي يستقيم أمره وظاهره على الشريعة فاعلا للطاعات مجتنبا للكبائر؛ فإن له علامة أخرى حتى يمكنني أن أرجحه على غيره وهي: أن يكون أيسر في منهجه وسيره، وأن يكون أقرب إلى القرآن والسنة، فالشيخ إذا كان ميسرا على المريد مربيًّا له يأخذ بيده برفق إلى طريق الله مبتعدا عن الشبهات والشهوات في غير تنطع فإنه في هذه الحالة يمكن للمريد أن يصحبه لينتفع بعلمه وخبرته في طريق الله عز وجل.

فائدة لمن لم يجد شيخ التربية :

هناك من هو كلما ذهب لشيخ لم يجد قلبه عنده؛ أو لم يُوفق لشيخ بعد، وهذا عليه أن يكثر من الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتقوم له بمقام المربي فيكون أقلها في اليوم ألف مرة بأي صيغة تجد قلبك فيها، قال العارف ابن عجيبة في تفسيره البحر المديد: "والحق الذي لا غبار عليه: أن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، والإكثار منها، تدل صاحبها على من يأخذ بيده، وتوصله إلى شيخ التربية، الذي هو خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إن كان صادق الطلب"ا.هـ [2]

فإذا داومت على ذلك تجد أن قلبك قد استنار، وترى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام فيرشدك، ويفتح الله عليك بآية تقرأها في القرآن أو بكلمة تسمعها من شيخ ويكون

١ - شرح الخريدة البهية للشيخ الدردير مع حاشية الشيخ محمد بخيت المطيعي صـ١٩٥، صـ١٩٦ ط.جريدة الإسلام سنة ١٣١٥ هـ

٢ - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة ٤/ ٤٦٠ نشر الدكتور حسن عباس زكي، وسيأتي في مبحث الذكر فضل الصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهميتها في الطريق إلى الله.

ذلك بمثابة وجود شيخ لك، وهو ما يسمونه فتحا أي فتحت بصيرتك فتفهم من حولك فهمًا صحيحًا إلى أن يرزقك الله بشيخ، وقد كتب أيضا لإرشاد من لم يجد له شيخًا عديد من المؤلفات ومنها كتاب "هداية ربي عند فقد المربي"(١).

فالمقصود ليس الشيخ، المقصود هو "الله"، والشيخ وسيلة في الطريق الذي يُعينني على الوصول إلى الله، وقد يكون ذلك بوجود الشيخ السالك بي الطريق، وقد يكون بالفتح الرباني عليّ، يقول صلى الله عليه وآله وسلم:"أن تَعبدَ الله كأنَّكَ تراه"، هذا هو المقصد والغاية، فإن لم أستطع الوصول لذلك؟ فيقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "فإن لم تكُنْ تَراه فإنَّه يَراكَ"(٢).

فوجود الشيخ ليس ضروريا في الوصول إلى الله ؛ لكن الغالب في أحوال العُبَّاد والزهاد والسائرين إلى الله هو أنهم يحتاجون لشيخ التربية؛ إذ قد يحدث للإنسان أثناء السير عقبات وأمور قد تشكل عليه، فهنا يأتي الإرشاد القرآني العام ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧]، أي على الإنسان أن يرجع لمن يدله على الحقائق ويرفع عنه الشبهات؛ للإنسان أن يعبد الله على مستوى "فإن لم تكن تراه فإنه يراك" كما ورد بالحديث، فليس لزامًا على كل مسلم أن يكون متصوفا أو صاحب طريق، ولكن يجب عليه أن يعيش مرتبة الإحسان؛ ويسعى لإصلاح أخلاقه وعبادته وعلاقته مع الله ومع الخلق؛ لكن وعلى

(١) هذا عنوان كتاب للمتقي الهندي طبع قديما وهو يتكلم عن أحد وسائل التربية عند فقد الشيخ وهو الموت الاختياري أي أن يذكر الإنسان نفسه الموت كل فترة لأجل أن يهون في قلبه شأن الدنيا ليقبل على الله، انظر كتاب "هداية ربي عند فقد المربي" للمتقي الهندي الذي تعرض بالشرح لهذا الأمر [ط.شركة الإسلام بمكة المشرفة ١٩١٤ م]

٢ – صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر حديث: رقم ٨

كل حال إذا أراد سلوك طريق التصوف والالتزام بما يقرره أهل الطريق، فإن أول خطوة في ذلك هي اتخاذ الشيخ الذي يدل الإنسان على الطريق ويأخذ بيده ليدخله على الله ؛ وذلك بخلاف الذي منهجه الشدة فإن قد يؤدي لانقطاع المريد عن السير حيث إن مبنى الدين هو التيسير؛ وقد كان من توجيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم للصحابة الكرام قوله : " إنما بعثتم ميسرين ". [1] فليس التشدد والحرج والتنطع من الدين في شيء .

من مهام الشيخ " تلقين المريد الذكر ":

من أهم ما يفعله الشيخ مع المريد هو أن يلقنه الذكر، ومعنى التلقين: أن الشيخ سيقول للمريد: افعل كذا صباحًا، وافعل كذا مساءً. ويحثه على الالتزام بها، ويرقيه من درجة إلى درجة من خلال أسماء الله الحسنى على النحو الذي سيأتي تفصيلا فيما بعد، ولا ينبغي على المريد أن يشرع في ذكر من غير إذن الشيخ، أو تلقينه حتى لا يفقد بركة الطريق، وأما دليل التلقين من السنة فكثير فمن ذلك ما روى عن يعلى بن شداد قال: حدثني أبي شداد –وعبادة بن الصامت حاضر يصدقه –قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم– فقال: "هل فيكم غريب؟ " يعني: أهل الكتاب. قلنا: لا، يا رسول الله، فأمر بغلق الباب، وقال: "ارفعوا أيديكم وقولوا: لا إله إلا الله، فرفعنا أيدينا ساعة ثم وضع – صلى الله عليه وسلم – يده، ثم قال: "الحمد لله. اللّهم إنك بعثتني بهذه الكلمة، وأمرتني بها، ووعدتني عليها الجنة، وإنك لا تخلف الميعاد". ثم قال: "ألا أبشروا؛ فإن الله قد غفر لكم"[2].

---

١ – صحيح البخاري –كتاب الأدب – باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسروا ولا تعسروا، حديث : ٦١٩٦

٢ – قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني، والبزار، ورجاله موثقون.انظر : مجمع الزوائد: (١/ ١٩١) ط. مكتبة القدسي –القاهرة

فائدة للشعراني عن تلقين الذكر :

إذن فتلقين الذكر سنة نبوية، وقد عمل الصوفية على المحافظة عليها إبقاء للبركة وامتثالا للهدي النبوي الشريف، يقول العارف الشعراني[١] : "وأما بيان ثمرة التلقين، فاعلم أن للتلقين ثمرة عامة وثمرة خاصة، ولكل منهما رجال، فالثمرة العامة الدخول بالتلقين في سلسلة القوم فيصير كأنه حلقة من حلق السلسلة الحديد، فإذا تحرك في أمر تحرك معه سائر السلسلة، فإن كل ولي بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأنه واحد من حلق السلسلة بخلاف من لم يتلقن، فإن حكمه حكم الحلقة المنفصلة إذا تحرك في أمر يدهمه ولا يتحرك معه أحد لعدم ارتباطه بأحد"[٢]

إذن تتحدد مهمة الشيخ في أنه سيعلمك الذكر ويجعلك ترتقى فيه من مرتبة إلى أخرى، كما إنه سيعلمك الفكر، فيبين لك كيف تفكر على وجه لا يوقعك في الخطأ في التفكير.

فما هي أخطاء التفكير التي يرشد لها الشيخ ويجنبها المريد؟

السالك إلى الله قد تطرأ عليه عدةُ خواطر وشواغل لا ينجو منها إلا بالشيخ، ومن

---

١ – هو الإمام العارف سيدي عبد الوهاب الشعراني ينتهي نسبه إلى محمد بن الحنفية ؛ كان من كبار علماء عصره حيث صنف في علوم شتى كاللغة والحديث والتفسير والفقه والتصوف والأصول بالإضافة إلى ورعه وزهده وكمال أخلاقه ونصحه للحكام ولعلماء عصره ولعموم الخلق، وله المصنفات العجيبة التي تشهد بعلو مقامه وتمكنه من المعارف ؛ حتى أطلق عليه بعض العلماء أنه مجدد القرن العاشر ت: ٩٧٣ هـ انظر تفصيل ترجمته شذرات الذهب لابن العماد ١٠ / ٥٤٤ ط.دار العلم للملايين، وانظر كذلك للأستاذ عبدالحفيظ فرغلي : عبد الوهاب الشعراني امام القرن العاشر – ط وزارة الثقافة مصر

٢ – الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية للإمام عبد الوهاب الشعراني صـ ٤٠ ط.مكتبة المعارف – بيروت

انشغل بها هلك وضل، وذلك كأن يرى رؤية أو يسمع أشياء من كثرة الذكر، فيذهب ويحكي لشيخه، فيعلمه الشيخ بأن الملتفت لا يصل، أي لا تهتم لهذه الأشياء وأنها من قبيل اللوافت والشواغل عن استكمال السير الصحيح.

ومن ذلك أن كثرة الذكر قد تأخذ المريد إلى التفكر في صورة الله تعالى وحاشاه سبحانه أن يكون مُصورًا؛ فعندما يحكي ذلك لشيخه ينهاه عن ذلك فيقول له: لا تتصور الله. ويرشده إلى الذكر بسبحان الله حتى يصرف عنه ذلك.

بينما لو كان هذا الإنسان وحدَه دون شيخ فمن الممكن أن يعتقد أن ما يراه أو ما يخطر له هو أثار طيبة من نعم الله، وأنه قد بلغ منزلة عُليا، تطمئن نفسه لذلك فيركن إليها، ويصيبه الغرور ويظن أنه ملهم وأنه لا يرى رؤية إلا وتحققت، ويزيد ذلك من شعوره بالأنا، وهذا مما يتنافى مع كونه مريدا سالكا طريق الله.

وهذا من خطورة عدم وجود الشيخ، ويحدث كثيرًا، ومن المؤسف أن الإنسان يتحول بهذه الشواغل دون أن يشعر ويصعب أن تعيده مرة ثانية للطريق السوي؛ ولذلك ننبه على أهمية وجود الشيخ خاصة في الطريق إلى الله حتى لا يزيغ الإنسان بعيدا عن طريق الهداية.

درجات الذكر:

دور الشيخ أن يُعلم المريد الذكر، ويرقيه فيه من درجة إلى درجة، والذكر إما أن يكون باللسان وله ثواب، وإما أن يكون بالقلب وله ثواب، وإما أن يكون باللسان والقلب وفي هذه الحالة ثوابه أتم.

فمن كان ذاكرًا لله سبحانه بلسانه فقط لن يفوته المثوبة على ذلك من الله سبحانه، حتى ولو كان في ذكره هذا سارحًا غير منتبهًا؛ وذلك لأن الذكر عمل من أعمال اللسان ينشغل به، وقد اختار هو أن يشغله بالذكر، وهذا خير من أن ينشغل بالغيبة أو النميمة أو قول الزور.

وقد جرت العادة أن من تعود على ذكر اللسان فإنه بذلك يتهيأ قلبه للحضور وقت الذكر، ولذلك حث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المداومة على الذكر فقال: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[1]

---

١ – أخرجه الإمام أحمد في "مسنده" والإمام ابن أبي شيبيه في " المصنف" والبيهقي في "شعب الايمان"

من أركان الطريق

المريد

المريد اسم فاعل من الإرادة[1]، واختص السالك إلى الله باسم المريد؛ لأن الإرادة بدء طريق السالكين، وَهِيَ اسم لأول منزلة القاصدين إِلَى اللَّه تَعَالَى، وإنما سميت هذه الصفة إرادة؛ لأن الإرادة مقدمة كُل أمر فَمَا لَمْ يرد العبد شَيْئًا لَمْ يفعله[2].

والسادة الصوفية عندما أطلقوا على السالك إلى الله لفظ المريد إنما لاحظوا ما ورد في بعض آيات الكتاب العزيز؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] وقوله عز وجل: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨].فوصفت الآيتان الكريمتان أولئك الذين يدعون ربهم ويعبدونه بأنهم يريدون وجهه الكريم!

وهكذا السادة الصوفية دائما يستندون في علومهم ومعارفهم إلى ما جاء في معاني الكتاب والسنة فالتصوف مستمد منهما .

المريد والمراد :

وكما تعرضنا للمريد وهو الذي يريد وجه الله تعالى ويبذل جهدًا للوصول إلى مرضاته كذلك نتعرض لمصطلح آخر يجري على لسان السادة الصوفية وهو مصطلح " المُراد" وهو الذي يريده الله تعالى فيجذبه اليه بلطفه وكرمه، قال صلى الله عليه وآله وسلم: "عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل"[3] أي: أنه سبحانه وتعالى يوفقهم لكل خير، ويمنعهم

---

١ – انظر كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي ٢/ ١٥١٤ ط.مكتبة لبنان– ناشرون

٢ – الرسالة القشيرية (٢/ ٣٥١)

٣ – صحيح البخاري كتاب الجهاد، باب الأسارى في السلاسل، حديث ٣٠١٠

من كل شر، فلا يعرف أحدهم معصية الله، فيذهب للمكان الذي يُعصي فيه الله فيجده مقفولًا أو يجده مهدومًا، وحينما يحضر في مكان به معصية فتنزل عليه السكينة والنعاس فينام ولا يحضر المعصية، فهو من هذه الجهة مرادٌ، وللإمام القشيري كلام ماتع في الفرق بين المريد والمراد، قال في رسالته : " فأما الفرق بين المريد والمراد فكل مريد على الحقيقة مراد؛ إذ لو لم يكن مراد الله عز وجل بأن يريده لم يكن مريدا، إذ لا يكون إلا ما أراده الله تعالى، وكل مراد مريد؛ لأنه إذا أراده الحق سبحانه بالخصوصية وفقه للإرادة ولكن القوم فرقوا بين المريد والمراد، فالمريد عندهم هو المبتدئ والمراد هو المنتهي، والمريد الذي نصب بعين التعب وألقى في مقاساة المشاق، والمراد الذي كفى الأمر من غير مشقة، فالمريد مُتعنٍ، والمراد مرفوق به مرفه "[١]

ويمكن أن نفهم كيف يتولى الله أحدا بعنايته فيكون مرادا بها علمنا من سيرته صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان قد نزه عن أفعال الجاهلية فلم يسجد لصنم قط، وأن المرات القليلة التي أراد فيها مشاركة شباب قومه في شيء مما يعتاده الشباب من سماع الطرب وغيره كان يغلبه النعاس فلا يسمع.

فروى ابن إسحاق في سيرته والحاكم في المستدرك عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "ما هممت بما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا مرتين من الدهر كلاهما يعصمني الله تعالى منهما. قلت ليلة لفتى كان معي من قريش في أعلى مكة في أغنام لأهلها ترعى: أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما تسمر الفتيان قال: نعم. فخرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوف وزمر فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان تزوج فلانة لرجل من

١ – الرسالة القشيرية ٢/ ٣٥٤

قريش تزوج امرأة فلهوت بذلك الغناء والصوت حتى غلبتني عيني، فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت فسمعت مثل ذلك فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت وغلبتني عيني فما أيقظني إلا مس الشمس، ثم رجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فوالله ما هممت بعدها أبدا بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله تعالى بنبوته "[1]

وذلك لأنه مراد من الله تعالى فأراد أن يعصمه ويحفظه ويرعاه برعايته ليكون قدوة ورحمة للعالمين، فلم يقع في معصية أو خطيئة قبل الرسالة ولا بعدها، بل وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم كلما رغب في شيء حققه الله له، ولو لم يتحدث أو يدعو به، قال تعالى:﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤].

يقول الإمام القشيري: " حَفِظَ- صلواتُ الله عليه- الآدابَ حيث سكت بلسانه عن سؤال ما تمنّاه من أمر القبلة بقلبه، فلاحظ السماء لأنها طريق جبريل عليه السّلام، فأنزل الله عزّ وجل: «قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ» أي علمنا سؤلك عمّا لم تفصح عنه بلسان الدعاء، فلقد غيّرنا القبلة لأجلك، وهذه غاية ما يفعل الحبيب لأجل الحبيب، كلّ العبيد يجتهدون فى طلب رضائى وأنا أطلب رضاك: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ "[2].

وتقول له زوجته السيدة عائشة رضي الله عنها: "ما أرى ربك إلا يسارع في هواك" [3]؛

---

١ - انظر سيرة ابن إسحاق صـ٨٠ ط.دار الفكر بيروت ١٩٧٨ م، والمستدرك للحاكم كتاب التوبة والإنابة وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

٢ - تفسير القشيري ١/ ١٣٤

٣ - أخرجه البخاري في صحيحه كتاب تفسير القرآن با ب قوله (تُرْجِئُ مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ)، حديث رقم ٤٧٨٨

أي ما أرى الله إلا مبلغك ما تريد وتحب، بلا تأخير!

وهذا الحال لم يكن مختصًا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقط، بل ورثه الصالحين من أمته من بعده، فنراه في كثير ممن حولنا، وقد يجده الإنسان في نفسه بعض الأوقات فيجد أنه كلما هم على معصية لم يستطع فعلها، وأغلق عليه طريقها.

وإذا كان معنى العصمة مقصورا على الأنبياء والرسل الكرام عليهم جميعا الصلاة والسلام فإن ما يحصل منه للأولياء يطلق عليه الحفظ، والحفظ لا يعني عدم وقوع المعصية منهم بل قد تقع ولكن ذلك لا يكون منه مع الإصرار.[1]

ومن هنا يمكن أن يسمى الولي المحفوظ كذلك "مُرادا" .

إذن فالمريد من أراد الله تعالى واتبع شيخا ليهديه ويرشده ويدله على الله.

والهداية نوعان: أحدهما بمعنى الإرشاد قال تعالى﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] أي ترشد إليه.

والمعني الثاني: هو خلق قدرة الطاعة في العبد، وهذا لا يكون إلا لله تعالى قال تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

فالشيخ يرشد إلى الله، لكن خلق الهداية في نفس المريد والتوفيق لها أمر يرجع لله وحده.

فمن يريد أن يصل إلى شيء يبحث عمن يوصله إليه، كمن يريد أن يسافر فيبحث عن

---

١ – يقول الإمام القشيري رحمه الله في الفرق بين العصمة والحفظ : " والفرق بين المحفوظ والمعصوم أن المعصوم لا يلمُّ بذنب البتَّة، والمحفوظ قد تحصل منه هنات، وقد يكون له– فى الندرة– زلّات، ولكن لا يكون له إصرار: (أولئك الذين يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ)"ا.هـ تفسير القشيري ٢/ ١٠٥

وسيلة ليبلغ بها سفره، فالشيخ بالنسبة للمريد هو الوسيلة التي يبلغ بها هدفه.

فالمقصود هو الله وليس الشيخ؛ لأن الشيخ ليس معصومًا، قد يكون محفوظًا وذلك عندما يكون الشيخ وارثا محمديا مما يشير له حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم " العلماء ورثة الأنبياء "[1]، لكن في كل الأحوال لا بد أن يكون الشيخ ممن يغلب خيرُه شرَه، وتغلب طاعته تقصيره.

١ – سنن الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة الحديث رقم ٢٦٨٢، ورواه البزار في مسنده بلفظ" العلماء خلفاء الأنبياء "قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٢٦ رواه البزار ورواته موثقون

آداب المريد

اهتم السادة الصوفية بالأدب اهتماما بالغا، وجعلوه من أهم المهمات على المريد؛ فهو يراعي الأدب مع الله ومع شيخه ومع إخوانه ومع الناس أجمعين، ومن كلامهم الدال على أهمية الأدب: "حسنُ الخطاب من تمام الآداب، وتمام الآداب هو السبب الموصل إلى عين الصواب، فمن لا أدب له لا تربية له، ومن لا تربية له لا سَيْر له، ومن لا سير له لا وصول له، فمن لا يتربى على أيدي الرجال لا يُربى الرجال.

وقد قالوا: من أساء الأدب مع الأحباب طُرد إلى الباب، ومن أساء الأدب في الباب طرد إلى سياسة الدواب، وقالوا أيضًا: اجعل عَمَلك مِلْحًا، وأدبك دقيقًا.

وقال آخر: إن الإنسان ليبلغ بالخلق وحسن الأدب إلى عظيم الدرجات وهو قليل العمل، ومن حرم الأدب حُرم الخيرَ كله، ومن أُعطي الأدب فقد مُكن من مفاتيح القلوب، قال أبو عثمان رضي الله عنه: الأدب عند الأكابر وفي مجالس السادات من الأولياء يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلا والخير في الدنيا والعقبى.

وقال أبو حفص الحداد رضي الله عنه: التصوف كله آداب، لكل وقت أدب، ولكل حال أدب، ولكل مقام أدب، فمن لازم الأدب بلغ مبلغ الرجال، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب، مردود من حيث يرجو الوصول.

وقال ذو النون المصري رضي الله عنه: إذا خرج المريد عن استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء" [١]

ومن جملة هذه الآداب التي يجب على المريد الالتزام بها:

---

١ - البحر المديد لابن عجيبة ١/ ١٤٧

١- أن يكون مؤدبًا مع الله باستحضاره عظمته سبحانه ونعمه عليه، وهو ما يدفعه إلى التأدب مع الله في حال الطاعة أو عند وقوع المعصية؛ إذ يسرع إلى التوبة والندم.

٢- كما يجب عليه أن يكون مؤدبًا مع شيخه فلا يخالفه فيما يخص التربية والإرشاد، وقد تعلمنا ذلك من قصة الخضر مع سيدنا موسى عليه السلام إذ قال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، ففي قوله "هل" إشارة إلى أنه تجرد من إرادته إلى إرادة شيخه، وفي قوله: "أتبعك". إشارة إلى الامتثال لكل ما سيعلمه إياه سيدنا الخضر، بدليل أنه لم يقل أصطحبك، بل قال أتبعك.

وزاد على ذلك قوله ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩]، فنعلم من ذلك أنه يجب على المريد الالتزام بما يرشده وينصحه به شيخه، وذلك لأن الشيخ يعلم أمراض الطريق ومنحدراته.

هل يجب على المريد أن يسأل شيخه في كل ما يخص حياته اليومية والحياتية؟

ليس على المريد أن يسأل شيخه في كل أمور حياته، بل يكفي أن يكون سؤاله مختصًا بالسلوك والسير إلى الله والأذكار والواردات، وما يراه من رؤى، وما يجده في نفسه من تغيرات وأحوال وما يطرأ عليه من قصور أو عصيان.

لكن إذا سأله في أمر من الأمور الحياتية كالزواج أو الطلاق أو شراء بيت أو غير هذا، فعليه أن يمتثل لما ينصحه به شيخه، لا على سبيل الوجوب لكن على سبيل الأدب.

وما أدركناه من مشايخ تعلمنا على أيديهم وسلكنا بهم الطريق لم يأمرونا في يوم أن نسألهم عن شيء من أمور حياتنا اليومية، وكان ذلك يأتي من قِبل المريد لا من قبل الشيخ، وهو ليس واجبا على المريد، كما أن الشيخ ليس متفرغا لمثل هذا.

يحكي لنا الشيخ عبد الهادي القليوبي، وهو من تلاميذ الشيخ محمد عبد الوهاب الحصافي[1] شيخ الطريقة الحصافية الشاذلية، والشيخ القليوبي من مواليد ١٩٠٦م وتوفي رحمه الله وعمره ١٠٨ سنة، وقد أخذت عنه سلسلة السند الصوفي؛ قصة مفادها أنه تزوج امرأة جميلة وخلوقة دون أن يقول لشيخه الشيخ الحصافي، وبعد فترة من الزواج جاء الشيخ إلى البلد فأثناء الكلام قال له: إنه تزوج. فقال له الشيخ الحصافي رحمه الله تعالى: تزوجتها؟ قال له: نعم، فقال له: طلقها، فالشيخ القليوبي كان يجل شيخه إجلالا كبيرا جدا، فذهب فطلقها! وأعطاها جميع حقوقها، وبعد ذلك تزوج من امرأة أخرى، ولم يقل للشيخ وبعد فترة في مجلس جمعهم قال له: أنت طلبت مني أن أطلق زوجتي فطلقتُها، ولكن لماذا طلبت مني هذا؟ هل كان بها أي شيء؟

فقال له: لا، فقال الشيخ القليوبي: فلماذا طلبت مني أن أطلقها، قال: لأنك تحب كثرة الأبناء وهي لا تنجب.

فيقول الشيخ القليوبي: إنه بعد مضي العدة من هذه المرأة الفاضلة تزوجت، وزوجها

---

١ - الشيخ محمد عبد الوهاب الحصافي الشاذلي وهو من أئمة التصوف في القرن العشرين، أخذ الطريق عن أبيه الشيخ حسنين الحصافي [ت: ١٣٢٨ هـ] الذي أخذ عن الشيخ محمد عليش المالكي مفتي المالكية و أحد أكبر علماء زمانه، والشيخ محمد عبد الوهاب هو الذي أخذ عنه في أول أمره حسن البنا الطريق كما سجل ذلك في مذكراته (مذكرات الدعوة الداعية)، لكن لما عزم حسن البنا على إنشاء جماعته (الإخوان المسلمون) وأراد الدخول في معترك السياسة رفض الشيخ الحصافي ذلك المسلك وتمسك حسن البنا برأيه وفارق طريق التصوف حتى قتل سنة ١٩٤٩م، وانتقل الشيخ محمد عبد الوهاب الحصافي رحمه الله تعالى يوم الجمعة الموافق ١٤ ربيع الأول ١٣٦٨هـ كما هو مكتوب على لوحة بجوار قبره الشريف حيث دفن بجوار أبيه في مسجد الشيخ حسنين الحصافي بدمنهور بمحافظة البحيرة؛ وانظر أيضا: حكاية الإرهاب أ.د علي جمعة ص١٠٠ ط.النهار

أحسن إليها، أي يعيشون في سعادة تامة، ولم تنجب حتى توفت!

وتبين لنا هذه القصة أنه ليس من أصول الطريق أن يأمر الشيخ مريده بشيء من أمور الدنيا أن يفعله أو لا يفعله، وأن ثقة الشيخ القليوبي بالشيخ الحصافي هي التي جعلته امتثل لقوله، لكن ماذا لو لم يمتثل له هل كان سيأثم أو سيدخل النار؟ بالتأكيد لا، ولكن كان سيُحرم شيئا كان يحبه، علمه الشيخ ببصيرته، ولذلك نصحه هذه النصيحة، فطالما طلبنا النصيحة من مشايخنا فاتباع نصيحتهم فيها بركة ونور، وتركها فيه تفويت لهذه البركة.

أما عبارة "كن بين يدي شيخك كالميت بين يدي مغسله" فإنها ليست على العموم في كل الأمور، أي أنه يفعل بك ما يشاء، وهذا الكلام غير موجود عندنا في أصول الطريق وسيظهر ذلك خلال هذا البحث بكل وضوح.

من أركان الطريق

الذكر

أمرنا الله تعالى في كتابه الكريم أن نكون من الذاكرين، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، فالذكر هو: عبادة القلب الذي يصلح بها ويطمئن بها، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فإذا اطمئن القلب صلح، وصلح بصلاحه سائر الجسد، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُكُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ»(١)

فالذكر عماد القلب، والقلب عماد الجسد، فقلب المؤمن يحيا بذكر الله تعالى، وبحياة القلب يحيا سائرُ البدن، فعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَال: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وسلم : «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ، وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ"(٢)

ويتضح ذلك المعنى عندما نعلم أن الصلاة التي هي عماد الدين وركنه الركين إنما شرعت لأجل ذكر الله تعالى قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]. بل عندما يشرع المسلم في صلاته، بقوله (بسم الله الرحمن الرحيم)؛ يباهي الله به ملائكته ويقول لهم: "ذكرني عبدي"(٣)

---

١ – أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه الحديث : ٥٢

٢ – أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عزوجل الحديث ٦٤٠٧

٣ – هذا جزء من حديث رواه البيهقي في السنن الكبرى كتاب جماع أبواب الصلاة، باب تعيين قراءة الفاتحة، الحديث رقم ٢٣٦٨ والدارقطني في سننه كتاب الصلاة باب وجوب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة الحديث رقم ١١٨٩

فالذكر هو الإطار العام والبيئة الطيبة التي لا بد منها حتى تترعرع فيها بقية العبادات ومن ذلك نلحظ أن الإحرام بالصلاة يبدأ بالتكبير وختامها بالتسليم، وكلاهما ذكر لاسم من أسماء الله تعالى قال تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٥].

والصيام الذي هو سر بين العبد وربه؛ حيث لا يعلم أحد حقيقة صوم العبد من عدمه ينتهي بإعلان التكبير للعيد وذلك من ذكر كذلك قال تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥]

وكذلك نرى في الحج الذي يشتمل على الذكر في كل خطوة منه في كل مشاهده قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة:١٩٨ – ٢٠١]

فعلاقة الذكر ببقية العبادات كعلاقة الشجر بالأرض؛ فلا يمكن أن تزرع شجرة دون أن تمتلك أرضا تزرعها فيها.

فالأمر بالذكر هو أمر المحب لمن يحب، وإنما يَمْتَثِل له من صدق في الحب يقول تعالى ﴿فاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢]، ويقول تعالى في حديث قدسي فيما يرويه صلى الله عليه وآله وسلم: «وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ».(١)

١ – متفق عليه، رواه البخاري كتاب التوحيد – باب قول الله تعالى (ويحذركم الله نفسه)، الحديث رقم: ٧٤٩٤، ورواه مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار – باب الحث على ذكر الله تعالى، الحديث

وإذا أحب المرء منا حبيبا طلب منه أن يذكره –ولله المثل الأعلى–، فالذكر أمارة الحب، فما من محب وهو لاه عن محبوبه، ولذا يقول العلماء إن الذكر منشور الولاية.

يقول العارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني : "وأجمع القوم على أن الذكر مفتاح الغيب، وجاذب الخير، وأنيس المستوحش، ومنشور الولاية، فلا ينبغي تركه، ولو مع الغفلة، ولو لم يكن من شرف الذكر إلا أنه لا يتوقت بوقت لكان ذلك كفاية في شرفه قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران : ١٩١] قالوا: وما ثم أسرع من فتح الذكر، وهو جامع لشتات صاحبه، وإذا غلب الذكر على الذاكر امتزج بروح الذاكر حب اسم المذكور "[١] .

فالطريق الى الله أساسه الذكر، بدايته ذكر، وأوسطه ذكر، ومنتهاه ذكر، حتى يفنى الذاكر في المذكور، حتى يصير ذاكرا في حضرته وفي غيبته، في صحوه وفي نومه، حتى يفنى بمن يذكر عن ذكره.

الرد على المعترضين على الذاكرين بأعداد معينة أو بصيغة غير واردة :

بعض الناس تعترض على السادة الصوفية؛ حيث يدعون أن ما في أورادهم من صيغ وأعداد متنوعة ليس واردا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ وهو ما يحتاج إلى بيان وإيضاح :

فالشرع الشريف جاء بالأمر بالذكر على كل حال:

١ – فأُمرنا به مطلقا من غير تقييد بصيغ أو أعداد أو زمان أو مكان أو حال معين، فعلى المسلم أن يذكر الله بما يجد فيه قلبه وبالعدد الذي يرتضيه سواء كان ذكره هذا بقلبه أم بلسانه

رقم ٦٩٨١

١ – الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية للإمام عبد الوهاب الشعراني صـ ٤٣

أم بهما معا.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يذكر الله على كل أحيانه"(١)

٢- كما جاء الأمرُ به مقيدا بصيغ، وبأعداد وفي أحوال وأزمنة اختصت بهذه الصيغ، كأذكار الصباح والمساء، والذكر بعد كل صلاة، من تسبيح وتحميد وتكبير، وأذكار السفر، وأذكار الطعام والشراب، وعند النكاح، وما ورد من أذكار ينبغي أن نقولها عند لقاء العدو أو عند الخوف والشدائد، أو عند المرض وغير هذا، حتى كان لكل حال من أحوال المسلم ذكر يختص بها.

الأمر الذي جعل كثيرا من العلماء يهتمون بإفراد مصنفات يجمعوا فيها كل ما ورد من أذكار، وبينوا أوقاتها وكيفيتها وآدابها، ومن هذه المصنفات: كتاب "الأذكار" للإمام النووي الذي قيل فيه لعظيم فضله "بع الدار واشتر الأذكار"، وكتاب "تحفة الذاكرين" للشوكاني الذي شرح فيه كتاب "الحصن الحصين" لابن الجزري، وكتاب "عمل اليوم والليلة" لابن السني وللنسائي، و"الوابل الصيب" لابن تيمية، وغيرها من الكتب التي تدل على اهتمام علماء المسلمين باختلاف طبقاتهم ومدارسهم بالذكر وبيان فضله وأنواعه .

وكما أن الذكر هو طريق المحبة والسبيل إليها فهو كذلك طريق الفلاح والنجاح، لذلك بين لنا الله عزوجل أن من أراد الفلاح في حياته فعليه أن يداوم على الذكر، وأن يكون

---

١ - رواه مسلم في صحيحه كتاب الحيض - باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها، الحديث رقم ٨٥٢

لسانه دوما رطبا بذكر الله، قال تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]

ومن تفضله سبحانه على عباده أن جعل الذكر الذي هو أفضل العبادات وأحبها إليه، وأكثرها ثوابًا، وأعظمها أجرًا، ليست مقرونة بوقت ولا بمكان ولا تحتاج إلى شروط أو أسباب كبقية العبادات؛ فليست مقرونة بدخول الوقت كالصلوات الخمس ولا بوجوب الطهارة، ولا بدخول الشهر كالصيام، ولا ملك النصاب كالزكاة، ولا الاستطاعة كالحج، فهي عبادة القوي والضعيف، الغني والفقير، الصحيح والمريض، الطاهر وغير الطاهر، ومع كل ذلك فهي أَفْضَلُ مَا يشْغَلَ الْعَبْدَ بِهِ نَفْسَهُ؛ حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: ذِكْرُ اللَّه»[١]

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال قال صلى الله عليه وآله وسلم «سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ". قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ الْمُفَرِّدُونَ؟ قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ»[٢]

فالذكر هو باب الله الأعظم المفتوح على الدوام إلا أن يغلقه العبد بغفلته، به تنكشف عن القلب الغيوم، وتنير به العيون، ويرتقي المؤمن من نور إلى نور.

وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم كلما ترقى من مقام إلى مقام ازداد ذكرا فازداد ترقيا وعلوا، يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ

---

١ – رواه الترمذي في سننه : كتاب الدعوات – باب ما جاء في فضل الذكر، الحديث رقم: ٣٣٧٧

٢ – رواه مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار – باب الحث على ذكر الله تعالى، الحديث رقم ٢٦٧٦

مَرَّةٍ»[1]

يقول القاضي عياض في تفسيره لقوله صلى الله عليه وآله وسلم [يغان على قلبي] : "إن هذا الغين حال خشية وإعظام يغشى القلب ويكون استغفاره شكرا "[2]

وقيل : كان عليه الصلاة والسلام في ترقٍ من مقام إلى مقام، فإذا ارتقى من المقام الذي كان فيه إلى مقام أعلى استغفر من المقام الذي كان فيه.

ويروى عن الإمام أبي الحسن الشاذلي[3]صاحب الطريقة أنه عندما سمع هذا الحديث تعجب له؛ كيف أن النبي بجماله وجلاله يغان على قلبه! فرأى النبي صلى الله عليه وآله

---

١ – صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار – باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، الحديث: ٢٧٠٢ .

٢ – إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض ط.دار الوفاء ٨/ ١٩٧

٣ – هوالإمام القطب سيدي علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف ابن هرمز الشاذلي المغربي، أبو الحسن: وهو صاحب الطريقة الشاذلية وقد أخذ عنه كبار علماء عصره الطريق كالعز بن عيد السلام وابن دقيق العيد والشيخ عبد العظيم المنذري وغيرهم، ولد في بلاد " غمارة " بريف المغرب، ونشأ في بني زرويل (قرب شفشاون) وتفقه وتصوف بتونس، وسكن " شاذلة " قرب تونس، فنسب إليها. ثم سكن الاسكندرية وتوفي بصحراء عيذاب في مكان يقال له حميثرة وكان في طريقه إلى الحج؛ عن عمر ثلاثة وستون عاما كالعمر الذي توفي به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قام بواجب وقته بتربية الخلق ودلالتهم على الله عزوجل ونشر محبة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وقام بأمر الطريق بعد خليفته الإمام أبو العباس المرسي رضي الله عنه دفين الإسكندرية فرضي الله عنهما وعن كل أهل الطريق من كانوا سببا في دلالة الخلق على الله . لمراجعة المزيد عن سيدي أبي الحسن الشاذلي انظر : المدرسة الشاذلية للشيخ عبد الحليم محمود .

وسلم في المنام وقال له: «يا علي غين أنوار لا غين أغيار»[1].

ومن تكريم الله تعالى لمن ذكره أن جعل ذكره جزاء لمن ذكره قال الله تعالى:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢]، فإذا كان الإنسان يُسر كثيرًا حين يبلغه أن ملكًا من الملوك ذكره في مجلسه فأثنى عليه، فكيف يكون حاله إذا ذكره الله تعالى ملك الملوك، في ملأ خير من الملأ الذين يذكره فيهم؟

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "فذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه"[2]

كما جعل محبته جزاء لمن أحبه ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] وجعل رضاه جزاء لمن رضى ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

فكل هذه النصوص والأدلة تؤكد على أهمية الذكر في كل حال؛ سواء كان سرا أم جهرا جماعة أو فرادى، ولا يصح أن ينكر على الصوفية إلتزامهم الأوراد التي تشتمل على ذكر الله تعالى والثناء عليه جل في علاه مع الدعاء والتضرع له، وكل ذلك مما رغب فيه الشرع الشريف، وكان سببا للفتح والوصول بإذن الله تعالى.

١ – انظر تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية للإمام السيوطي صـ ٢٠ ط.دار الفاتح

٢ – تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٨/ ٤١٤)

الذكر بالاسم المفرد:

من جملة الاعتراضات على ما يفعله السادة الصوفية مسألة الذكر بالاسم المفرد؛ حيث يعتمد السادة الصوفية في برامجهم التربوية على الذكر بالأسماء الحسنى كما مر بيانه من قبل؛ وقد يكون هذا الذكر للاسم مع حرف النداء؛ فنقول: يا الله، يا الله، يا الله، أو من غيره هكذا: الله، الله، الله، أو : حي، حي، حي، وهذا ما يطلق عليه الذكر بالاسم المفرد .

لكن المعترضين يرون عدم جواز الذكر بالاسم المفرد، للأسباب التالية(١):

١ – أن الذكر بالاسم المفرد لا يفيد معنى تاما .

٢ –وأنه ليس فيه معنى التعظيم.

٣ – كما أنه لم يرد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يرد عن السلف الصالح رضوان الله عليهم.

ويقال في الجواب عن ذلك ما يلي :

أما الادعاء بأن الذكر بالاسم المفرد لا يفيد معنى، فيرد عليه بالآتى:

أولًا: إن الذاكر بالاسم المفرد لا يكلم مخلوقًا فلا يُشترط أن يكون كلامه تامًا مفيدًا؛ لأنه يذكر الله سبحانه الذي هو عالم بنفسه مطلع على قلبه.

---

١ – من أشهر من شن غارة الإنكار على الذكر بالاسم المفرد الشيخ أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحنبلي المتوفى سنة ٧٢٨ هـ، يقول في أحد رسائله: " وأما الاسم المفرد مظهرا أو مضمرا فليس بكلام تام ولا جملة مفيدة ولا يتعلق به إيمان ولا كفر ولا أمر ولا نهي، ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمة ولا شرع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يعطي القلب بنفسه معرفة مفيدة ولا حالا نافعا وإنما يعطيه تصورا مطلقا ولا يحكم عليه بنفي ولا إثبات" [رسالة العبودية صـ١٣٧ ط. المكتب الإسلامي الطبعة السابعة] لكن جماهير العلماء لم يأخذوا بهذا الرأي ؛ ولهذا سقنا الأدلة في بيان تهافت هذا الرأي ومجانبته الصواب .

ثانيًا: أن قول الذاكر "الله" أو " الرحمن" يقصد به أحد معنيين:

١- إما أنه نداء حذف حرف ندائه، أي "يا الله"، والمنادى من أقسام الكلام المفيد؛ لأنهم أوَّلوا حرف النداء بمعنى: أدعو، وحذف حرف النداء جائز وشائع في لغة العرب.

كما أن حرف النداء يؤتى به للتنبيه، والله عز وجل مُنَزَّه عن التنبيه، وأكثر أدوات النداء موضوعة لنداء البعيد، وسبحانه وتعالى قريب من الداعي؛ لذلك حُذِفَت أداة النداء

٢- وإما أنه يقصد به الثناء على الله بصفاته العُلى كـ "الكريم" "الرحيم" " القدير" ويكون الاسم خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو، وهذا أيضًا شائع وكثير في لغة العرب.

وأما الادعاء بخلو الذكر بالاسم المفرد عن التعظيم ففي هذا التقرير الأخير رد على هذه الدعوى الثانية؛ حيث بان أن قول الذاكر: "الرحمن"، أو "القدير" يشتمل على معنى ويفيد كذلك التعظيم بتقدير مبتدأ محذوف تقديره هو؛ فالذاكر يلحظ اتصاف الله جل جلاله بهذه الصفة ويكررها تعبدا وتعظيما وتعلقا بالموصوف جل في علاه أيضا وكل ذلك وفق قواعد اللغة العربية التي لا خلاف عليها.

وأما قولهم بأنه لم يرد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعن السلف الصالح رضوان الله عليهم، فهذا ليس صحيحا لما يأتي:

أولًا: أن الذكر بالاسم المفرد جائز بالقرآن والسنة وعليه سلف الأمة رضوان الله عليهم.

فأما دليله من القرآن الكريم:

قوله تعالى:﴿واذْكُرِ اسمَ ربِّكَ وتبتَّلْ إليه تبتيلًا﴾ [المزمل: ٨]، وقوله تعالى: ﴿واذْكُرِ اسمَ ربِّكَ بكرةً وأصيلًا﴾ [الإنسان :٢٥] .

وهذه الآيات الكريمة هي بعض ما استدل بها الصوفية على صحة ما ذهبوا إليه من

مشروعية الذكر بالاسم المفرد قال العارف ابن عجيبة: " واذكر اسم ربك، أي: استغرق أنفاسك في ذكر اسمه الأعظم، وهو الاسم المفرد؛ الله الله، فتكثر منه بكرة وأصيلًا، وآناء الليل والنهار "[١]

وأما الاستدلال من الحديث الشريف :

فقد نص الحديث الشريف على مشروعية الذكر بالاسم المفرد، وأن من علامات الساعة توقف الذكر به، وذلك فيما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله".[٢]

وهذه اللفظة الشريفة جاءت مكررة في جميع الروايات كما يقول الإمام النووي في شرحه وكذلك هي بالرفع قال الإمام النووي: "وفيه قوله صلى الله عليه وسلم : "على أحد يقول الله الله، هو برفع اسم الله تعالى وقد يغلط فيه بعض الناس فلا يرفعه واعلم أن الروايات كلها متفقة على تكرير اسم الله تعالى في الروايتين وهكذا هو في جميع الأصول"[٣]

وقال الوزير الصالح يحيى بن هبيرة الحنبلي رحمه الله في شرحه لهذا الحديث:

"في هذا الحديث من الفقه أنه ما دام في الأرض ذكر الله عز وجل واسمه الأعظم الذي هو الله، يتراحم به أهلها، ويتساءلون به، ويتناشدون به، ويخوف به الظالم، ويسلى به المظلوم، ويرجو معه المتصدق الخلف، ويخاف منه المتعدي العقوبة، فإن الكون في مدة بقاء ومهلة تأخير فإذا بلغ الأمر إلى أن لا يذكر في الأرض هذا الاسم، الذي هو الله لعدم من يعرفه أو من يصدق به أو من ينزع عن شر أو يرغب في خير أو يأمل خلفا، ويكف عن ظلم لأجل هذا

---

١ - انظر تفسير البحر المديد لابن عجيبة ٧/ ٢٠٥

٢ - أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان- باب ذهاب الإيمان آخر الزمان، الحديث رقم ٣٩٢

٣ - شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ١٧٨

الاسم الكريم الشريف؛ فحينئذ يعلم أنه قد حان خراب الأرض، وجاء وقت انقلاب هذا المقر بأهله."[1]

وروي الإمام أحمد في "الزهد" عن ثابت قال: كان سلمان في عصابة يذكرون الله فمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فكفوا فقال: "ما كنتم تقولون؟ قلنا نذكر الله- الله قال: إني رأيت الرحمة تنزل عليكم فأحببت أن أشارككم فيها ثم قال: الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم".

ومما يمكن الاستدلال به كذلك على مشروعية الذكر باللفظ المفرد مع الأدلة السابقة ما ثبت من فعل أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو سيدنا بلالا بن رباح رضي الله عنه؛ فقد ثبت أنه كان يقول أثناء تعذيب الكفار له: "أحدٌ أَحَدٌ"، ولم يرد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نهاه عن هذا الذكر"[2]

وقد نص العلماء على جواز الذكر بالاسم الفرد.

قال العلامة ابن عابدين الحنفي في شرحه لاسم الله تعالى "الله": وروى هشام عن محمد عن أبي حنيفة أنه اسم الله الأعظم، وبه قال الطحاوي وكثير من العلماء وأكثر العارفين؛ حتى أنه لا ذكر عندهم لصاحب مقام فوق الذكر به".[3].

وقال العلامة المناوي في شرح قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث القدسي: "وأنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه".

---

١ - الإفصاح عن معاني الصحاح للإمام يحيى بن هبيرة ٥/ ٣٥١ ط.دار الوطن

٢ -أخرجه ابن ماجه في سننه - كتاب المقدمة - باب فضائل بلال، الحديث رقم ١٥٥، قال البوصيري: هذا إسناد رجاله ثقات، رواه ابن حبان في صحيحه. ا.هـ . مصباح الزجاجة ١/ ٢٣ ط. دار العربية بيروت

٣ - رد المحتار (١/ ٤).

أي هو مع من يذكره بقلبه، ومع من يذكره بلسانه، لكن معيته مع الذكر القلبي أتم، وخص اللسان لإفهامه دخول الأعلى بالأوْلى، لكن محبته وذكره لمن استولى ذكره على قلبه وروحه وصار معه وجليسه.

ولزوم الذكر عند أهل الطريق من الأركان الموصلة إلى الله تعالى، وهو ثلاثة أقسام: ذكر العوام باللسان، وذكر الخواص بالقلب، وذكر خواص الخواص بفنائهم عن ذكرهم عند مشاهدتهم مذكورهم، حتى يكون الحق مشهودًا لهم في كل حال.

قالوا: وليس للمسافر إلى الله في سلوكه أنفع من الذكر المفرد القاطع من الأفئدة الأغيارَ، وهو [الله]، وقد ورد في حقيقة الذكر وتجلياته ما لا يفهمه إلا أهل الذوق". [1]

وروي عن سيدي المرسي أبو العباس أنه قال: "ليكن ذكرك "الله، الله"، فإن هذا الاسم سلطان الأسماء، وله بساط وثمرة، فبساطه العلم، وثمرته النور، وليس النور مقصودًا لذاته؛ بل لِما يقع به من الكشف والعيان، فينبغي الإكثار من ذكره، واختياره على سائر الأذكار، لتضمنه جميع ما في "لا إله إلا الله" من العقائد والعلوم والآداب والحقائق... ".[2]

وقال العارف بالله ابن عجيبة: فالاسم المفرد "الله" هو سلطان الأسماء، وهو اسم الله الأعظم، ولا يزال المريد يذكره بلسانه ويهتز به حتى يمتزج بلحمه ودمه، وتسري أنواره في كلياته وجزئياته... إلى أن قال: فينتقل الذكر إلى القلب ثم إلى الروح ثم إلى السر، فحينئذ يخرس اللسان ويصل إلى الشهود والعيان. [3]

ومن هنا يظهر ضعف ما استدل به أولئك المانعون من الذكر بالاسم المفرد، وأن

---

١ – فيض القدير شرح الجامع الصغير" للعلامة المناوي ج٢/ص٣٠٩

٢ – نور التحقيق لحامد صقر ص ١٧٤. مطبعة دار التأليف بمصر ١٣٦٩ هـ.

٣ – «تجريد ابن عجيبة على شرح متن الأجرومية» ص ١٥. المطبعة المحمودية بمصر ١٣١٩ هـ.

نصوص الوحي وكلام العلماء يدلان دلالة راجحة على مشروعية ما اعتمده السادة الصوفية .

الذكر باللفظ "هو" :

ومن المسائل التي تتفرع عن قضية الذكر عند السادة الصوفية، وحصل بسببها الإنكار من بعض المخالفين الذكرُ باللفظ " هو ".

وهذا الذكر هو من الأذكار المعتمدة عند السادة الصوفية على اختلاف طرقهم ومدارسهم وهو من الأسماء السبعة الأصول كما سيأتي تفصيلها بعد ذلك :

ولفظ " هو " الذي هو ضمير عنه جل جلاله، قد ورد في القرآن الكريم والسنة.

فأما القرآن الكريم، فقوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥].، وقوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨ - ٨٠].

والكثير من الآيات القرآنية الأخرى تنص على ذلك اللفظ الكريم، وأما وروده في السنة النبوية: فعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وسلم قَالَ: "اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وَفَاتِحَةِ آلِ عِمْرَانَ ﴿الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ [آل عمران:١ - ٢] [١] وعند التأمل نجد أن الاسم الذي يتكرر في هاتين الآيتين هو الاسم " هو"، فكلمة "هو" ضمير في اللفظ، ظاهر في

---

١ -أخرجه الترمذي في سننه كتاب الدعوات - باب جامع الدعوات عن النبي صلى الله عليه وسلم، الحديث ٣٤٧٨ وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح

المعنى؛ لأنها في حق الله تعالى لفظ مستقل وليس بضمير يعود على الغائب؛ لأن الله تعالى ليس بغائب، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

و الضمير "هو" يشير إلى وحدانية الذات قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [العنكبوت: ٨٨]. أي أنه واحد ثم قال بعد ذلك: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾. أي إلا "هو" إشارة إلى الذات.

ويرى السادة الصوفية أن اسم " هو " له خصائص لا توجد في غيره منها ما يقوله الإمام القشيري في شرحه للأسماء الحسنى قال: "اعلم أن " هو" اسم موضوع للإشارة، وهو عند الصوفية إخبار عن نهاية التحقيق، وهو يحتاج عند أهل الظاهر إلى صلة تعينه، ليكون الكلام مفيدا حتى تقول هو قائم أو قاعد أو هو حي أو هو ميت وما أشبه ذلك، فأما عند القوم فإذا قلت " هو " فلا يسبق قلوبهم غيرُ ذكر الحق فيكتفون عن كل بيان يتلوه لاستهلاكهم في حقائق القرب باستيلاء ذكر الله على أسرارهم "[1]

وقريب من هذا الكلام أيضا مع مزيد تفصيل واستدلال ما سطره المفسر المتكلم النظار الإمام الرازي في أول تفسيره في سورة الفاتحة؛ حيث قال كلاما موسعا عن أسرار ومعاني " لفظ" هو" ومما نختاره من كلامه ما يلي قال : " واعلم أن لفظ «هو» فيه أسرار عجيبة وأحوال عالية، فبعضها يمكن شرحه وتقريره وبيانه، وبعضها لا يمكن، .. ثم قال بعدها : فلنكتب ما يمكن ذكره فنقول: فيه أسرار: الأول: أن الرجل إذا قال: «يا هو» فكأنه يقول: من أنا حتى أعرفك؟! ومن أنا حتى أكون مخاطبا لك؟!، وما للتراب ورب الأرباب! وأي مناسبة بين المتولد عن النطفة والدم وبين الموصوف بالأزلية والقدم؟ فأنت أعلى من جميع المناسبات

١ –شرح أسماء الله الحسنى للقشيري صـ ٧٠ ط.دار آزال بيروت

وأنت مقدس عن علائق العقول والخيالات، فلهذا السبب خاطبه العبد بخطاب الغائبين فقال: يا هو..

ثم قال : أن العبد متى ذكر الله بشيء من صفاته لم يكن مستغرقا في معرفة الله تعالى، لأنه إذا قال:«يا رحمن» فحينئذ يتذكر رحمته فيميل طبعه إلى طلبها فيكون طالبا للحصة، وكذلك إذا قال: (يا كريم، يا محسن، يا غفار، يا وهاب، يا فتاح) وإذا قال: (يا ملك) فحينئذ يتذكر ملكه وملكوته وما فيه من أقسام النعم فيميل طبعه إليه فيطلب شيئا منها، وقس عليه سائر الأسماء، أما إذا قال: (يا هو) فإنه يعرف أنه هو، وهذا الذكر لا يدل على شيء غيره البتة، فحينئذ يحصل في قلبه نور ذكره، ولا يتكدر ذلك النور بالظلمة المتولدة عن ذكر غير الله، وهناك يحصل في قلبه النور التام والكشف الكامل " ا.هـ [1]

إذن بان من كل ذلك مدى صحة الذكر بلفظ " هو" حيث جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وبين العلماء الراسخين في العلم فضله ووضحوا بعضا من أسراره.

---

١ – مفاتيح الغيب =التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي صـ١٣٦ وما بعدها دار إحياء التراث

حلاوة الذكر وأثره:

حلاوة الذكر، لذة يشعر بها المؤمن في قلبه، من كثرة ذكره وتعلقه بالله تعالى، وهي أفضل ما يشعر به الإنسان في حياته الدنيا، ومن حرمها فقد حرم الكثير.

يقول الحسن البصري – رحمه الله تعالى – :تفقَّدُوا الحلاوة في ثلاثةِ أشياء: في الصلاة، وفي الذِكرِ، وفي قراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق[1]

ويقول بعض العارفين: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه – يعني من النعيم – لجالدونا عليه بالسيوف[2]

ويقول آخر: " أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يتطعموا أطيب ما فيها. قيل له: وما أطيب ما فيها؟ قال: المعرفة بالله عز وجل "[3]

ورغم كل ذلك إلا أن السالكين إلى الله ينبغي أن يكون مقصودهم هو الله ؛ فلا يسعون لتحصيل تلك الحلاوة، ولا يشغلهم حصولها أم عدمه، فهم يعبدون الله لله لا لشيء.

ولذلك شاع عن العارف بالله أبي يزيد البسطامي[4] أنه قيل له : ما لنا نعبد الله ولا نجد لذة للعبادة، فقال: "لأنكم عبدتم العبادة"[5]

---

١ – الرسالة القشيرية ٢/ ٣٧٨

٢ – انظر صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/ ٣٣٥ ط.دار الحديث

٣ – انظر حلية الأولياء ٨/ ١٦٧

٤ – العارف الزاهد المشهور أبو يزيد البَسطامي واسمه طَيفور ؛ كان جده مجوسيا فأسلم، له كلام في المعرفة والمحبة والزهد وكلها تدل على رسوخه وتمكنه رضي الله عنه، وهو أحد أفراد السلسلة في الطريقة النقشبندية توفي ٢٦١ هـ انظر ترجمته في :حلية الأولياء ١٠ / ٣٣

٥ – وقريب من ذلك ما جاء في حلية الأولياء [١٠/ ٣٧] أيضا للبسطامي قوله : " إن الله تعالى ليرزق عبده

عبدتم العبادة: أي قصدتم العبادة في ذاتها طلبا للذتها، وليس قصدكم من العبادة المستحق للعبادة جل جلاله، فالقضية ليست في الوسائل، أن أصلي وأذكر وأقرأ، ولكن القضية أن افعل هذا لله سبحانه وتعالى ؛ فالذكر وسيلة، وليس مقصدا، فمقصود الكل هو الله.

فإذا امتلىء قلب المريد بأن مقصوده هو الله فقط، وسلك طريقه غير ملتفت لغير مقصده شعر بحلاوة الذكر وبحلاوة القرب والسير؛ولو لم يقصد ذلك ابتداء.

وهذه الحلاوة هي التي أخبر عنها المصطفى صلى الله عليه وآله؛ كما في قوله : ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار[1]فمحبة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم أول شرط لحصول هذه الحلاوى المحمودة من قِبل الشرع الشريف.

فائدة في أثر الذكر:

حث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المداومة على الذكر فقال: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[2]

ومن اللطائف المستنبطة من هذا الحديث أننا عندما نذكر ونكثر من الذكر يجف اللسان؛ ولا يكون رطبا! فما الوجه الذي يمكن أن نفهم به قوله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فنقول:

الحلاوة فمن أجل فرحة يمنعه من حقائق القرب " ا.هـ فحلاوة الذكر نعمة إذا وقف الإنسان عندها وانشغل بها حرم ما بعدها من حقائق القرب .

١ – أخرجه الإمام البخاري في صحيحه –كتاب الإيمان – باب حلاوة الإيمان، الحديث ١٦

٢ – رواه الترمذي في سننه وقال (حسن غريب) كتاب الدعوات باب فضل ذكر الله الحديث رقم : ٣٣٥٧

إنه صلى الله عليه وآله وسلم يخبرنا بهذا القول عن حقيقة الأمر وليس ظاهره، وهناك فرق بين حقيقة الأمر وظاهره، فالجفاف من كثرة الذكر أمر ظاهري حسي لا ينكر، والرطوبة هي أمر حقيقي عند الله عز وجل يجب تصديقه والاعتقاد به.

ومن ذلك أيضا أنه صلى الله عليه وآله وسلم أخبرنا أن خلوف فم الصائم، ورائحة دم الشهيد أطيب عند الله من رائحة المسك، ونحن نجد أن من الشهداء من يتغير دمه، ومن الصائمين من يكون خلوف فمه كريهًا من طول الامتناع عن الطعام والشراب، فهذا كله صحيح، لكن في الدنيا وبين البشر، أما حقيقته عند الله فهي ما أخبرنا به الصادق الصدوق صلى الله عليه وآله وسلم .

ولذلك فإن أهل الله يعلموننا ألا نشرب الماء إلا بعد مرور وقت من الذكر[١]؛ لأن هذا الجفاف محبب إلى الله تعالى؛ وذلك قياسًا على ما قاله الإمام الشافعي من استحبابه لترك استخدام السواك للصائم بعد الزوال كي لا تزول رائحة خلوف فمه التي يحبها الله تعالى[٢]، ولذات المعنى لا يغسل الشهيد من دمه ويدفن به[٣].

---

١ – نص على هذا كأحد آداب الذكر العارف الشعراني في كتابه قواعد الصوفية صـ ٢٥، فقال أثناء تعداده آداب الذكر فقال:" الثالث : منع شربه الماء البارد عقيب الذكر؛ فإن الذكر يورث حرقة وهيجانا وشوقا إلى المذكور الذي هو المطلوب الأعظم من الذكر، وشرب الماء يطفي تلك الحرارة." ا.هـ

٢ – قال الإمام الشافعي : " ولا أكره السواك بالعود الرطب واليابس وغيره: بكرةً، وأكرهه بالعشي لما أحب من خلوف فم الصائم " انظر الأم للإمام الشافعي ٢/ ١١١ وانظر كذلك روضة الطالبين للإمام النووي ٢/ ٣٦٨

٣ – قال في المغني : " ترك غسل الشهيد في المعركة؛ لما يتضمنه من إزالة الدم المستطاب شرعا " المغني لابن قدامة ٢/ ٣٩٩ ط.مكتبة القاهرة

فكل ذلك هو من باب المحافظة على أثر العبادة فجفاف الحلق أثر كثرة الذكر، وخلوف فم الصائم أثر للصوم ودم الشهيد أثر الاستشهاد وهكذا.

وعندما يستجيب المريد لقول شيخه ويمتنع عن شرب الماء بعد الذكر لمدة ربع ساعة أو ثلث ساعة مثلا، يجد أنه قد انقدح في نفسه نورٌ لم يكن يستشعره لو شرب الماء، وكل من امتثل لهذا شعر بهذه الحلاوة.

وهذا هو أثر بركة الطريق أن كل ما يتناقله الشيوخ عن مشايخهم هو من فهمهم للشرع الشريف .

فصل

في كثرة الذكر بالصلاة على سيدنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم

سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو بابنا إلى الله، ودليلنا إليه، ووسيلتنا للوصول لمحبته تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، فهو إمام الحضرة القدسية، ولسان عين الحضرة القدسية، وهو الذي نرى به مراد الله ونعرف من خلال هديه الشريف رضا الله تعالى، ونتعلم منه كيفية طاعة الله سبحانه وتعالى.

ولما أراد الله أن يظهر فضل نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وأن يعرفنا ببعض حقه علينا دلنا على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وآله وسلم وا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

فهذا أمر من الله لنا بالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ففي هذه الآية تشريف لقدره المنيف؛ إذ قد بدأ الله فعل الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه تبارك وتعالى؛ ثم ثنى بملائكته الكرام ثم طلب من المؤمنين امتثال الأمر بالصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم مع التسليم وهو ما يذكرنا أيضا بآية أخرى وهي قول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، فكأن الشأن معه صلى الله عليه وآله وسلم هو ما بين الصلاة والسلام عليه بالقول والتسليم له بالأجساد والأرواح بطاعة أمره واجتناب نهيه .

وقد تفنن العلماء قديما وحديثا في تعداد فضل الصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ودلالة الناس على ثمراتها وفوائدها في الدنيا والآخرة ومن أشهرها ما يلي :

١- كتاب القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع للحافظ السخاوي .

٢ -كتاب الدر المنضود في الصلاة والسلام على صاحب المقام المحمود للإمام ابن حجر الهيثمي.

٣- كتاب الصِّلات والبِشَر في الصلاة على خير البشر للفيروز آبادي

٤ - كتاب جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام للشيخ ابن القيم.

وغيرهم الكثير قديما وحديثا.

ومن بعض ما ذكره العلماء من فضائل الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما ذكره الإمام العارف ابن عجيبة في تفسيره قال: "اعلم أن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم سُلمٌ ومعراج الوصول إلى الله؛ لأن تكثير الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم توجب محبته، ومحبته- عليه الصلاة والسلام- توجب محبة الله تعالى، ومحبته تعالى للعبد تجذبه إلى حضرته، بواسطة وبغيرها. وأيضا: الرسول صلى الله عليه وسلم وزير مقرب، ومَن رام دخول حضرة الملوك يخدم الوزير، ويتقرّب إليه، حتى يُدخله على الملِك، فهو صلى الله عليه وسلم حجاب الله الأعظم، وبابه الأكرم، فمَن رام الدخول من غير بابه طُرِد وأُبعد " [١]

بعض المصنفات في ذكر الصلاة على النبي المختار

هناك كتب كثيرة صنفت بهذا الغرض كما مر؛ لكن أذن الله في القبول لبعضها حتى ذاعت وشاعت شرقا وغربا ؛ وتعلقت بها القلوب، ولهجت الألسن بالصلاة والتسليم على النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ومن هذه المصنفات وأشهرها ما صنفه الشيخ أبي

---

١ – يقول العارف ابن عجيبة :" الحضرة هي: حضور القلب مع الرب، أو حضور الروح أو السر مع الحق " انظر شرح الصلاة المشيشية لابن عجيبة صـ ٢٩ ط.دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء

عبد الله محمد بن سليمان الجزولي الذي كان من كبار الأولياء[1] وأسماه "دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار" وجمع فيه العديد مما ورد عن الصحابة والصالحين من الصلوات الزاكيات؛ ولأجل فضلها وبركة صاحبها شاعت وذاعت في الأقطار وشرحها العديد من العلماء مما يؤذن بالقبول من الله عزوجل، يقول عنها الشيخ يوسف النبهاني نقلا عن شيخه الشيخ حسن العدوي في شرح لها عليها اسمه بلوغ المسرات بدلائل الخيرات:" : "وكفى هذا الكتاب شرفا، حيث بلغ في الانتفاع والقبول ما تحار فيه العقول، كيف لا وقد أخذه بعض العارفين عن سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم، قال شيخ مشايخنا وأشياخهم الإمام السُّجاعي في حاشيته لهذا الكتاب، نقلا عن شيخه القطب الغوت الإمام محمد الحفني : قد أخذتُ هذا الكتب بطريق الظاهر عن شيخنا العلامة محمد البُدَيري الدِّمياطي، وهو عن القطب الغوث محمد بن أحمد المكناسي، إلى آخر السند عن المؤلف. قال: وأخذتُه بطريق الباطن عن ولي الله تعالى سيدي محمد المغربي التلمساني، قال: أخذته بطريق الباطن عن النبي صلى الله عليه وسلم.

قال الإمام السجاعي المذكور: وقد أخذته أيضا عن شيخنا الملاذ الأفخم والسيد الأكرم، الشيخ عبد الوهاب العفيفي، وهو يرويه عن سيدي محمد الأندلسي، وهو قد أخذه

---

١ - انظر ترجمة الشيخ الولي أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي رضي الله عنه - المتوفى سنة ٨٧٠ هـ - في كتاب : نيل الابتهاج بتطريز الديباج للتنبكتي صـ٥٤٥ ط.دار الكاتب طرابلس ليبيا، وجاء في كشف الظنون لحاجي خليفة [٧٥٩/١ ط.دار إحياء التراث] في وصف كتاب دلائل الخيرات ما يلي : " وهذا الكتاب: آية من آيات الله في الصلاة على النبي - عليه الصلاة والسلام -يواظب بقراءته في: المشارق، والمغارب، لا سيما في بلاد الروم "ا.هـ

بطريق الباطن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم". [1]

وكذلك من هذه المصنفات المفردة في الصلاة على سيدنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما وضعه الشيخ عبد الله بن محمد الهاروشي المغربي الفاسي[2] في كتابه " كنوز الأسرار في الصلاة على النبي المختار"، وكان فضيلة الشيخ عبد الفتاح القاضي يقرأ كنوز الاسرار كل يوم وينتهي منها ويقرأها ثانية، معتقدًا أن هذا أقرب إلى الوصول إلى الله تعالى وهو سبب في حب النبي صلى الله عليه وآله وسلم. [3]

وعندما لان لسان الشيخ عبد الفتاح القاضي رحمه الله تعالى بهذه الصلوات وجد فتحا غريبا عجيبا جدا، والشيخ عبدالفتاح من هذا الأمر وصل إلى درجات عليا جدا من الوضوح ومن الكشف ومن الأدب مع الله، ولم يكن له شيخ قد أخذ عنه الطريق وقتها، فعندما وصل إلى هذا الحد خاف وذهب إلى الشيخ محمد عبد الوهاب الحصافي، وطلب منه أن يأخذ الطريق، وعندما دخل الشيخ عبد الفتاح القاضي على الشيخ الحصافي وجد على وجهه نورَ

١ - انظر : الدلائل الواضحات على دلائل الخيرات للشيخ يوسف النبهاني المتوفى ١٩٣٢ م صـ ٤٨ نسخة مكة المكرمة الطبعة الأولى ٢٠٠٧ م، وهذا التلقي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سواء كان من قبيل الرؤيا المنامية أو رؤية اليقظة هو من قبيل البشرى وإشارة لمحبته صلى الله عليه وآله وسلم لهذا الكتاب المبارك ولمن يلتزم قراءته؛ ولا يعترض على ذلك أن الرؤى ليست محلا لأخذ الأحكام ؛ إذ ليس في ذلك أي مخالفة للشريعة أو ثمة تشريع جديد؛ إذ الشريعة واضحة الدلالة على فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم عموما؛ وقد ذكرنا بعض الأدلة وستأتي أدلة أخرى بإذن الله.

٢ - انظر ترجمة الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد الخياط الهاروشي - المتوفى سنة ١١٧٥ هـ - في كتاب شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ١/ ٥٠٩ ط.دار الكتب العلمية.

٣ - وقد طبع الشيخ عبد الفتاح القاضي بعد ذلك كنوز الأسرار وأضاف لها بعض الصلوات المنتقاة الأخرى والأدعية الحسنة وذلك بنفقة الدكتور حسن عباس زكي رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

كبار الأولياء، وقال له: أي طريق تطلب فأنت من كبار الأولياء؟! فقال له: إنه ليس لديه سند، فأعطاه الطريق، وأصبح شيخه في الطريق ظاهريًّا هو الشيخ محمد عبد الوهاب الحصافي، وفي الحقيقة أنه ذهب إلى الشيخ الحصافي كاملا ولم يحتج شيئا في التربية، فقال له: افعل كذا وكذا ؛ فيقول له: فعلت وفعلت، فوفقه الله سبحانه وتعالى ومن توفيقه أنه أسنده، ومن توفيقه أنه جعل له شيخا يفتح عليه ببركة الإسناد.[1]

الحضرة القدسية :

النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو إمام الحضرة ؛ ومعنى الحضرة القدسية هي الحالة التي تَعبد فيها الأرواح ربها؛ بلا تشويش من الشواغل واللوافت الدنيوية حيث يحصل للإنسان حالة خشوع وحضور مع الله في صلاته أو ذكره[2]، و"قدسية" أي مطهرة، ومعنى أن يكون النبي صلى الله عليه إماما لهذه الحضرة أنه إذا كان الإنسان في مثل هذه الحضرة فإنه ينظر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ماذا يفعل، فإذا كان مشتغلا بالصلاة فنصلي أو بالذكر نذكر أو ساكتا نسكت فهو إنسان عين الحضرة أي هو بمثابة العين لنا التي نرى بها مراد الله منا في كل وقت؛ فكما يكون ذلك في الظاهر عن طريق شريعته كذلك يكون في حال الحضرة القدسية فهو إمامنا في كل حال .

والذي يوصلنا إلى مثل ذلك هو كثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما أرشد كلام ابن عجيبة المار ذكره؛ فالتعلق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ومحبته هي السبيل للنجاة؛ فهي التي تؤدي إلى تمام التمسك بالشريعة، فالمحب منشغل دائما بمحبوبه،

١ - انظر في مزيد ترجمة سيدي الشيخ عبد الفتاح القاضي الشبلنجي الشاذلي كتاب: المنار الهادي في خصائص شيخنا القاضي لتلميذه الشيخ عبد الجليل قاسم .

٢ - البحر المديد ٤/ ٤٥٨

يستحضره في كل مواقف حياته فلا تخلو أوقاته من ذكر محبوبه، وفي كل موقف يمر عليه يستحضر ماذا كان يفعل محبوبه في مثل هذا، فيسير على نهجه، ويمتثل أمره، وينتهي نهيه، وينزجر زجره، وهذا حال المحبين المتعلقين بجناب سيدنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

طرق تحصيل المحبة والتعلق بسيدنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

ذكر العلماء بعض الأمور التي تساعد على تحصيل المحبة والتعلق بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومنها:

أولا: الحرص على اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم والعمل بسنته، فاتباعه صلى الله عليه وآله وسلم في كل قليل وكثير مما يقرب إلى حبه، بل هو نوع من أنواع الحب.

ثانيًا: قراءة سيرته صلى الله عليه وآله وسلم، من أهم الأسباب التي تقود إلى الحب؛ لأن بها نصل إلى العيش معه ومعرفته، والحب لا يكتمل إلا بصادق المعرفة، فإذا عرفه عرف أنه الإنسان الكامل، المثل الذي يجب أن يحتذى به في كل صغيرة وكبيرة.

وقراءة السيرة النبوية تختلف عن قراءة السنة الشريفة من أحاديث، حيث إن قراءة الأحاديث دون قراءة السيرة يجعل هناك شيئا ناقصا؛ وهو الموقف والحدث الذي ذكر فيه الحديث، وقراءتها معا يجعل هناك نوعا من الترابط والانسجام بين الأقوال والأفعال، ويكشف كثيرا مما قد يختلط فهمه إذا قرأت السنة وحدها. فالنصيحة في ذلك أن تقرأ السنة من خلال السيرة وتقرأ السنة مع السيرة.

ثالثًا: من الأسباب المؤدية إلى الحب والتعلق بحضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كثرةُ الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والعلماء والأولياء قد تفننوا في جمع الصيغ المتنوعة في الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم أو عن صحابته الكرام أو عن أحد من آل البيت رضي الله عنهم أو

أنشأها أحد من العلماء أو الأولياء وصنفوا في ذلك المصنفات.

ومما استندوا له في إنشاء هذه الصيغ المتنوعة ما ورد في سنن ابن ماجه عن سيدنا عبد الله بن مسعود وهو قوله : "إذا صليتم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأحسنوا الصلاة عليه، فإنكم لا تدرون، لعل ذلك يعرض عليه، قال: فقالوا له: فعلمنا، قال، قولوا: «اللّٰهم اجعل صلاتك، ورحمتك، وبركاتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، محمد عبدك ورسولك، إمام الخير، وقائد الخير، ورسول الرحمة، اللّٰهم ابعثه مقاما محمودا، يغبطه به الأولون والآخرون، اللّٰهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللّٰهم بارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»[1]

فهذا الأثر عن سيدنا عبد الله بن مسعود يشير إلى معنى أهمية تحسين الصلاة على سيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم؛ وقد أرشد هنا الصحابي عبد الله بن مسعود إلى صيغة من إنشائه أو اختياره، وقد ورد كذلك عن غيره من الصحابة صيغ أخرى منها ما ورد عن مولانا الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه كما في الطبراني وغيره وهو قوله: " اللّٰهم داحي المدحوات، وبارئ المسموكات، وجبار القلوب على فطرتها، شقيها وسعيدها، اجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك، ورأفة تحيتك على محمد عبدك ورسولك، الخاتم لما سبق، والفاتح لما أغلق، والمعين على الحق (بالحق)، والدامغ جيشات الأباطيل، كما حمل فاضطلع بأمرك لطاعتك، مستوفزا في مرضاتك بغير نكل عن قدم، ولا وهن في عزم، داعيا لوحيك، حافظا لعهدك، ماضيا على نفاذ أمرك، حتى أورى قبسا لقابس، به هديت القلوب

---

١ – أخرجه ابن ماجه في سننه –كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها – باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ حديث رقم : ٩٥٩ .

بعد خوضان الفتن والإثم، بموضحات الأعلام، ومنيرات الإسلام، ونائرات الأحكام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبعثتك له نعمة، ورسولك بالحق رحمة، اللّهم افسح له مفسحا في عدلك، واجزه مضاعفة الخير من فضلك، مهنئات غير مكدرات، من فوز ثوابك المعلول، وجزيل عطائك المحلو، اللّهم أعل على بناء الناس بناه، وأكرم مثواه لديك ونزله، وأتمم له نوره، واجزه من ابتعاثك له، مقبول الشهادة مرضي المقالة، ذا منطق وعدل، وكلام فصل، وحجة، وبرهان عظيم "[1]

فهذه الصيغة وغيرها ضمنه كثير من أهل التصوف في أورادهم وكتبهم التي أفردوها في صيغ الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

١ – قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠ / ١٦٤ : رواه الطبراني في الأوسط، وسلامة الكندي، روايته عن علي مرسلة، وبقية رجاله رجال الصحيح، ؛ قلت: فمثل هذا الإسناد كاف في قبول وصحة العمل بل واستحباب مثل هذه الصيغة المباركة، وهذه الصيغة ضمنها الشيخ الجزولي رضي الله عنه كتابه دلائل الخيرات، وسيأتي الكلام عنهما .

فصل

في الأوراد والأحزاب عند السادة الصوفية

لما فصلنا الكلام في الذكر بشكل عام الذي هو من أركان الطريق وبينا فضله وأدلته وتعرضنا لجملة من الفوائد المتعلقة ببعض هذه الأذكار لا سيما الصلاة والسلام على خير الأنام صلى الله عليه وآله وسلم؛ كان من المناسب أن ننتقل من العام إلى الخاص، فالأمر بالذكر هو أمر مطلق لكافة المسلمين؛ لكن من أراد أن يتخذه سبيلا موصلا إلى الله فعليه بالمداومة والمجاهدة وهو طريق التصوف؛ ولذلك فقام السادة الصوفية بترتيب ما يسمى بالأوراد والوظائف وكذلك الأحزاب، وهو ما نفصل الكلام فيه فيما يلي :

أولا: الأوراد

فأما الورد عند الصوفية فهو ما يداوم عليه المريد من أذكار بالصباح أو بالمساء بتلقين الشيخ له، امتثالا لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل».[1] ولذلك يحرص الصوفية على المداومة على ذكر الله دون انقطاع.

وتطلق الأوراد على ما التزمه المريد وداوم عليه مما له وقت معين.[2] سواء كان من الأذكار أو الدعاء أو قراءة القران أو التفكر، كما سبق وبينا أن من أسس الطريق الذكر والفكر.

ولكل طريق من طرق الصوفية ما التزمته من أذكار يتلقاها المريد عن شيخه عن شيخه

١ – صحيح البخاري كتاب الرقاق – باب القصد والمداومة على العمل؛ الحديث رقم : ٦٤٦٤

٢ – قال الشيخ الصاوي المالكي : " (أوراد الطريق) جمع ورد كحمل وأحمال؛ وهي الوظائف التي جعلوا لها أوقاتا بعينها من قراءة أو ذكر أو صلاة على النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أو غير ذلك " انظر: الأسرار الربانية والفيوضات الرحمانية على الصلوات الدرديرية صـ ٦ .

وهكذا، وجميعها مقيد بالكتاب والسنة.

واختلاف الطرق في مشاربهم وفي تنوع أورادهم إنما يختلف باختلاف الأحوال بين المريدين، ويوفق الله عز وجل كل مريد لما يناسب حاله ولما يجد فيه قلبه، ويشبه ذلك اختلاف أحوال الصحابة رضوان الله عليهم في امتثالهم للذكر وللعبادة.

فمن الصحابة رضي الله عنهم من كان ورده في اليوم اثنا عشر ألف تسبيحة، وكان فيهم من ورده ثلاثون ألفا، وكان فيهم من ورده ثلثمائة ركعة إلى ستمائة وإلى ألف ركعة، وأقل ما نقل في أورادهم من الصلاة مائة ركعة في اليوم والليلة، وكان بعضهم أكثر ورده القرآن، وكان يختم الواحد منهم في اليوم مرة، وروى مرتين عن بعضهم، وكان بعضهم يقضي اليوم أو الليل في التفكر في آية واحدة يرددها.

وكان كرز بن وبرة مقيما بمكة فكان يطوف في كل يوم سبعين، وفي كل ليلة سبعين، وكان مع ذلك يختم القرآن في اليوم والليلة مرتين[1]

ومنهم من كان قلبه معلقا بالصيام، ومنهم من كان قلبه معلقا بقيام الليل، ومنهم من كان قلبه معلقا بالقرآن الكريم، ومنهم من وجد عبادته في الجهاد في سبيل الله.

ومن ذلك تنوعت مشارب أهل الله من الصوفية واختلفت طرائقهم في كيفية سلوكها وفي أورادها.

---

١ – إحياء علوم الدين (١/ ٣٤٨)

أوراد الطريقة الشاذلية وأذكارها:

ونأخذ على سبيل المثال -لنتعرف على حقيقة الأوراد- أحد أكبر الطرق الصوفية المنتشرة في مصر والعالم الإسلامي وهي الطريقة الشاذلية لصاحبها الإمام أبي الحسن الشاذلي (٥٩١ – ٦٥٦ هـ) وهو شيخ الطريقة الشاذلية وإليه ترجع أورادها وأصولها؛ ومن جملة أوراد الطريقة الشاذلية مما يلتزمه المريد الراغب في الانتساب لها ما يلي :

١ – الأساس في الأذكار :

والأساس في الذكر: هو عبارة عن الاستغفار مائة مرة، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم مائة مرة أيضا، ولا إله إلا الله مائة مرة، وذلك يوميا في الصباح والمساء .

وقد وردت أخبار تبين فضل الاستغفار كحديث: "طوبى لمن وَجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا "[١]، وكذلك في فضل الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كحديث: "من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرا " [٢]، وفضل قول لا إله إلا الله كذلك؛ ففي الحديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: "أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة، من قال لا إله إلا الله، خالصا من قلبه، أو نفسه"[٣] ؛ وكل ذلك مما لا يجادل فيه

---

١ – رواه ابن ماجه في سننه؛ قال العجلوني في كشف الخفا ٢/ ٥٥ :رواه ابن ماجه عن عبد الله بن بسر، وأبو نعيم في "الحلية" عن عائشة، وأحمد في الزهد عن أبي الدرداء مرفوعًا، قال النووي: سنده جيد.

٢ – رواه مسلم :كتاب الصلاة – باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم حديث رقم ٩٣٩ ؛ ومن ذلك أيضا ما رواه الترمذي في سننه كتاب الصلاة – باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم – الحديث رقم ٤٨٦ بسنده عن عبد الله بن مسعود قال قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : "أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة" [قال الترمذي هذا حديث حسن غريب]

٣ – صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب صفة الجنة والنار حديث رقم ٦٦٥٠

مسلم .

مشروعية الذكر بعدد معين والتجربة في الطريق:

أما تعيين العدد بمائة في الأساس فهو أمر لا تمنع منه الشريعة ابتداء؛ حيث قد نصت الأحاديث على هذا العدد في الاستغفار وفي غيره ؛ فمن ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: " إني لأستغفر الله، في اليوم مائة مرة"[١]، وبخصوص الصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مائة ؛ فقد ذكر الحافظ السخاوي في القول البديع هذا الحديث فقال: "وعن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من صلى علي في كل يوم مائة مرة قضى الله له مائة حاجة، سبعين منها لآخرته وثلاثين منها لدنياه". أخرجه ابن منده، وقال الحافظ أبو موسى المديني: إنه حديث غريب حسن"[٢]

وأهل الطريق يجعلون أمثال هذه الروايات أساسا لشرعية الذكر بعدد معين؛ بالإضافة إلى مستند آخر وهو "التجربة" التي دليلها الوجود؛ فالكون صدر عن الله جل جلاله خلقا والشرع الشريف صدر عن الله أمرا قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: من الآية ٥٤]، فالصوفية لاحظوا الاتساق فيما بين ما خلقه الله وهو الكون المسمى بالكتاب المنظور، وما أنزله جل في علاه وهو المسمى الكتاب المسطور؛ وعملوا على الاستعانة بهذه الحقائق الكونية -ومنها الذكر بعدد معين - في الطريق إلى الله،

---

١ - رواه مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، الحديث: ٢٧٠٢ .

٢ - القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع (صلى الله عليه وسلم) للحافظ السخاوي صـ ٢٧١ ط.مؤسسة الريان.

فلا تعارض بين ما خلقه الله وبين ما أنزله، ومن ناحية أخرى لم يرد ما يَنهى عن ذلك العدد أو غيره بل الأدلة العامة استحباب كثرة الذكر، وأقل الكثرة عند العرب سبعين، ولذلك فقد اختيرت المائة لكونها موافقة لما جاء في سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما مر في الاستغفار، ولمعنى الكثرة التي أمر بها في الآية الكريمة السابقة، ولأمر آخر هو التجربة التي حصلت من العُبَّاد والصالحين جيلا بعد جيل، ووجدوا أن في تعيين العدد معونةً على المداومة التي هي مقصد شرعي، وأن ثمرة العبادة تحصل بالالتزام بهذا الذكر مقرونا بهذا العدد؛فوافق عملهم مقصد الشرع ومراده.

٢- المسبعات الخضرية أو المسبعات العشر :

ثم أضاف مشايخ الشاذلية ما يسمى بالمسبعات الخضرية أو المسبعات العشر: إذ هي عبارة عن عشرة من السور والأذكار والأدعية كل منها تقرأ سبع مرات على هذا الترتيب: سورة الفاتحة، ثم سورة الناس، ثم سورة الفلق، ثم سورة الإخلاص، ثم سورة الكافرون، ثم آية الكرسي، ثم الباقيات الصالحات (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله)، ثم الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالصيغة الإبراهيمية، ثم يستغفر لنفسه ولوالديه وللمؤمنين ثم يدعو لنفسه ولوالديه وللمؤمنين بصيغة: اللّهم افعل بي وبهم عاجلًا وآجلًا في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل إنك غفور حليم جواد كريم رءوف رحيم.

وسميت بالخضرية نسبة إلى الخضر عليه السلام ؛حيث ورد عن بعض الصالحين أنه تلقاها منه[1] ففي إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ما نصه : " وإن قرأ المسبعات العشر التي

١ - جمهور العلماء على أن الخضر -عليه السلام - لايزال حيًا قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرحه على صحيح مسلم ١٥/ ١٣٥: " جمهور العلماء على أنه حي موجود بين أظهرنا وذلك متفق عليه عند

أهداها الخضر عليه السلام إلى إبراهيم التيمي رحمه الله ووصاه أن يقولها غدوة وعشية فقد استكمل الفضل وجمع له ذلك فضيلة جملة الأدعية المذكورة ...." (١)

٣ – الوظيفة الزروقية.

ومما اختاره أيضا مشايخ الطريقة الشاذلية مجموعة من الأدعية والأذكار سميت سفينة النجاة إلى من إلى الله التجا وكذلك اشتهرت بالزروقية؛ لأن الذي قد جمع هذه الأذكار واختارها للتعبد هو الإمام العارف بالله سيدي أحمد زروق أحد أئمة الشاذلية رضي الله

الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع به والأخذ عنه وسؤاله وجوابه ووجوده في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثر من أن يحصر وأشهر من أن يستر وقال الشيخ أبو عمر بن الصلاح هو حي عند جماهير العلماء والصالحين والعامة معهم في ذلك قال وإنما شذ بإنكاره بعض المحدثين" ا.هـ، قلت: وليس في هذا ما يعارض عموم النصوص التي تقرر تقدير الموت على كل نفس خلقها الله؛ لأن طول الحياة لا يعني الخلود وعدم الموت ؛ فأهل السنة يجمعون على حياة سيدنا عيسى وأنه رفع بجسده العنصري وأنه حي في السماء الآن وأنه ينزل قبل قيام الساعة ثم يموت بعد ذلك ؛ وكل ذلك بتقدير الله جل في علاه؛ فاعتقاد الصوفية حياة الخضر ليس مستغربا لعدم مخالفته العقل أو الشرع .

١ – إحياء علوم الدين للغزالي ٣ / ٣٣٦ وانظر كذلك قوت القلوب لأبي طالب المكي ١/ ١٨ ط.دار الكتب العلمية، وقد ذكر الإمام خاتمة الحفاظ السيد محمد مرتضى الزبيدي تعليق المحدثين على إسناد هذا الحديث في شرحه على الإحياء المسمى "إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين" [٥/ ٤٢٨ ط.دار الكتب العلمية] ثم قال بعد ذلك : " ولكن مثل هذا يغتفر في فضائل الأعمال لا سيما وقد تلقته الأمة بالقبول "ا.هـ

وقد نص الإمام الدردير على فضل المسبعات فقال : " وهي من الأحزاب المعدة لدفع أهوال الدنيا والأخرة، ...وقال بعدها : ومن فوائدها زوال الحقد والحسد من القلب " [شرح الشيخ الصاوي على الصلوات الدرديرية صـ ٥ – ٦]

عنه[1]، والوظيفة الزروقية كلها مجموعة من أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم أضاف لها الشيخ الخروبي[2] تلميذ سيدي أحمد زروق عبارات أخرى مأخوذة مما تركه لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الميراث النبوي.

وقد كتب لهذه الوظيفة الزروقية القبول من سائر طرق الصوفية ونشرها العلماء والصالحون والعباد؛ وقد ورد عن سيدي أحمد بن زروق في فضل هذه الوظيفة ما نقله عنه شراح الوظيفة ومن ذلك " هي وظيفة النجاة والسرور، وفتح الهداية والتيسير في الأمور؛ بل وظيفة الفوز والنجاة، وحزب البر والبركات، واتباع السنة في أذكار العشي والغداة"ا.هـ[3]، وقد قيل: إن الشيخ رحمه الله لما جمعها رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقال له: "هذه وظيفتك ووظيفة أصحابك"[4] فهي رؤيا مبشرة بقبول الوظيفة الزروقية .

---

١ - هو الإمام العالم الفقيه المحدث الصوفي الولي الصالح الزاهد القطب الغوث العارف باللَّه أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق صاحب المصنفات المباركة في الطريقة الشاذلية كالقواعد والأصول والوظيفة وغيرهم ؛ انظر ترجمته المباركة في نيل الابتهاج للتنبكتي صـ ١٣٠، وللشيخ عبد الله كنون المغربي مقالا موسعا عرف فيه بالشيخ زروق عنوانه " الشيخ أحمد زروق دفين مصراته" [مجلة الآداب – جامعة بنغازي ١٩٨٦ م]

٢ - أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الجزائري: عالمها الكبير وإمامها الشهير كان من أهل الحديث والفقه والتصوف جمع من التصوف والأذكار والأوراد كتبًا منها شرح الحكم وشرح الوظيفة الزروقية توفي بالجزائر سنة ٩٦٣ هـ- ١٥٥٥ م، انظر ترجمته في شجرة النور الزكية ١/ ٤١١، معجم أعلام الجزائر ١/ ١٣٢ ط.مؤسسة نويهض للتأليف والنشر بيروت لبنان .

٣ - انظر اللوائح القدسية شرح الوظيفة الزروقية لابن عجيبة صـ ١٣، طبع ضمن كتاب الجواهر العجيبة من تآليف سيدي ابن عجيبة، ط.دار الكتب العلمية

٤ - انظر الأذكار السنية بالمدرسة الزروقية للأستاذ محمد إدريس طيب صـ ٤٠ ط.دار الكتب العلمية

فالطريق الشاذلي يرتسم بهذه الخطوات الثلاث: الأساس، والمسبعات، والوظيفة الزروقية، فهذا برنامج الذكر اليومي.

وقت الورد اليومي :

هذه الأوارد يلتزم بها المريد مرة في الصباح ومرة في المساء، والصباح ينتهي مع أذان الظهر، أي أن ورد الصباح يبدأ من أذان الفجر إلى الظهر، والمساء يبدأ عند العرب من أذان الظهر، وورد المساء يكون من بعد أذان العصر وقبل غروب الشمس أي إلى أذان المغرب، ويمتد كذلك إلى الفجر، ومن الأذكار ما يشترط فيه أن يكون قبل الشروق أو قبل الغروب كما هو الحال في المسبعات، وكل هذا يعرف من قبل الشيخ في الطريق ؛فلكل شيخ نظر واختيار في الطريق مبناه التلقي والتجربة والإلهام، على نحو يتفق مع عموم الشريعة ومقاصد العبادة فيها.

أذكار الليل (الذكر بالأسماء) :

ثم تأتى مرحلة أخرى في الطريق وهي أذكار الليل وهي التي تكون من بعد أذان المغرب إلى فجر اليوم الجديد وهي الذكر بالأسماء الحسنى، فيبدأ المريد بالذكر بالأسماء الأصول، وهم سبعة، كل منها مائة ألف مرة، وكلما انتهى من اسم من السبعة استأذن شيخه في الانتقال إلى ما يليه ؛ وهذه السبعة تبدأ بـلا اله إلا الله، ثم بعد أن ينتهي يردد: " الله"، ثم : هو، ثم حي، ثم :قيوم، ثم : حق، ثم : قهار، هذا ترتيب معين ولكنه ليس متفقا عليه بين كل الطرق، بل يقدم كل شيخ ويؤخر بحسب معلوماته، وحسب فتح الله له في هذه المعاني وهذه العلاقات.

ويرى بعض الصوفية أن معاني وأسرار الأسماء كلها تلتقي في هذه الأسماء السبعة وبها يكون علاج جميع النفوس حيث يتوافق كل اسم منها مع مرتبة من مراتب النفس السبع،

وسيأتي تفصيل الكلام عن مراتب النفس وعلاقتها بالأسماء الحسنى .

ثم بعد الانتهاء من الأسماء الأصول ينتقل المريد بتلقين من شيخه إلى الأسماء الفروع وهي: واحد، عزيز، مهيمن، وهَّاب، باسط، ودود، يردد كل اسم منها مائة ألف مرة وبعد أن ينتهي ينتقل إلى الاسم التالي له.

ثم ينتقل لترديد الأسماء الحسنى الواردة في حديث الترمذي وهي: الله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ...إلخ كل يوم اسم خمسة آلاف مرة، ثم بعد ذلك نشتغل بلفظ الجلالة الله، أو بما يفيض الله علينا ويوجهنا إليه أو نجد قلبنا عنده.

وهذه هي الملامح الأساسية للأذكار والأوراد للطريقة الشاذلية.

الأحزاب :

الحزب يطلق على أمور منها : الطائفة من الناس وعلى الوِرد، ويطلق على السلاح.[1]

وفي الحديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم «كان إذا حزبه أمر صلى» وفي رواية إذا كان إذا حزبه أمر قال: "لا إله إلا الله الحليم العظيم، لا إله إلا الله رب العرش الكريم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم"، ثم يدعو[2] أي إذا نزل به مهم أو أصابه غم "[3]، فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقابل ما "يحزبه" ويهمه بالدعاء والصلاة والذكر؛ وكأن الصوفية راعوا كل هذه المعاني في استخدامهم لمصطلح "الحزب"استلهاما من سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؛ فهو طائفة من الأدعية والأذكار التي يُبتغى بها التحصن أو قضاء حاجة، والتوجه إلى الله جل في كل

---

١ – انظر القاموس المحيط ١/ ٧٣ ط.مؤسسة الرسالة

٢ – مسند أحمد: الحديث رقم ٢٤١١، ٢٣٢٩٩

٣ – انظر النهاية في غريب الحديث ١/ ٣٧٧ ط.المكتبة العلمية –بيروت

وقت وحال ففيه دفع الأذى وفيه قضاء الحاجات وفيه التعبد والذكر.

قال الشيخ أحمد بن محمد بن عباد الشافعي الشاذلي صاحب المفاخر العلية في المآثر الشاذلية: " اعلم أن حقيقة الحزب هو الورد المعمول به تعبدا ونحوه، وهو في الاصطلاح مجموع أذكار وأدعية وتوجهات، وضعت للذكر والتذكر والتعوذ من الشر وطلب الخير واستنتاج المعارف وحصول العلم مع جمع القلب على الله ؛ ولم تكن في الصدر الأول، ولا من بعدهم بقليل، لكن جرت على أيدي المشايخ الصوفية وصالحي الأمة بحكم التصرف والنظر السديد إشغالا للطالبين وإعانة للمريدين وتقوية للمحبين وحرمة للمنتسبين وترقية للمتوجهين من العباد والزهاد وأهل الطاعة والسداد فتحا للباب حتى يدخله عوام المؤمنين، لما رأوا قصر الهمم، وضعف العزائم، وبعد النيات ونقص القرائح واستيلاء الغفلة ومرض القلوب، وقلة اليقين . " ا.هـ[1]

ومن أشهر الأحزاب التي وضعت لأهل الطريق، وقد عم نفعُها، وسطع نورها، أحزاب الإمام القطب سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ؛ حيث جربت لدفع البلايا والتحصن من الشرور ومن شياطين الإنس والجن، كما جربت لقضاء الحوائج ولطلب الترقي والفتح؛ قال صاحب المفاخر العلية عن أحزاب سيدي أبي الحسن: " واعلم أن أحزاب الشيخ رضي الله عنه جامعة بين إفادة العلم وآداب التوحيد وتعريف الطريقة وتلويح الحقيقة، وذكر جلال الله تعالى وعظمته وكبريائه، وذكر حقارة النفس وخستها، والتنبيه على خدعها وغوايتها، والإشارة لوصف الدنيا والخلق، وطريقة الفرار من ذلك ووجه حصوله، والتذكر بالذنوب والعيوب، والتنصل منها مع الدلالة على خاص التوحيد

١ – انظر المفاخر العلية في المآثر الشاذلية صـ ١٨١ ط.ا المكتبة الأزهرية

وخالصه، واتباع الشرع ومطالبه، فهي تعليم في قالب التوجه، وتوجه في قالب التعليم، من نظرها من حيث العلم وجده كامنا فيها، ومن نظرها من حيث العمل فهي عينه، ومن نظرها من حيث الحال وجده كامنا فيها، وقد شهد شاهدها بذلك عند الخاص و العام، فلا يسمع أحد من كلامها شيئا إلا وجد له أثرا في نفسه، ولا يقرؤها إلا كان مثل ذلك، ما لم يكن مشغوفا بدنيا، أو مصروفا بدعوى، أعاذنا الله تعالى من البلاء"[١] ا.هـ

التعريف بحزب البحر :

إذا علمنا هذا فإن الإمام الشاذلي رضي الله عنه له نحو ثلاثين حزبا جمع فيها مقاصد التوجه إلى الله وطلب خيري الدنيا والآخرة؛ وأكثر هذه الأحزاب اشتهارا هو حزب البحر؛ وهو حزب مبارك مجرب لاستجابة الدعاء والتقرب إلى الله جل في علاه؛ وقد جاء في كشف الظنون في التعريف بهذا الحزب وفضله :

"وهو دعاء مشهور سمي به (أي حزب البحر)؛ لأنه وضع في البحر، وللسلامة فيه حين سافر في بحر القلزم، فتوقف عليهم الريح أيامًا، فرأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في مبشرة، فلقنه إياه، فقرأه، فجاء الريح، ويسمى أيضًا: (بالحزب الصغير) أوله: (يا الله، يا علي، يا عظيم، يا حليم.... الخ) .

قال العلماء بالله تعالى: إن فيه اسم الله الأعظم، وجاء عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي: "أنه قال: لو ذكر حزبي في بغداد لما أُخِذَتْ" ا.هـ.

وهو العدة الكافية التي فيها تفريج الكروب، وما قرئ في مكان إلا سلم من الآفات، وفي ذكره لأهل البدايات أسرار شافية، ولأهل النهايات أنوار صافية، ومن ذكره كل يوم عند

---

١ – انظر المفاخر العلية في المآثر الشاذلية صـ ١٨١ وما بعدها

طلوع الشمس أجاب الله سبحانه وتعالى دعوته، وفرج كربته، ورفع بين الناس قدره، وشرح بالتوحيد صدره، وسهل أمره، وكفاه شر الإنس والجن، ولا يقع عليه بصر أحد إلا أحبه، وإذا قرأه عند جبار أمن من شره، ومن قرأه عقيب كل صلاة أغناه الله سبحانه وتعالى عن خلقه، وآمنه من حوادث دهره، ويسر له أسباب السعادة في جميع حركاته وسكناته، ومن ذكره في الساعة الأولى من يوم الجمعة ألقى الله محبته في القلوب.

وقال بعضهم: من كتبه على شيء كان محفوظًا بحول الله سبحانه وتعالى، ومن استدام على قراءته لا يموت غريقًا، ولا حريقًا، ومن كتبه على سور مدينة، أو حائط دار دائرًا عليها، حرسها الله سبحانه وتعالى من شر طوارق الحوادث والآفات."[1]

فبان من كل ذلك كيف أن السادة الصوفية اهتموا اهتماما بالغا بالذكر، وبينوا أنواعه؛ فظهرت لهم فضائله وأسراره أكثر من غيرهم؛ و ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الحديد : ٢١].

---

١ – كشف الظنون ١/ ٦٦١ .

من صيغ الصلوات المباركات:

١ - الصلاة التازية أو التفريجية:

ومن الصيغ المباركة الواردة عن الصالحين كذلك في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله والمجربة في قضاء الحوائج الصلاة المشتهرة بالتازية[١] أو النارية، أو التفريجية وصيغتها المنقولة هي: "اللّهم صلِّ صلاة كاملة وسلم سلاما تاما على نبي تنحل به العقد وتنفرج به الكرب وتقضى به الحوائج وتنال به الرغائب وحسن الخواتيم ويستسقى الغمام بوجهه الكريم وعلى آله". وبالتجربة والتكرار أن من يقول هذه الصلاة بعدد أربعة آلاف وأربعمائة وأربعة وأربعين مرة (٤٤٤٤) يفرج الله عنه الكرب ويفتح له المغاليق، ولذا فقد أطلقوا عليها الصلاة النارية، لسرعة تحقق المطالب بها.

٢ - الصلاة المشيشية :

وهي الواردة عن القطب العارف بالله سيدي عبد السلام بن مشيش[٢] وهو أستاذ

---

١ - هي منسوبة إلى الشيخ إبراهيم التازي هو من كبار أولياء زمانه ببلاد المغرب المتوفى سنة ٨٦٦ هـ وترجمته في كتاب نيل الابتهاج للتنبكتي صـ ٥٩، وممن نسبها إليه –وإن كانت نسبت لغيره كذلك – الشيخ عبد الله كنون في كتابه النبوغ المغربي في الأدب العربي ٢/ ٣٤١، أما قراءتها بالعدد المذكور فقد ذكرها الشيخ يوسف النبهاني في كتاب أفضل الصلوات على سيد السادات ص، ١٦٤ ط. مصطفى الحلبي نقلا عن خزينة الأسرار للنازلي، والصيغة المثبتة هي ما تلقيناه عن مشايخنا من غير الزيادة التي تذكرها بعض الكتب .

٢ - الشيخ عبد السلام بن مشيش أو بشيش أحد أكابر الأولياء والعارفين وأحد فروع الدوحة النبوية ينتهي نسبه إلى سيدنا الحسن بن علي، وقد تلقى عنه سيدنا الإمام أبو الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية الطريق وانتفع به، انتقل إلى رحاب ربه سنة ٦٢٢ هـ وقيل، ٦٢٥ هـ شهيدا بعد أن قتله أحد الدجالين ودفن بأعلى جبل العلم ببلاد المغرب حيث كان يعبد الله هناك رضي الله عنه، وهذه الصلاة التي اشتهرت عنه من أفضل الصلوات المنقولة عن أهل الله العارفين، وقد ذكر الشيخ عبد الحي الكتاني في فهرس الفهارس

الإمام سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، وقد تلقاها الصوفية على اختلاف مدارسهم بالقبول وشرحوها وجعلوها في أورادهم ونصها :

"اللّٰهمَّ صلِّ على مَنْ منهُ انشقَّت الأسرار، وانفلقَتِ الأنوارُ، وفيهِ ارتقَتِ الحقائقُ، وتنزَّلتْ عُلومُ آدمَ فأعجزَ الخلائقَ، ولهُ تضاءَلتِ الفُهومُ فَلَمْ يُدْرِكْهُ منّا سابقٌ ولا لاحِقٌ، فرياضُ الملكوتِ بزهرِ جماله مونِقةٌ، وحياضُ الجبروتِ بِفيضِ أنوارِهِ مُتدفّقةٌ، ولا شيءَ إلا وهوَ به منوطٌ، إذ لولا الواسِطةُ لذهَبَ كما قيلَ الموسوطُ، صلاةً تليقُ بكَ مِنكَ إليهِ كما هو أهلهُ، اللّٰهمَّ إنّه سرُّكَ الجامعُ الدَّالُّ عليكَ، وحِجابُكَ الأعظمُ القائمُ لكَ بينَ يديكَ، اللّٰهمَّ ألحقْنِي بنسبِهِ، وحقِّقْنِي بحسَبِهِ وعرِّفني إِيَّاهُ مَعرفةً أَسْلمُ بها مِن مواردِ الجهلِ، وأكرعُ بِها مِنْ مَوارِدِ الفَضل. واحملني على سَبيلِهِ إلى حَضْرتِكَ حَمْلًا محفوفًا بِنُصْرَتِكَ، واقذفْ بي على الباطل فأدمغَهُ، وزُجَّ بي في بحار الأَحَدِيَّة، وانشُلني من أَوْحالِ التَّوحيدِ، وأغرقني في عين بحْرِ الوَحدةِ، حتى لا أرى ولا اسمَعَ ولا أَجِدَ ولا أُحِسَّ إلا بها، واجعلْ الحِجابَ الأعظمَ حياةَ رُوحي، ورُوحَهُ سِرَّ حقيقتي، وحقيقَتَهُ جامعَ عَوالمي، بتحقيقِ الحقِّ الأوّلِ، يا أَوّلُ يا آَخِرُ يا ظاهِرُ يا باطنُ، اسمع ندائي بما سمعْتَ به نداءَ عبدِكَ زكريا، وانصُرني بكَ لكَ، وأيّدني بكَ لكَ، واجمعْ بيني وبينَك وحُلْ بيني وبينَ غَيرِك، اللهُ، اللهُ، اللهُ ﴿إنَّ الذي فرضَ عليْكَ القُرآنَ

والأثبات [١/ ١١٤٦ ط.دار الغرب] في فضل هذه الصلاة المباركة ما نصه :" لطيفة: رأيت في إجازة المترجم للمسند أبي محمد التهامي بن المكي بن رحمون الفاسي قوله في حق الصلاة المشيشية قالوا: إنها تعدل " دلائل الخيرات " قال حتى لو حلف بالطلاق الثلاث ليصلين على النبي صلى الله عليه وسلم بأفضل الصيغ تنحل يمينه بقراءتها لأن فيها قوله صلاة تليق بك منك إليك كما هو أهله، وإن كان للعلماء كلام ليس هذا محله، اه. منها" .انظر ترجمة الشيخ عبد السلام بن مشيش في طبقات الشاذلية الكبرى لأبي علي الحسن بن محمد الفاسي المغربي صـ ٥٩ ط.دار الكتب العلمية.

لرادُّكَ إلى معادٍ﴾، ﴿ربَّنا آتِنَا مِنْ لدُنْكَ رحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وآله وسلم وا تَسْلِيمًا﴾ "[1]

وهي صلاة شاع نورها وعمَّ فضلها؛ ولها أسرار وأنوار، ولذا كثرت شروحها؛ فممن شرحها العارف بالله سيدي ابن عجيبة الحسني، وكذلك الشيخ الصاوي المالكي أثناء شرحه لصلوات الشيخ الدردير وغيرهما من العلماء نفعنا الله بهم .

---

١ - جاء في شرح الشيخ الصاوي على الصلوات الدرديرية المسمى الأسرار الربانية والفيوضات الرحمانية على الصلوات الدرديرية [صـ ٢٧ ط. الميمنية] تعليقا على بعض المعاني الواردة في هذه الصلاة المباركة ما يلي : " (وزج بي في بحار الأحدية) أي أدخلني في توحيد الأحدية الشبيه بالبحر وهو الفناء عن سوى الذات العليا فلا يشهد سواها في ظاهره وباطنه ويقال لصاحبها هو في مقام الفناء وفي عين الجمع المعبر عنه بتجريد التوحيد (وانشلني) أي خلصني سريعًا (من أوحال) مخاوف (التوحيد) إنما قال ذلك عقب قوله وزج بي الخ لأن صاحب الفناء إن لم تدركه العناية أنكر ثبوت الآثار ومنها الرسل وما جاؤا به والعالم برمته كما قال الحلاّج : ما في الجبة إلا الله ؛ لأنه مشاهِد للذات بدون الأسماء والصفات والعوالم نشأت بمظهرها ومعنى تخليصه من تلك الأوحال نقله لمقام البقاء فلذلك قال (وأغرقني) أي اجعلني مستغرقا (في عين) أي ذات (بحر) أي توحيد (الوحدة) وهو شهود الذات متصفة بالصفات ويسمى صاحبه في مقام البقاء وفي مقام جمع الجمع فيستدل على الصنعة بالصانع لكونه لا يشهد إلا الله وصفاته والصنعة آثار صفاته فلذلك قال (حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها) فيكون جامعًا بين مقام الفناء ومقام البقاء كمن أحيي بعد الموت " .

من أركان الطريق

الفكر

تكلمنا عن بعض أركان الطريق ومنها: الذكر والفكر، واستفضنا في الحديث عن الذكر، فماذا عن الفكر؟

- عرف العلماء الفكر بأنه : "ترتيب أمور معلومة للتوصل بها إلى مجهول، وهو حركة النفس في المعقولات والمحسوسات، فحركتها في المعقولات هي التخيل، وفي المحسوسات تسمى فكرا، وغاية الفكر التوجه من المبادئ إلى المقاصد"(١).

والفرق بين الذكر والفكر، أن الذكر موضوعه الله جل جلاله، وأما الفكر فموضوعه العالم والواقع المحيط بنا الذي بمعرفته يتحقق كمال معرفة الله تعالى، ولذا فقد أمرنا الله عزوجل بالجمع بين الذكر والفكر قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]

فالمسلم يدرك أن لديه مصدرين رئيسيين للمعرفة وهما:

كتاب الله المسطور؛ وهو "الوحي".

وكتاب الله المنظور؛ وهو "الكون" الذي يتوصل إلى قوانيه ودقائقه بالعلم والعقل.

وكل من هذين الكتابين قد صدرا عن الله سبحانه وتعالى، ولكل منهم عالم يغاير الآخر، وقد أشار اليهما القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١] أي: الكون، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق:٤] أي: الوحي، وهما

١ - انظر شيخ الإسلام البيجوري على متن السلم في علم المتطق صـ ٧ ط.مصطفى الحلبي

كتابان لا يتعارضان، ويؤيد كل منهما الآخر؛ لأنهما من عند الله. قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: من الآية ٥٤] فقوله تعالى: (لَهُ الْخَلْقُ) أي: عالم الأكوان، وقوله (والأمر) هو : الوحي؛ بدليل قوله تعالى في آية أخرى ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾[الطلاق: ١٢] كما عند جماعة من المفسرين[١]

إذن فكيف يتعارض النص مع حقائق الأكوان؛ وكلاهما من عند الله ! ولذا فليس ثمة تعارض في الإسلام بين الدين والدنيا، ولا بين العلم والمعرفة.

يستطيع الإنسان بالنظر في هذين الكتابين أن يصل إلى الهداية، وأن يفتح الله عليه بإدراك الحقائق المتتالية؛ لأنهما المكون الأساسي للحقائق التي يصل إليها العقل، بينما يمثل الأخذ بأحد هذين الكتابين وترك الآخر عرجًا فكريًا، فكما أن العرج الجسدي هو السير على قدم واحدة، فكذلك العرج الفكري هو الأخذ بأحد مصادر المعرفة دون الآخر، وبذلك لن يستطيع الإنسان أن يصل إلى الحقائق الكاملة أبدا.

فكتاب الله المسطور وهو النص قد صدر من عالم الأمر، وكتاب الله المنظور وهو الخلق قد صدر من عالم الخلق .

وهناك كتاب ثالث جعله الله لإدراكهما، وهو الكتاب المقدور، ألا وهو الإنسان، فأصبح لدينا ثلاثة كتب:

الكتاب المقدور وهو: الإنسان.

والكتاب المسطور الذي يترجم مراد الرحمن وهو: الوحي.

والكتاب المنظور الذي هو: الأكوان.

---

١ – انظر تفسير القرطبي ١٨/ ١٧٦

ولذلك لم يمر المسلمون قط بها مرت به أوروبا عندما اصطدموا باكتشافات كوبرنيكوس[1] وجاليليو [2] لمخالفتها لمقررات الكنيسة حينئذ، مما أدى لصدور الخطاب البابوي الذي حُرِّم فيه سبعين علمًا لمخالفتها للنص الذي تعتقده الكنيسة، فزادت الاضطرابات التي أدت إلى نشأة ما يسمى "بعلم الهرمنيوطيقا" [3] لمحاولة إيجاد الترابط وفك التناقض بين الكتابين المسطور والمنظور.

---

(١) كوبرنيكوس: نيكولاس كوبرنيكوس (١٥٤٣-١٤٧٣م) راهبًا وعالمًا رياضيًا وفيلسوفا فلكيًا وقانونيًا وطبيبًا وإداريًا ودبلوماسيًا وجنديًا بولنديًا كان أحد أعظم علماء عصره. يعتبر أول من صاغ نظرية مركزية الشمس وكون الأرض جرمًا يدور في فلكها في كتابه "حول دوران الأجرام السماوية". وهو مطور نظرية دوران الأرض، ويعتبر مؤسس علم الفلك الحديث.

(٢) جاليليو (١٥٦٤-١٦٤٢م) عالم فلكي وفيلسوف وفيزيائي ولد في إيطاليا نشر نظرية كوبرنيكوس ودافع عنها بقوة على أسس فيزيائية، فقام أولًا بإثبات خطأ نظرية أرسطو حول الحركة، وقام بذلك عن طريق الملاحظة والتجربة. كان ممن اتبع طرق التجريبية في البحوث العلمية. وبحث في الحركة النسبية، وقوانين سقوط الأجسام، وحركة الجسم على المستوى المائل والحركة عند رمي شيءٍ في زاوية مع الأفق واستخدام البندول في قياس الزمن. وكتب كتابًا تحدث فيه عن ملاحظاته ونظرياته، وقال أنها تثبت الأرض كوكبٌ صغير يدور حول الشمس مع غيره من الكواكب، وشكا بعض أعدائه إلى سلطات الكنيسة الكاثوليكية بأن بعض بيانات جاليليو تتعارض مع أفكار وتقارير الكتاب المقدس، وذهب جاليليو إلى روما للدفاع عن نفسه وتمكن بمهارته من الإفلات من العقاب لكنه انصاع لأمر الكنيسة بعدم العودة إلى كتابة هذه الأفكار مرة أخرى، وظل ملتزمًا بوعده إلى حين، لكنه كتب بعد ذلك في كتاب آخر بعد ست عشرة سنة نفس الأفكار، وأضاف أنها لا تتعارض مع شيء مما في الكتاب المقدس. وفي هذه المرة أرغمته الكنيسة على أن يقرر علانية أن الأرض لاتتحرك على الإطلاق وأنها ثابتة كما يقول علماء عصره. ولم يهتم جاليليو بهذا التقرير العلني.

(٣) هو فلسفة تأويل النصوص الدينية .

أما في الإسلام، فالنص يتوافق ويتلاحم مع كل سقف معرفي يصل إليه الإنسان، فكلما أرتقى الإنسان في إدراك حقائق الكتاب المنظور(الكون) بعقله تحمَله الكتاب المسطور(النص) الوحي.

تدبر القرآن نوع من أنواع عبادة التفكر :

وعليه فرؤية الإسلام تقوم على أنه كلما تدبر المسلم في الكون وتدبر كذلك كتاب الله لاحظ التوافق بينهما الدال على وحدة الإله جل جلاله وعظيم قدرته وحكمته كذلك، وعلى سبيل المثال فما يُطلق عليه "الإعجاز العلمي في القرآن " ليس هو في مطابقة آياته للاكتشافات العلمية الحديثة، بل في كونه مستوعبًا لها، غير مخالفًا أو متناقضًا معها.

فلم يحدث أن وصل العلم الحديث إلى شيء، وقد نص القرآن الكريم على خلافه، وكيف يكون ذلك! وخالق الكتاب المنظور (الكون) هو منزل الكتاب المسطور (الوحي)، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعلَمُ مَن خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤]، فكلما تدبر الإنسان المسلم في كتاب الله وجد ما يدعوه للنظر في الكون وإلى التمسك بقواعد المعرفة الصحيحة، وهو ما يؤثر على سلوكه فالقرآن يدعو الإنسان لإعمال عقله وتتبع الآيات الكونية؛ وصولا للمعرفة اليقينية قال تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء :٣٦] فالقرآن يطلب منا أن نبتعد عن الأوهام وأن نتبع الحقائق.

القرآن كتاب الله المتجاوز للزمان والمكان.

هذا الفهم الدقيق لما بين الكتاب المسطور والمنظور من ترابط، يساعد في تبديد مشكلة اخذت حيزًا في الفكر الإسلامي قديمًا وهي مشكلة خلق القرآن، فالقول بخلق القرآن، كما

يرى المعتزلة[1] سابقًا ومن تبني قولهم في العصر الحديث، يتنافي مع القول بتجاوزه للزمان والمكان، ويجعله خاصًا بزمن معين وهو زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ ذلك لأنهم لم يلتفتوا لهذا المعنى في زمانهم؛ ربما لعدم تصورهم التغير الذي سيحدث في الأزمنة اللاحقة، ورحم الله الإمام أحمد بن حنبل لتصديه لهذه الفتنة وإصراره على القول بأن القرآن ليس مخلوقًا[2]، وأنه كلام الله تعالى الذي يصلح لكل زمان ومكان، مدركًا بذلك أن القول بخلق القرآن يلزم عنه تغيره مع تغير الأزمنة وإلا لما صلح لها .

فالقرآن للمسلمين نبي مقيم، ورسالة دائمة لا تتغير ولا تتبدل؛ لذا فلا يمكن أن يكون مخلوقًا.

وجاز مع ذلك القول بأن المصحف مخلوق؛ لكونه وجد بعد ما لم يكن موجودًا، أي طبع ولم يكن مطبوعًا من قبل، والفرق هنا هو الفرق بين الدال والمدلول، فالدال هنا مخلوق والمدلول غير مخلوق[3]؛ لأنه كلام الله القائم بذاته تعالى.

---

(١) المعتزلة: فرقة كلامية ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري في البصرة في أواخر العصر الأموي وازدهرت في العصر العباسي. اعتمدت المعتزلة على العقل في تأسيس عقائدهم وقدموه على النقل، وقالوا بأنّ العقل والفطرة السليمة قادران على تمييز الحلال من الحرام بشكل تلقائي. من أشهر المعتزلة الزمخشري صاحب تفسير الكشاف، والجاحظ، والخليفة المأمون، وعبد الجبار.

(٢) لمعرفة المزيد عن تفاصيل محنة الإمام أحمد مع القائلين بخلق القرآن انظر: تاريخ الإسلام للذهبي ٥/ ١٠٣٦ ط.دار الغرب

(٣) الدال والمدلول: الدلالة: هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني: هو المدلول فليست الدلالة هي الدال أو المدلول، بل هي النسبة والانتقال الذهني من الدال إلى المدلول. والدلالة مثلثة فحرف الدال يأخذ الضم والفتح والكسر.

دور الفكر في إدراك دوائر التعامل مع النصوص:

وفي دائرة أخرى من منهج الفكر المستقيم يتبين لنا أن هناك فرقا بين النص وبين تفسير النص، وتطبيق النص ؛ والعلم بذلك كله له أدواته وله قواعده، التي يبرز فيها دور العقل في كيفية استيعابه لهذه الأدوات والمناهج، وكيفية تطبيقها، والتي لابد أن يتمثل بها الفقيه حتى يستطيع تفسير النص تفسيرًا صحيحا متوافقًا مع المقاصد الشرعية غير متجاوز لمقتضيات اللغة، مراعيًا في ذلك ما استقرت عليه الأمة من إجماع وما يترتب من مآلات تختلف باختلاف الواقع وتتغير بتغيره.

فينظر إلى الواقع وكيف تغير، وإلى أي مدى تغير، وكيف يصل بين الواقع وبين النص، فكل ذلك يلزم قبل محاولة تطبيق وتنزيل الص على الواقع ؛ وكل هذا لا يكون بغير معرفة، ولذا فهي درجات، أي في الترقي والصعود قال تعالى: ﴿هُم دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعمَلُونَ﴾ [آل عمران : ١٦٣] وعكسها والعياذ بالله "دركات" أي في السقوط والهبوط. وهو مقلوب الهرم، ومعناها أنهم ظهروا بغير مراد الله قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧] وكان هذا هو السبب في كون الخوارج كلاب أهل النار؛ كما في حديث : " الخوارج كلاب أهل النار"(١) لأنهم عمدوا إلى النصوص فحاولوا تطبيقها من غير تفسير صحيح ولا إدراك لمعانيها ومقاصدها، ولا حاولوا أن يعرفوا شروط التطبيق، وهو ما أدى عند تطبيقهم لما ظنوه من الدين إلى أن شوهوا الدين باسم الدين، ووقعوا في التلبيس التدليس .

ونخلص من ذلك بأن العلاقة بين الإنسان والكون في الإسلام هي علاقة انفتاح كما

---

(١) رواه الإمام أحمد والطبراني في الأوسط ؛ قال الهيثمي في مجمع الزوائد [٦/ ٢٣٢] : ورجال أحمد ثقات .

هي العلاقة بين النص وتفسيره وتطبيقه

وأن هناك توافقا وتكاملا في الإسلام بين المعرفة وبين مصادرها.

والمقصود بالتوافق هو: عدم التعارض بين المصادر بعضها وبعض إذا اشتركوا في الدلالة على شيء واحد.

والمقصود بالتكامل: أن يكون لبعض المصادر حدودا ومجالات تختص بها تتكامل بها مع غيرها من المصادر.

وهذا الترابط والتكامل بين الوحي والعقل يرفضه ولا يستوعبه أصحاب الفكر الأعرج، الذين يغلقون أنفسهم على ظاهر النص فقط، ويكتفون به مصدرا للمعرفة، فيؤول بهم الأمر أن تتناقض لديهم المعارف الدينية مع العلوم الدنيوية، فتضطرب الحقائق ويضلوا الطريق(١).

فمن يفهم الإسلام يعلم أنه ذو نسق مفتوح، يستوعب كل جديد وحديث، كما يستوعب المختلف معه، ذو نسق مفتوح؛ لأن تعاليمه لصلاح البشرية بأكملها، وخطابه موجه للناس جميعًا مسلمين وغير مسلمين. قال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فلم يكن الإسلام يومًا منغلقًا على جانب دون جانب ولا خاصًا بفئة دون فئة، فلم نجد

---

(١) من هؤلاء من زعم أن القول بدوران الأرض حول الشمس كفر وأنه مخالف للإجماع انظر كتاب "الصواعق الشديدة على أهل الهيئة الجديدة للشيخ حمود التويجري، وفي المقابل يرى جماهير علماء الإسلام بطلان هذه الرؤية المتعسفة في فهوم النصوص؛ وقد ألف للتوفيق بين ما قررته النصوص الشرعية وبين توصل له علماء الفلك من حقائق الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية كتابا سماه " توفيق الرحمن للتوفيق بين ما قاله علماء الهيئة وبين ما جاء في الأحاديث الصحيحة وآيات القرآن"

به شيئا يسمى حجرة قُدْس الأقداس التي نجدها في الديانات الأخرى موقوفة على الكهنة فقط، بل ليس لدينا فكرة الكهنة أصلا الذين ينشئون ديانة جديدة أو يحتكرون المعرفة، فليس في الإسلام رجال دين بل علماء بالدين.

فكل إنسان في الإسلام له الحق في معرفة تعاليمه وعباداته له الحق في دخول المسجد، له الحق أن يتعلم علوم المسلمين وينهل منها، وقد كان من أصحاب الديانات الأخرى من دخل الأزهر الشريف والتحق بحلقاته والتف حول مشايخه ليتعلم من علومهم[1].

نسقنا في الإسلام نسق مفتوح بكل ما في المعنى من كلمة؛ لأنه أعترف بجميع الأنبياء والرسل السابقين، لأن مصدرا المعرفة فيه هما الكون والوحي بدون انفصال بينهما، لأنه حقق المقاصد وراعى المصالح، فأصبح بذلك صالحًا لكل زمان ومكان.

مسلك الصوفية في الفكر الموصل للحقائق :

وقد التزم أهل الله من الصوفية بالأخذ بهذين المصدرين فكانت لهم بها أبواب من المعارف والفتوح والمكاشفات، غير أنهم علموا ان ملتفتًا لا يصل؛ فما وقفوا عندها، وكانت لهم تلك المكاشفات سبيلا إلى زيادة الأدب مع الله والذلة بين يديه، ووضعوا لذلك قواعد صنفت فيها العديد من المصنفات، كالقواعد الزروقية لسيدي أحمد بن زروق، والحكم العطائية لسيدي أحمد بن عطاء الله السكندري[2]، وغيرهما .

(١) ومن هؤلاء المستشرق المجري Ignaz Goldziher المشهور بجولد تسيهرتوفي: ١٩٢١ م حيث أقام فترة في مصر وحضر لبعض علماء الأزهر الشريف : انظر ترجمته في موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوي صـ١٩٧ ط.دار العلم للملايين

٢ – هو الإمام العارف الشيخ تاج الدين بن عطاء الله أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الكريم الجذامي الإسكندراني الإمام المتكلم على طريقة الشاذلي. كان جامعا لأنواع العلوم من تفسير وحديث ونحو وأصول

فالذكر يوصل إلى الاطمئنان، فإذا لم يوصل إليه، فاعلم أن هناك شيئا خاطئا، وهو أنك نظرت بعين واحدة، ولم تتخذ منهج النبوة في الجمع بين الذكر والفكر، بين الكتاب المسطور والكتاب المنظور، فاعتمدت على أحدهما وتركت الآخر.

والجمع بينهما يقود إلى حقائق ثابتة لا تتغير ولا تتخلف، وصل إليها السالكون من أئمة الصوفية، وجعلوا لها مفاتيح يتناقلها السالكون في الطريق، وكل ذلك وفق منهج الذكر والفكر الذي أخبر عنه القرآن الكريم وطبقه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

وفقه على مذهب مالك وصحب في التصوف، الشيخ أبا العباس المرسي -وكان أعجوبة زمانه فيه- أخذ عنه التقي السبكي. وله تصانيف منها التنوير في إسقاط التدبير، والحكم ولطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس والشيخ أبي الحسن، والمرقى إلى القدس الأبقى، ومختصر تهذيب المدونة للبرادعي في الفقه. مات بالقاهرة ٧٠٩ هـ ودفن بالقرافة؛ انظر ترجمته في حسن المحاضرة للسيوطي ١/ ٥٢٤ ط.دار إحياء الكتب العربية، طبقات الشاذلية الكبرى للفاسي صـ٩٤

شبهات

حول التصوف والصوفية

من السنن الربانية أنه لا توجد دعوة للخير إلا وتلقى من بعض الناس عنتا وخصومة تصل أحيانا لحد العداوة ؛ كما هو مشاهد من الجماعات التكفيرية التي تتمسح باسم السلفية، والتي أول ما تنشره بين الناس اتهامُ السادة الصوفية بارتكاب البدع والمخالفات الشرعية، حتى وصلوا إلى تكفيرهم تصريحا وتلميحا فتارة يدعونهم بعباد القبور، وتارة يرمونهم بالكفر الصريح، والخروج من ربقة الإسلام! (١)

وكل ذلك إنما هو بغرض الطعن في حملة الشرع الشريف من أئمة الحديث والتفسير والفقه والكلام واللغة وغيرهم فمعظم هؤلاء سلكوا طريق التصوف، وأثنوا على أهله ؛ وقد بات واضحا بعد هذه الحرب الشعواء على كل معارف وعلوم الصوفية أن الغرض من تشويه صورة التصوف بالكذب والافتراء والتضليل هو إخلاء الساحة من الدعاة إلى الله الذين تجتمع الأمة عليهم والذين ملأوا الأرض علما وحلما وهداية ودافعوا عن الإسلام ونشروا

---

(١) انظر على سبيل المثال: كتاب "إلى التصوف يا عباد الله" للكاتب أبو بكر الجزائري الذي وصف التصوف في أول كتابه هذا بأنه بدعة ضلالة من أكبر البدع ! [صـ ١٤ ط.دار البصيرة]والعجيب أنه لم يأت طيلة كتابه هذا بأي مرجع يعتمد عليه الصوفية فلفق للصوفية ما لم يخطر لأحدهم على بال، وانظر كذلك كتاب "هذه هي الصوفية" للكاتب عبد الرحمن الوكيل الذي اتهم الصوفية بالشرك والضلال نال لسانه من أولياء الله بالنقص والاستهزاء، ولفق عليهم كذلك عقائد لا يمكن أن تنسب لمسلم، وقد راح يفسر كلام الإمام ابن عربي رحمه الله على ظاهره عبارته مخالفا في ذلك كل قواعد المنهج العلمي التي تقتضي مراعاة تفسير المصطلحات الخاصة ومقصد المصنف من كلامه؛ مما يدل على التحامل والهوى لا الإنصاف والمنهج العلمي المعتدل، والله المستعان .

علومه وأخلاقه كالإمام الجنيد والإمام الغزالي والإمام النووي والإمام الرازي والإمام الشاذلي والإمام العز بن عبد السلام وغيرهم في كل زمان ومكان ؛ وبالتالي تتشكك الأمة في قادتها عبر التاريخ ؛ وتستبدل بهؤلاء عدد من أذناب الخوارج الذين خالفوا جمهور الأمة في الأصول والفروع، وشغبوا على الناس، ونالوا من العلماء، وطعنوا في عقيدة المسلمين، واتهموهم بالشرك ؛ مما ترتب عليه الفتن والنزاعات التي تعاني منها مجتمعاتنا مما تسبب في مزيد الضعف والتراجع الحضاري بشكل عام، ولما كانت هذه الاتهامات والشبهات الموجهة ضد التصوف والصوفية تحتاج إلى بيان وإيضاح نتكلم عن عنها بشيء من التفصيل فيما يلي :

أولا التوسل والاستغاثة :

مسألة التوسل والاستغاثة من المسائل التي كثر حولها الكلام في العصور المتأخرة من تبديع وإتهام بالشرك لمن يعتقد بها خاصة الصوفية، حيث تكثر في أورادهم وأحزابهم التوسل والاستغاثة، والحق أن هؤلاء الطاعنين في عقيدة الصوفية؛ لو أنصفوا لما جاروا بمثل هذه الاحكام؛ فكيف لمسلم أن يُتهم بالشرك أو البدعية لأمر يمكن حمله على وجه صحيح، والأصل في الأفعال التي تصدر من المسلم أن تحمل على الوجه الصحيح منها، وفي ذلك يقول الشيخ محمد عليش مفتي السادة المالكية في عصره: "إن كان للتكفير تسعة وتسعون وجها ولعدمه وجه واحد فإنه يقدم ولا يفتى بالكفر الموجب للقتل وحل العصمة وعدم الميراث وغيرها من أحكامه الصعبة".(١)

فعلماء الإسلام لا يتعجلون الحكم على مسلم أبدا بكفر ولا بشرك لما يترتب عليه من أحكام صعبة في الدنيا والآخرة.

ونحن لو سألنا أحدا ممن يتوسل بآل البيت الكرام وأولياء الله الصالحين: هل تعتقد بذلك استحقاقهم للعبادة؟ لم نجد أحدا مطلقا سيجيب بأنه يعتقد ذلك، بل الجميع متفقون على أنهم عبادٌ لله وحده لا شريك له، وأنهم ما توسلوا بهؤلا الصالحين إلا لاعتقادهم صلاحَهم وقربهم إلى الله، ومحبة الله لهم، وإنما توسلهم بهم من قبيل السببية لا التأثير والخلق.

يقول الإمام شمس الدين الجزري شارح "منهاج الإمام البيضاوي": اعتقاد التوحيد من لوازم الإسلام؛ فإذا رأينا مسلمًا يستغيث بمخلوق علمنا قطعًا أنه غير مشرك لذلك

(١) فتح العلي المالك ٢/ ٣٥٨

المخلوق مع الله عز وجل، وإنما ذلك منه طلبُ مساعدةٍ أو تَوَجُّهٌ إلى الله ببركة ذلك المخلوق اهـ [1]

كما أن هناك فارقا كبيرا بين الوسيلة والشرك، فالوسيلة مأمور بها شرعًا في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، فالوسيلة في الأصل ما يتوصَّل بها إلى الشيء ويتقرّب بها.[2]

أما الشرك فهو يكون بمعنى اعتقاد أن لله شريكًا[3] وهو ما ينزه عنه المسلم .

أدلة التوسل :

التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وبآل بيته الكرام له أدلة كثيرة من الكتاب والسنة وعمل الصحابة والتابعين ومن لحقهم من أهل السنة والجماعة.

فمن الأدلة عليه من القرآن الكريم : قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]

وقد فهم الصحابة من هذه الآية العموم؛ أي أنها كما تشمل حياته صلى الله عليه وآله وسلم، الدنيوية تشمل كذلك حياته البرزخية فروى الطبراني في "المعجم الكبير" عن معن بن عبد الرحمن عن أبيه قال: قال عبد الله –يعني: ابن مسعود رضي الله عنه-: "إنّ في النِّساء [أي سورة النساء] لخمسَ آياتٍ ما يَسُرُّني بهن الدنيا وما فيها، وقد علمتُ أن العلماء إذا مروا

(١) نقلًا عن الإمام نجم الدين الطوفي الحنبلي في كتابه "الإشارات الإلهية في المباحث الأصولية" ٣/ ٩٠ ط. المكتبة المكية بمكة المكرمة، وقد أفاض الشيخ الطوفي بذكر أدلة جواز الاستغاثة وبيان تهافت القول بحرمتها فراجعه رده صـ ٩٠ وما بعدها .

(٢) تفسير الثعلبي ، الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٤/ ٥٩)

(٣) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ٣/ ١٤٤ ط.دار صادر

بها يعرفونها.. فذكر منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ "(١).

وظاهرٌ أن سبب سروره رضي الله عنه هو أنه فهم العموم من الآية؛ فقد حدث بذلك التابعين بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد نقل الإمام الحافظ الفقيه التقي محي الدين النووي الشافعي رضي الله في كتبه قصة ذلك الأعرابي الذي توسل بسيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم بعد انتقاله؛ فقال عند كلامه عن زيارة سيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم: " ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتوسل به في حق نفسه ويستشفع به إلى ربه سبحانه وتعالى، ومن أحسن ما ورد ما حكاه الماوردي والقاضي أبو الطيب وسائر أصحابنا عن العتبي مستحسنين له قال: "كنت جالسا عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء أعرابي فقال السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ وقد جئتك مستغفرا من ذنبي مستشفعا بك إلى ربي ثم أنشأ يقول:

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بِالقَاعِ أَعْظُمُهُ ** فَطَابَ مِنْ طِيبِهِنَّ القَاعُ وَالأَكَمُ
نَفْسِي الفِدَاءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ ** فِيهِ العَفَافُ وَفِيهِ الجُودُ وَالكَرَمُ

ثم انصرف، فحملتني عيناي فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال: يا عتبي الحق الأعرابي فبشره بأن الله تعالى قد غفر له ".(٢)

---

(١) المعجم الكبير حديث رقم ٩٠٦٩ ؛ قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" ٧/ ١١ : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) المجموع شرح المهذب للإمام النووي ٨/ ٢٧٤، وقد علق الإمام الكوثري رحمه الله على قصة العتبي

وأما الأدلة من السنة النبوية المطهرة:

١- فمنها حديث الرجل الذي كان أعمى فعلمه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول: «اللّٰهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني قد توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللّٰهم شفعه فيَّ».[(١)]

وعند الطبراني وغيره أن راوي الحديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه علَّم هذا الدعاء لمن طلب منه التوسط له في حاجة عند عثمان بن عفان رضي الله عنه في خلافته[(٢)]، وفي ذلك دليل على مشرعية التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وخطابه خطاب الحاضرين لا الغائبين، ورواية الطبراني الأخيرة تدل على أن فهم الصحابي عثمان بن حنيف هو عدم اختصاص هذا الدعاء بحياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ بل هو دعاء إلى الله وتوسل بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يختص بزمان معين .

٢- وكذلك حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: « إذا أضل أحدكم شيئا أو أراد أحدكم عونا وهو بأرض ليس بها أنيس، فليقل: يا عباد الله أغيثوني، يا عباد الله أغيثوني، فإن لله عبادا لا نراهم ".[(٣)]

بقوله :" وليس خبر العتبي مما يرد بجرة قلم". انظر: محق التقول في مسألة التوسل صـ ١٢ ط.المكتبة الأزهرية للتراث .

(١) رواه الترمذي : كتاب الدعوات – باب حديث توسل الأعمى بالنبي صلى الله عليه وسلم – الحديث رقم ٢٩٢٧ وقال الترمذي حسن صحيح غريب .وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ؛ الحديث رقم : ٨٣١١، والمعجم الصغير برقم ٥٠٨ وقال الطبراني حديث صحيح

(٣) المعجم الكبير للطبراني، الحديث رقم ٢٩٠ وقال الطبراني بعد ذلك الحديث : وقد جرب ذلك .

وفي البزار من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : «إن لله ملائكة في الأرض سوى الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الشجر، فإذا أصاب أحدكم عرجة بأرض فلاة فليناد: أعينوا عباد الله».[(١)]

وإذا جازت الاستغاثة بالغائب -الذي لا يعرف المستغيثُ عينَه ولا يتحقق سماعَه- فلأن تجوز بمن عُرِفَتْ أعيانُهم وتحققت حياتُهم وثبت في السُّنة سماعُهم من باب أَوْلَى، وليس نداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وخطابُه أقلَّ من عباد الله الذين أَمرنا أن نناديهم ونستغيث بهم في ردِّ الدابة، ومقصوده صلى الله عليه وآله وسلم هو التسبُّب، فإن الله ربط الأمور بالأسباب، وهو صلى الله عليه وآله وسلم أعظم الوسائل والأسباب.

وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة واتفق عليه عمل الأمة سلفًا وخلفًا من غير نكير :

قال الحافظ أبو عمرو بن الصلاح وهو يتكلم عن معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسلم : فإنها ليست محصورة على ما وجد منها في عصره صلى الله عليه وآله وسلم وسلم، بل لم تزل تتجدد بعده صلى الله عليه وآله وسلمعلى تعاقب العصور؛ وذلك أن كرامات الأولياء من أمته صلى الله عليه وآله وسلم وإجابات المتوسلين به في حوائجهم ومغوثاتهم عقيب توسلهم به في شدائدهم براهين له صلى الله عليه وآله وسلم قواطع، ومعجزات له سواطع، ولا يعدها عد ولا يحصرها حد، أعاذنا الله من الزيغ عن ملته، وجعلنا من المهتدين الهادين بهديه وسنته. [(٢)] اهـ

ومنذ البعثة النبوية إلى عصرنا هذا لم يحدث أن ضل أحد وادعى أنه يعبد سيدنا محمد

---

(١) مسند البزار، مسند عبد الله بن عباس ؛ الحديث ٤٩٢٢، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠ / ١٣٢ : رواه البزار ورجاله ثقات .

(٢) فتاوي ابن الصلاح صـ ٢١٠ ط.مكتبة العلوم والحكم .

صلى الله عليه وآله وسلم فجميع المسلمين متفقون على أنه عبد الله ورسوله، وذلك لأنه صلى الله عليه وآله وسلم دعا ربه قائلا: "اللّهم لا تجعل قبري وثنًا".[1] فما يحدث عند القبر النبوي الشريف من السلام على حضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن الدعاء عنده ومن التوسل به إلى ربه ليس من الشرك في شيء، بل هو من تمام المحبة والأدب مع الحضرة النبوية المصطفوية.

وكذلك نذهب إلى أولياء الله الصالحين، ونطلب منهم الدعاء لأنهم قد تخلصوا من كدر الجسد ومن عناء الدنيا، وهم الآن في البرزخ، فالروح تدعو الله، والروح باقية ليست باتفاق المسلمين بل باتفاق أهل الأديان ولها عمل، وقد أخبرنا بذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ففي صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم اطلع على أهل القليب، فقال: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟» فقيل له: تدعو أمواتا؟ فقال: «ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون"[2] فهذا الكلام عن أرواح المشركين فما بالنا بأرواح الشهداء والصالحين كروح سيدنا الحسين وسائر آل البيت وأولياء الله الصالحين.

إذن التوسل بسيدنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو بآل البيت الكرام أو أولياء الصالحين هو من الأمور المشروعة التي لا إشكال فيها .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده؛ مسند أبي هريرة – حديث رقم : ٧٣٥٢

(٢) صحيح البخاري – كتاب الجنائز – باب ما جاء في عذاب القبر ؛حديث: ١٣٨٥

ثانيا: إنكار الكرامات.

من الأمور التي يطعن فيها بعض الناس على الصوفية مسألة الكرامات حيث يقولون على الصوفية: إنهم يدعون حصول الكرامات لهم، وما هي إلا أوهام شيطانية.

وهو ما سنثبت أنه افتراء ومنكر من القول وزورا .

فالكرامة عند العلماء هي" أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة، ولا هو مقدمة لها، يظهر على يد شخص ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبيه".[1]

وأهل السنة والجماعة كلهم متفقون على وقوع الكرامات، قال صاحب جوهرة التوحيد الإمام اللقاني :

وَاثْبِتَنْ للأَوْلِيَا الكَرَامَهْ ** وَمَنْ نَفَى فَانْبِذَنْ كَلامَهْ[2]

وقد نص القرآن الكريم على وقوع الكرامات للصالحين ومن ذلك :

ما جاء في قصة السيدة مريم عليها السلام قال تعالى : ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران : ٣٧]

وفي ذلك يقول المفسرون كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء! "[3]، وهو أمر خارق للعادة في زمنهم .

وقال تعالى في قصة سيدنا سليمان مع ملكة سبأ : ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا

(١) شرح الشيخ الصاوي على جوهرة التوحيد صـ ٣٤٤ ط.دار ابن كثير

(٢) انظر متن جوهرة التوحيد ص ٥٠ ضمن سلسلة متون عقيدة أهل السنة والجماعة (١) ط.مكتبة المجلد العربي .

(٣) انظر تفسير الطبري= جامع البيان في تأويل أي القرآن للإمام الطبري ٥/٥٥٣ ط.هجر

آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل : ٤٠] فكان ذلك الذي عنده علم من الكتاب يعرف اسم الله الأعظم فلما دعا به حُمل العرش من اليمن إلى مكان سيدنا سليمان ببيت المقدس![(١)]

كما قد ورد في السنة الشريفة ما يستدل به على وقوع الكرامات للصالحين من عباده تعالى فمن ذلك :

١ – ما جاء في صحيح البخاري ومسلم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "خَرَجَ ثَلاَثَةٌ يَمْشُونَ فَأَصَابَهُمُ الْمَطَرُ ، فَدَخَلُوا فِى غَارٍ فِى جَبَلٍ ، فَانْحَطَّتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ . قَالَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ادْعُوا اللَّهَ بِأَفْضَلِ عَمَلٍ عَمِلْتُمُوهُ . فَقَالَ أَحَدُهُمُ اللَّهُمَّ ، إِنِّى كَانَ لِى أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَرْعَى ، ثُمَّ أَجِىءُ فَأَحْلُبُ ، فَأَجِىءُ بِالْحِلاَبِ فَآتِى بِهِ أَبَوَىَّ فَيَشْرَبَانِ ، ثُمَّ أَسْقِى الصِّبْيَةَ وَأَهْلِى وَامْرَأَتِى ، فَاحْتَبَسْتُ لَيْلَةً . فَجِئْتُ فَإِذَا هُمَا نَائِمَانِ – قَالَ – فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا ، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ رِجْلَىَّ ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِى وَدَأْبَهُمَا ، حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّى فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ . قَالَ فَفُرِجَ عَنْهُمْ . وَقَالَ الآخَرُ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّى كُنْتُ أُحِبُّ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِ عَمِّى كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرَّجُلُ النِّسَاءَ ، فَقَالَتْ لاَ تَنَالُ ذَلِكَ مِنْهَا حَتَّى تُعْطِيَهَا مِائَةَ دِينَارٍ . فَسَعَيْتُ فِيهَا حَتَّى جَمَعْتُهَا ، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتِ اتَّقِ اللَّهَ ، وَلاَ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ . فَقُمْتُ وَتَرَكْتُهَا ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّى فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً ، قَالَ فَفَرَجَ عَنْهُمُ الثُّلُثَيْنِ .

وَقَالَ الآخَرُ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّى اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقٍ مِنْ ذُرَةٍ فَأَعْطَيْتُهُ ، وَأَبَى ذَاكَ

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٦/ ١٩٣ ط.دار طيبة

أَنْ يَأْخُذَ ، فَعَمَدْتُ إِلَى ذَلِكَ الْفَرَقِ ، فَزَرَعْتُهُ حَتَّى اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيَهَا ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَعْطِنِى حَقِّى . فَقُلْتُ انْطَلِقْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرَاعِيهَا ، فَإِنَّهَا لَكَ . فَقَالَ أَتَسْتَهْزِئُ بِى . قَالَ فَقُلْتُ مَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ وَلَكِنَّهَا لَكَ . اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّى فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا . فَكُشِفَ عَنْهُمْ » .(1)

وفي ذلك الحديث دلالة على وقوع الكرامات في الأمم السابقة.

٢ – وقد كثرت الآثار المروية عن كرامات الصحابة رضوان الله عليهم، ومن ذلك ما رواه البيهقي في دلائل النبوة عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمر بعث جيشا وأمر عليهم رجلا يدعى سارية فبينما عمر رضي الله عنه يخطب فجعل يصيح: يا سارية الجبل، فقدم رسول من الجيش فقال: يا أمير المؤمنين لقينا عدونا فهزمونا فإذا صائح يصيح يا ساري الجبل فأسندنا ظهورنا إلى الجبل فهزمهم الله".(2)

قال الإمام البيهقي بعد أن سرد هذا الحديث : وهذا الحديث أصل في جواز كرامات الأولياء(3)!

وفي رواية عند أبي نعيم الأصفهاني أن عبد الرحمن بن عوف سأله متعجبا بعد الخطبة: أي شيء هذا؟ " قال: والله ما ملكت ذلك رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم، أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء –باب حديث الغار، حديث رقم ٣٤٦٥، ومسلم : كتاب الرقاق – باب قصة أصحاب الغار حديث رقم ١٠٠ .

(٢) دلائل النبوة للإمام البيهقي ٦/ ٣٧٠ ط.دار الكتب العلمية، وذكر الإمام ابن كثير الحديث وساقه بإسناده في البداية والنهاية (٧/ ١٣١ ط.دار الفكر) وقال معقبا عليه : وهذا إسناد جيد حسن .

(٣) الاعتقاد للإمام البيهقي ١/ ٣١٤ ط.دار الآفاق الجديدة

ومن خلفهم فلم أملك أن قلت: يا سارية الجبل. ليلحقوا بالجبل "(١)

وما حدث لسيدنا عمر رضي الله عنه هو ما يطلق عليه السادة الصوفية الكشف الذي هو محض عطاء من الله وليس للولي فيه شيء ؛ وهو يكون لبعض الأولياء اجراء للخير على أيديهم كما حدث مع سيدنا عمر رضي الله عنه؛ لكن قد تكون وبالا على صاحبها إذ لم يستعملها في الخير كما قال صاحب الحكم: "من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية؛ كان اطلاعه فتنة عليه "(٢) لذلك وجب في كل وقت التخلق بالرحمة الإلهية والالتزام بالشرع الشريف .

وفي العصور التي تلت الصحابة كذلك ثبت لكثير من الصالحين وقوع الكرامات بمشاهدة واعتراف الكثير بها، ومن ذلك ما روي عن الإمام الشاطبي صاحب الشاطبية وهو من أهل القرآن ومن أولياء الله الصالحين الكبار؛ حكى عنه الإمام شمس القراء ابن الجزري في كتابه غاية النهاية فقال: "أخبرني بعض شيوخنا الثقات عن شيوخهم أن الشاطبي كان يصلي الصبح بغلس بالفاضلية، ثم يجلس للإقراء، فكان الناس يتسابقون السير إليه ليلًا، وكان إذا قعد لا يزيد على قوله: من جاء أولًا فليقرأ ثم يأخذ على الأسبق فالأسبق، فاتفق في بعض الأيام أن بعض أصحابه سبق أولًا، فلما استوى الشيخ قاعدًا قال: من جاء ثانيًا فليقرأ فشرع الثاني في القراءة وبقي الأول لا يدري حاله، وأخذ يتفكر فيما وقع منه بعد مفارقة

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصفهاني ١/ ٥٨٠، وقد زعم الألباني في " السلسلة الصحيحة (٣/ ١٠١ ط. مكتبة المعارف الرياض) أن كل الروايات ليس فيها تصريح بالكشف لسيدنا عمر وقال : فاستدلال بعض المتصوفة بذلك على ما يزعمونه من الكشف للأولياء وعلى إمكان اطلاعهم على ما في القلوب من أبطل الباطل ". ولذلك أتينا برواية أبي نعيم الأصبهاني لبيان بطلان زعمه.

(٢) انظر إيقاظ الهمم بشرح الحكم لابن عجيبة ص٣٥٨ ما بعدها ط.دار المعارف

الشيخ من ذنب أوجب حرمان الشيخ له! ففطن أنه أجنب تلك الليلة ولشدة حرصه على النوبة نسي ذلك، ولما انتبه فبادر إلى الشيخ، فأطلع الشيخ على ذلك، فأشار للثاني بالقراءة، ثم إن ذلك الرجل بادر إلى حمام جوار المدرسة فاغتسل به ثم رجع قبل فراغ الثاني، والشيخ قاعد أعمى على حاله، فلما فرغ الثاني قال الشيخ: من جاء أولًا فليقرأ. فقرأ! "فهذه كرامة عجيبة تدل على حفظ الله لكتابه بواسطة أوليائه؛ فماذا رأى الشيخ وكيف علم؟ لا نعلم، ولكنها كرامة من عند الله، قد لا يعلم الشيخ بها أصلا.

وكذلك رأينا من شيوخنا الشيخ أحمد حمادة، وهذا الشيخ لم يتزوج وتوفى عنده اثنين وتسعين سنة، وكان يسكن وراء السيدة سكينة بنت سيدنا الحسين، وكان يسكن في شقة أعطاها له صاحب العقار؛ لأنه اعتقد فيه الولاية ووجده رجلا صالحا ووليا وتركه في هذه الشقة حتى توفى، ولم يستهلك الشيخ أحمد حمادة شيئا بالشقة إلا غرفة واحدة يستقبل بها الناس ويصلي الضحى اثنا عشر ركعة ويصلي قيام الليل إحدى عشر ركعة، وفي مرة واحدة ترك الشيخ قيام الليل! وكان الرجل صاحب العقار يشعر بالشيخ أحمد حمادة وهو يتوضأ في الليل، وفي هذا اليوم لم يشعر به وهو يتوضأ كالعادة، فنزل ليراه فوجده قد مات، فاليوم الذي توفي به هو اليوم الوحيد الذي لم يصلِ به الليل، وذلك لموته!

وقد كان الشيخ أحمد حمادة يحفظ القرآن بالقراءات العشر، وكان يجلس في صحن الأزهر وفي مسجد سيدنا الحسين يعلم الناس القراءات العشر، وكان يقرأ المجموع للإمام النووي؛ لأنه كان شافعي المذهب، وكان عالما من علماء الأزهر ولا يسمع به أحد.

وقد رأيت الشيخ في شبابي وتعجبت من أمر عجيب كان يحدث معه، أنه كان مثلا إذا صلى الظهر قام وأتم ركوعه وسجوده وكأنه في تمام صحته؛ فإذا انقضت الصلاة ينادي فيقول: احملوني احملوني، فنأتي لنحمله وكان خفيف الوزن، فكان يصلي الفريضة كما يجب،

وعندما يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، يعود فيقول: احملوني احملوني وكأن البطارية فارغة! ففي الفرض يقوم وفي السنة يصلي وهو جالس، ويصلي الضحى وقيام الليل قياما مثل الفرض.

وشاهدت أيضا له ما يأتي: هذا الرجل لاعلاقة له بالدنيا، فكان يجلس لذكر الله فقط، وهذا النوع من الصالحين لا بد أن يكون في الأمة حتى يدعو فيستجيب الله له، فيزداد إيمان الناس واعتقادهم بالله، فوجدته يجلس وأنا خلفه، وأمامه طابور من الناس يدخلون عليه واحدا واحدا وكل منهم يقول له ماذا يريد، ويطلب منه الدعاء أن ييسر الله له مسألته، فيدعو له ويقول له: "بالتوفيق إن شاء الله"، فتعجبت له فهو لا يأخذ أموالا ولا أي شيء، فعرفت عشرة من هؤلاء الناس وكتبت أسماءهم حتى أراهم، وذهبت فقابلت أحدهم وسألته ماذا فعل في مسألته التي سأل الشيخ إياها، فيقول لي: إن الله قد وفقه وقُضيت له حاجته. وهكذا هو وجميع العشرة! وقد رأيت هذا بعيني، فكل من طلب منه الدعاء فقد استجاب الله لدعوته، أليست هذه كرامة؟ بلى؛ فليس هذا شي معتاد، ولكن هذا الرجل كان هكذا دائما.

وقد يرد سؤال مهم: هل الكرامة تعد مقياسًا للحق؟

والإجابة لا؛ فالكرامة ليست مقياسًا للحق، وذلك يعني أنني لو رأيت رجلا يمشي على الماء ويطير في الهواء فإني أعرض أمره على الكتاب والسنة، فإن وافقه فذاك وتكون كرامة من عند الله، وهي لا تعني أنه أفضل ولا تعني أي شيء إلا أنه في بداية الطريق، ويريد الله أن يثبت فؤاده، وإن كان حاله مخالفا للشرع الشريف فهو شيطان؛ لأن الشيطان أيضا يستطيع أن يجعل أحدا يمشي على الماء ويطير في الهواء.

فالعبرة عند السادة الصوفية بما وافق الشرع الشريف، والكرامة فضل من الله وليست

مكانة تثبت الأفضلية، ولله أن يختص بها من شاء من عباده.

ثالثا : لماذا تتعدد الطرق الصوفية ؟

يسأل كثير من الناس عن سبب تعدد الطرق الصوفية، وهل هذا التعدد من التفرق المذموم؟

فبعض الناس يجعل ذلك التعدد مطعنا في التصوف ونقصا فيه!

وللجواب عن هذا نقول: تختلف مشارب الناس وتتنوع رغباتهم، وفقا لميولهم يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف" (١)

وكان هذا التفاوت في المشارب من سمات عصر النبوة، فقد اختلف الصحابة رضوان الله عليهم في طباعهم ومشاربهم، فكان سيدنا أبو بكر الصديق رجلا رقيقا أسيفا لا يكاد يسمعُ صوتُ قراءَتِهِ من صوت بكائه، فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أنها قالت: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ فِى مَرَضِهِ: « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّى بِالنَّاسِ » . قَالَتْ عَائِشَةُ قُلْتُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِى مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ . فَقَالَتْ عَائِشَةُ فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ قُولِى لَهُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِى مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ . فَفَعَلَتْ حَفْصَةُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم– : « مَهْ، إِنَّكُنَّ لأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ» . فَقَالَتْ حَفْصَةُ لِعَائِشَةَ: مَا كُنْتُ لأُصِيبَ مِنْكِ خَيْرًا . (٢)

وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه شديد الطبع، جهور الصوت إذا تكلم

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق – باب الأرواح جنود مجندة، حديث رقم : ٣٣٣٦ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة – باب إذا بكى الإمام في الصلاة، حديث رقم : ٧١٦.

اسمع، وإذا ضرب أوجع يهابه النساء ويخشاه الرجال.

فعن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: اسْتَأْذَنَ عُمَرُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – ، وَعِنْدَهُ نِسَاءٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُكَلِّمْنَهُ وَيَسْتَكْثِرْنَهُ ، عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ ، قُمْنَ يَبْتَدِرْنَ الْحِجَابَ ، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – ، وَرَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – يَضْحَكُ ، فَقَالَ عُمَرُ أَضْحَكَ اللَّهُ سِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ « عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلاَءِ اللاَّتِى كُنَّ عِنْدِى ، فَلَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الْحِجَابَ » . قَالَ عُمَرُ فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ يَهَبْنَ . ثُمَّ قَالَ أَىْ عَدُوَّاتِ أَنْفُسِهِنَّ ، أَتَهَبْنَنِى وَلاَ تَهَبْنَ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – قُلْنَ نَعَمْ ، أَنْتَ أَفَظُّ وَأَغْلَظُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلاَّ سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ. "(١)

ورأت الشفاء بنت عبد الله فتيانا يقصدون في المشي ويتكلمون رويدًا فقالت: "ما هذا؟" قالوا: نُسَّاك، فقالت: "كان والله عمر إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو والله نَاسك حَقًّا". (٢)

كما كان من الصحابة رضي الله عنهم من كان صاحب مشرب جاد لا يميل طبعه إلى الضحك والفكاهة، دائما ما يُرَى رزينا جادًا، ومن هؤلاء سيدنا شماس بن قيس، ومما يروى عنه أنه جاء في يوم وقال: ائتونا السفرة نلعب بها. فتعجب من حوله وقالوا: ماذا تقول!! فسرعان ما رجع في قوله وقال لهم: انسوا هذا وكأنني لم أقله.

وكان منهم من يتميز بحب الضحك والمزاح كسيدنا نعيمان بن عمرو رضي الله عنه،

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب المناقب – باب مناقب عمر رضي الله عنه ؛ الحديث رقم : ٣٦٨٣

(٢) تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (٤/ ٢١٢)

وكان من السمات المميزة لهذا الصحابي الجليل كثرة المزاح، وحب الضحك، وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا نظر إلى نعيمان لا يتمالك نفسه أن يضحك حتى قال فيه: "يدخل الجنة وهو يضحك".

وقد تناقلت كتب السير والتراجم لنعيمان العديد من المواقف المضحكة ومنها: ما روي عن أم سلمة رضي الله عنه "إن أبا بكر خرج إلى الشام، ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة، وكلاهما بدري، وَكَانَ سويبط عَلَى الزاد، فجاءه نعيمان فقال: أطعمني. فقال: لا، حَتَّى يجيء أَبُو بكر. وَكَانَ نعيمان رجلا مضحاكا، فقال: لأغيظنك. فجاء إلى ناس جلبوا ظهرا، فقال: ابتاعوا مني غلاما عربيا فارها، وهو ذو لسان، ولعله يقول: أنا حر، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه، لا تفسدوا عَلَيَّ غلامي، فقالوا: بَلْ نبتاعه منك بعشر قلائص، فأقبل بِهَا يسوقها، وأقبل القوم حَتَّى عقلها، ثُمَّ قَالَ: دونكم، هُوَ هَذَا. فجاء القوم فقالوا: قد اشتريناك، فقال سويبط: هو كاذب، أنا رجل حر، فقالوا: قد أخبرنا خبرك، فطرحوا الحبل فِي رقبته، وذهبوا بِهِ.

وجاء أَبُو بكر فأخبر، فذهب هُوَ وأصحاب لَهُ، فردوا القلائص وأخذوه، فلما عادوا إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبروه الخبر، فضحك النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه منها حولا".

ومن مواقفة ما رواه ربيعة بن عثمان، قَالَ: أتى أعرابي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدخل المسجد وأناخ ناقته بفنائه، فقال بعض أصحاب النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنعيمان: لو نحرتها فأكلناها، فإنا قد قرمنا إلى اللحم، ويغرم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمنها؟ قَالَ: فنحرها نعيمان، ثُمَّ خرج الأعرابي فرأى راحلته، فصاح: واعقراه يا مُحَمَّد، فخرج النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: "من فعل هَذَا؟" فقالوا: نعيمان.

فاتبعه يسأل عَنْهُ، فوجدوه فِي دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب مستخفيا، فأشار إليه رجل ورفع صوته يقول: ما رأيته يا رسول الله. وأشار بإصبعه حَيْثُ هُوَ، فأخرجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال لَهُ: " ما حملك عَلَى هَذَا؟ " قَالَ: الَّذِينَ دلوك عَلَيَّ يا رسول الله، هم الَّذِينَ أمروني، فجعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمسح وجهه ويضحك، وغرم ثمنها. (١)

ومن مواقفه التي كانت تضحك النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يذهب للبقال ويقول له: أنا أريد جبن وكذا وكذا وعدة مشتريات لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيعتقد البقال أنه يأخذ هذا لرسول الله، ويذهب ويقول: يا رسول الله هذا لك ولأصحابك، فيأكل النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه، ويعتقد أنها هدية، ثم يأتي البقال ويطلب منه ثمن المشتريات، ونعيمان خلف سارية من سواري المسجد يضحك، فينظر له النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويعطي للرجل حقه وينصرف.

وقد كان سيدنا نعيمان ضحوكا ويحب أن يضحك النبي كثيرا إلا أنه كان مبتلى بشرب الخمر فلا يستطيع أن يترك الخمر، وكان يحب النبي حبًا شديدًا، فكان ينسي ويشرب الخمر ويذهب يبكي لرسول الله: أقم على الحد وطهرني. فكان النبي يقول لهم: اضربوه. فيضربوه بجريدة أربعين ضربة حتى يقيم الحد لشرب الخمر، وبعد شهر أو أربعين يوما يفعل هذا مرة أخرى. حتى قال رجل من القوم: اللّهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي صلي الله عليه وآله وسلم: "لا تلعنوه، فو الله ما علمتُ إلا أنه يحب الله ورسوله".

ونحن لا نرضى بمعصية نعميان، بالطبع لا؛ لأن الخمر حرام وشربها إثم واستوجب

---

١ – أسد الغابة ٥/٣٣١، (ط. دار الكتب العلمية).

الحد، لكنه يحب الله ورسوله، ولا يجيز لك هذا الحب أن تعصي الله ورسوله، أو يعفى عن حدود الله تطبق عليك، ولكن يوجب عليك الحب أن تلزم مجاهدة نفسك وصدها عن الشهوات والمعاصي، وأنت في سعة من أمرك وفي رحمة الله طالما تبت وأنبت واستغفرت والتزمت ذلك، ولقد سقنا هذا الحديث ليعلم الخلق أن مشارب الناس وقدراتهم مختلفة، منهم الصارم مع نفسه قادر عليها مالك لها بقوة العقل والروح، ومنهم من يضعف أحيانا.

يقول الإمام ابن الجوزي في ذلك: "أولياء الله لا يحبون ولا يبغضون إلا في الله، ولا يشتاقون ولا يحبون إلا لله، ولا يتوكلون ولا يعتمدون إلا على الله، وإذا صفا مشرب معاملة الله لم ينالوا كدر المشارب، وإذا أينع لهم مذهب السلوك إلى الله لم يهتموا لضيق المذاهب".[1]

والتصوف ليس بعيدا عن ذلك حيث يراعي اختلاف أحوال البشر ومشاربهم؛ فلكل طريق مشرب ومذاق ومنهج مع وحدة الغاية والهدف.

يقول شيخنا الإمام الرائد محمد زكي الدين إبراهيم[2] رضي الله عنه: "التعدد والاختلاف بين الطرق الصوفية ليس هو في الحقيقة والهدف، وإنما الاختلاف هو في الوسيلة، والأساليب، والمناهج، فالطرق الشرعية على تعددها سبل تعددت إلى الله؛ لتلائم

---

١ – ابن الجوزي في "التذكرة في الوعظ" (ص: ٩٩)

(٢) هو الإمام الرائد السيد أبو البركات زكي الدين محمد بن السيد إبراهيم الخليل بن علي الشاذلي رضي الله عنه وهو من كبار أولياء الله ومن أئمة لتصوف في القرن العشرين وهو شيخ الطريقة المحمدية الشاذلية ومؤسس العشيرة المحمدية ؛ درس في الأزهر الشريف وأخذ الطريق عن أبيه الشيخ إبراهيم الخليل وجلس للإرشاد وصنف المصنفات في بيان معالم طريق الصوفية الصحيح، ونال في سبيل الله الإيذاء من قبل أعداء التصوف وادعيائه حتى لقي الله تعالى راضيا مرضيا يوم الأربعاء ١٦ جمادى الاخر ١٤١٩ هـ، انظر :رسالة ترجمة موجزة وتعريف بالإمام الرائد كتبها محي الدين حسين الإسنوي ط.العشيرة المحمدية

حاجات كل سالك إليه، فيجد فيها كل مريد ما يناسب طاقته ووقته، ومزاجه وبيئته، قطعًا لأعذار القاعدين عن الهجرة إلى الله -عز وجل-، فتأمل بإمعان قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩] إذن فهناك سبل شتى توصل إليه تعالى كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة:١٦].

وهذه السبل القويمة تمضي متوازية متحاذية في اتجاه واحد فكأنها طريق واحد، ولذلك جاءت في أكثر من آية بلفظ المفرد نحو: (سبيلي، أو سبيله، أو سبيل ربك) لاتحاد البداية والنهاية، فهي مجتمعة صراط الله المستقيم الواحد، أي أقرب مسافة بين العبد وربه.

وذلك أن الطرق الشرعية جميعًا تبدأ من (التوبة) وتنتهي بـ(المعرفة) فإذا فرضنا (دائرة ذات مركز) كانت كل الطرق الشرعية خطوطًا داخلية تصل ما بين محيط الدائرة ونقطة المركز، وكيفما كان اتجاه نقطة البداية فلا خلاف في النهاية ولا في الأصول العامة، ولكن في فروع كيفية الوصول؛ أي في المناهج وأساليب التربية....

ثم قال رضي الله عنه :

"وبهذا يندفع اعتراض الباحثين عن المشكلات، المفرقين بين الجماعات، والمحتجين بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣]. فالمنهي عنه طرق الشيطان والكفران التي تتقطع وتتعارض مع سبل الرحمن، وأما سبل الرحمن فالله ذكرها كما قدمنا متعددة، ووعد المجاهدين فيه بهدايتهم إليه قال تعالى: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت:٦٩]. واعتز بها الأنبياء فقالوا: ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم:١٢] وكلها شرائح يتكون منها (سبيله) تعالى، فهي وإن تعددت سبيل واحد لاتحاد البداية والنهاية، والنية والهدف.

إن الحق واحد لا يتعدد، ولكن السبل تتعدد في إدراكه، أو الوصول إليه. فلو تصورنا

مصباحًا معلقًا، فقد تصورنا أن النظر إليه وإدراك وجوده ممكن من الجهات الست وما بينها، وهكذا تعددت سبل رؤية المصباح، وهو واحد مستقر في مكانه غير مكرر، وفي ذهابك إلى الكعبة المكرمة مثلًا تستطيع الوصول بالطائرة أو الباخرة أو السيارة أو ركوب الدواب أو المشي على الأقدام، وكلها سبل توصل إلى الحقيقة الواحدة التي هي الكعبة المكرمة وهي لا تتعدد"(١)

ولذلك فمما حفظناه من شيوخنا في هذا الشأن قولهم " إن الله مقصود الكل " فلا يعترض أحد في الطريق على أخيه الذي يسلك طريقة أخرى لأنهما مقصودهما واحد .

وعلى ذلك فمن يسير في طريق الله لا ينظر إلى الخلاف بل ينظر إلى أوجه الا تفاق يتقبل الاخر ويعلم أن الحق واحد لكن له وجهات عديدة مثل الكعبة هي واحدة لكن لها عدة اتجهات ولأي اتجاه منها توجهت فقد أصبتها وأصبت القبلة وصلاتك صحيحة، فاختلاف المشارب سعة ورحمة يحرر الإنسان من الضيق وجمود.

---

(١) أصول الوصول لفضيلة الإمام الرائد الشيخ محمد زكي إبراهيم ص ١١٨ الطبعة الرابعة، سلسلة منشورات ورسائل العشيرة المحمدية

رابعا : لماذا يرتبط التصوف بحب آل البيت؟

ارتبط التصوف بحب آل البيت وإقامة الموالد وحلقات الذكر، مما ساعد على جذب المريدين إلى محبة المساجد والمقامات، وهو الأمر الذي أسهم في بلورة الإسلام الوسطي وتشكيل الهوية الدينية، وهذه المحبة لا تتميز بها الطرق الصوفية فقط، بل إن المسلمين جميعا على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم العقائدية والفكرية يشتركون في محبة آل البيت رضي الله عنهم .

لكن هذه المحبة لآل البيت والأدب معهم وزيارتهم؛ صارت عند التيارات المتشددة سببا في الطعن على الصوفية، مما استوجب أن نوضح دليل وجوب المحبة، وبيان التفرقة بين مذهب الصوفية ومذهب الشيعة في تعظيم آل البيت وتوقيرهم.

دليل وجوب المحبة لآل البيت عليهم السلام :

محبة آل البيت أمر فطري عند المسلمين، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم أوصانا بحب آل بيته رضي الله عنهم آجمعين، قال تعالى: ﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣].

فعن مجَاهد، في تفسيره لقوْله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ يَقُولُ: "أن تتبعوني، وتصدقوني وتصلوا رحمي ".(١)

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض. وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا

(١) تفسير الطبري ٢٠ / ٤٩٧

كيف تخلفوني فيهما»(١)

ويعد هذا الحديث من معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لإخباره ببقاء نسله وامتداده، وهو الذي توفى جميع أبنائه في حياته إلا السيدة فاطمة رضي الله عنها، وقد أخبرها بأنها أول أهله لحوقًا به، وتوفيت بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم بستة أشهر.

قال الإمام النووي في أولاده صلى الله عليه وآله وسلم :"وأول من ولد له القاسم، ثم زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، وجاء أن فاطمة، عليها السلام، أسن من أم كلثوم، ذكر ذلك على بن أحمد بن سعيد بن محرم أبو محمد الحافظ. ثم فى الإسلام عبد الله بمكة، ثم إبراهيم بالمدينة، وكلهم من خديجة، إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية، وكلهم توفوا قبله إلا فاطمة، فإنها عاشت بعده ستة أشهر على الأصح والأشهر ".(٢)

وجميع نسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم الممتد إلى يوم القيامة من فاطمة ابنته عليها السلام، ومن ذرية ابنيها الحسن والحسين عليهما السلام.

ولو كان حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قبل نفسه، لم يكن يوصي بأهل بيته، ويشير إلى استمرار نسله الشريف؛ لأن حديث العقل لرجل توفى جميع أبنائه حال حياته إلا واحدة، يشير إلى احتمال انقطاع نسله، فبقاء نسله إلى هذا اليوم دليل على إعجاز قوله، وأنه ما ينطق عن الهوى، وذلك كما هو في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فالتأكيد بأن الكتاب محفوظ، وأنه لن يمسه تحريف أو تبديل، وقد حرفت جميع الكتب السابقة؛ دليل إعجاز، وبأن المتعهد بحفظ الكتاب هو الله عز وجل كما أن المتعهد

---

(١) سنن الترمذي :كتاب المناقب – باب مناقب أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقال : حسن غريب، حديث رقم ٤١٥٧ .ويشهد له كذلك حديث مسلم وسيأتي في آخر المبحث .

(٢)تهذيب الأسماء واللغات للإمام النووي ١ / ٢٦ ط.دار الكتب العلمية

بحفظ نسل النبي صلى الله عليه وسلم هو الله تعالى.

فنرى طفلا أعجميا يحفظ القرآن وهو لا يعرف أي كلمة من القرآن، ولا من اللغة العربية، فإذا ترجمت معاني القرآن إلى لغة أجنبية لايستطيع المترجم أن يحفظ ما ترجم، وهو يحفظ القرآن الكريم بلغته العربية وهو غير عربي.

شيء غريب وعجيب فلم يحفظ أحدٌ في العالم كتابا بهذه الدقة والإتقان حتى الكتب المقدسة، إلا القرآن الكريم، فنجد ملايين الناس تحفظه! هذا فعل الله سبحانه وتعالى الذي تعهد بحفظه.

وكذلك الحال في عترة أهل البيت الكرام فإبقاؤهم معجزة، وعدد أهل البيت الآن يفوق ثلاثين مليونًا أو أربعين مليونا، وذلك تصديقٌ لما أخبر به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١].

فذكر المفسرون ومنهم الإمام الفخر الرازي أن أحد وجوه التفسير في قوله تعالى "الكوثر" أن المراد منه أهل البيت؛ يقول الفخر الرازي : " الكوثر: أولاده (صلى الله عليه وآله وسلم) قالوا: لأن هذه السورة إنما نزلت ردا على من عابه عليه السلام بعدم الأولاد، فالمعنى أنه يعطيه نسلا يبقون على مر الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت، ثم العالم ممتلئ منهم، ولم يبق من بني أمية في الدنيا أحد يعبأ به، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام ".(١)

وقد تخلق السادة الصوفية بخلق التأدب مع آل البيت عليهم السلام ؛ فيحرصون على توقيرهم في حياتهم وعلى إحياء زيارتهم بعد انتقالهم، وينشرون ذلك بين الناس امتثالا لهدي

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٣٢ / ٣١٣

النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حثه على أهل البيت والتذكير بحقهم وفضلهم؛ فجاء في صحيح مسلم قوله صلى الله عليه وآله وسلم: " أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي "(١)

وقد شرف الله مصر بأن دفن فيها أكثر من أربعين من أهل البيت الكرام، كالإمام الحسين وسيدتنا زينب بنت الإمام علي والسيدة نفيسة بنت سيدنا حسن الأنور وسيدنا زيد بن علي زين العابدين وغيرهم رضي الله عنهم.(٢)

وكان الإمام الشعراني يقول: "ومما منَّ الله تبارك وتعالى به عليّ: زيارتي كل قليل لأهل البيت الذين دفنوا في مصر كلهم، أو رؤوسهم فقط، فأزورهم في السنة ثلاث مرات، بقصد صلة رحم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم " (٣)

فالطرق الصوفية ترى أن حب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ركن من أركان الإيمان لا يكمل بدونه الإيمان، ويرون أن آل بيته الكرام هم الرياحين الباقية من أثره صلى الله عليه وآله وسلم، لذا فنجدهم معلقين بمقامات آل البيت ويداومون زيارتهم والتبرك بهم.

وأهل البيت وجدوا وانتشروا في العالم فانتشروا في مصر حيث سكنوها ودفنوا بها، وفي المغرب حيث ينحصر الحكم فيها في سلالة آل البيت الكرام، ولذلك يحرص الجميع هناك على تقبيل يد الملك؛ لأنه من آل البيت، فالملكية هناك متعلقة بأهل البيت وهي جزء لا يتجزء

---

(١) صحيح مسلم :كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم – باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الحديث رقم : ٦٣٧٨.

(٢) انظر كتاب مراقد آل البيت في القاهرة للشيخ محمد زكي إبراهيم ط.العشيرة المحمدية

(٣) لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق للعارف عبد الوهاب الشعراني صـ٤٧٧ ط.دار التقوى –دمشق

من هوية المغاربة، حتى صارت الدعوات إلى تحويلها لجمهورية دعوات لا يسمع لها، ولا يرد عليها، لأنها خارج الكينونة لديهم.

وحب المغاربة لآل البيت ليس مقصورا على الطرق الصوفية، بل جميع الشعب لا ينادون من كان اسمه محمدا إلا بقولهم سيدي محمد، فلا يستطيع أحد منهم أن يتعامل مع اسم محمد كبقية الأسماء، فلا يقولون أبدا: تعال يا واد يا محمد. أو مثل هذا.

وهذا الحب يختلف في إبرازه من بلد إلى بلد إلى بلد حسب طبيعتهم وحالهم، ففي جواره الشريف في بلاد الحرمين الشريفين يتعلقون به نفسه صلى الله عليه وآله وسلم بشرف المجاورة، وفي مصر يتعلقون بحب آل بيته الذين شرفوا مصر بوجودهم فيها؛ لأنهم البقية الباقية منه صلى الله عليه وآله وسلم، وهكذا في كل بلد وقطر .

وصحيح أن الكل يحب سيدنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويتعلق به، لكن الذي يميز الحب الصوفي هو الحب القلبي وليس العقلي، هو الحب الذي لا يبرر بسبب، ولا يهدف إلى غاية وهدف، فالصوفية انجذبت قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وآل بيته؛ حبًا خالصًا.

وقد مر أن جميع الطرق الصوفية تنتهي إلى آل البيت وإلى سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما فصلنا في الكلام عن إسناد التصوف؛ إذن محبة آل البيت هي معلم من معالم التصوف، باعتبارين أنهم بضعة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وأثر باق من آثاره المباركة، وقد حثنا عليهم جدهم صلى الله عليه وآله وسلم، والاعتبار الثاني أن من تلقينا عنهم التصوف وأصول مرتبة الإحسان كان جلهم من آل البيت المنسوبين إلى الدوحة النبوية المطهرة ؛ فهم أصل التصوف وأساسه المبارك، نفعنا الله بمحبتهم في الدارين.

هل للصوفية صلة بالتشيع ؟

من الأمور التي تتفرع عن الكلام في محبة آل البيت عليهم السلام ما يردده خصوم التصوف من وجود صلة بين الشيعة والصوفية، وهي شبهة لا حقيقة لها في الواقع ؛ فهم يبنون هذا الادعاء لمجرد أن الصوفية يحبون آل البيت ويعظمون شأنهم ويكثرون من الاحتفال بهم ويحيون موالدهم المباركة كما مر الكلام عنه، ولكن في الحقيقة أن التعلق بأهل البيت ليس مقصورا على طائفة من المسلمين دون طائفة، ولا على مرتبة دون مرتبة، فكل المسلمين يحبون أهل البيت ولم نرَ مسلما يعادي أهل البيت إلا النواصب الذين ناصبوا أهل البيت العداء، وهؤلاء كانوا على حالة الذم من كل العلماء من أهل السنة والجماعة.

وعندما تكلم علماء أهل السنة في شأن يزيد بن معاوية؛ قالوا كما روي عن الإمام أحمد وغيره: "العن يزيد ولا تزيد". فلا تلعن معاوية، العن ابنه؛ لأنه مكث ثلاثة سنين في الحكم، سنة ضرب فيها الكعبة الشريفة، وسنة استحل فيها المدينة، وسنة قتل فيها سيدنا الحسين عليه السلام. (١)

---

(١) نقل الإمام ابن الجوزي بسنده عن الإمام أحمد جواز لعن يزيد بن معاوية كما في كتابه الرد على المتعصب العنيد المانع من لعن يزيد صـ ٣٤ ط.دار الكتب العلمية، وفي شرح النسفية للإمام التفتازاني ما نصه : وبالجملة لم ينقل عن السلف المجتهدين والعلماء الصالحين جواز اللعن على معاوية وأعوانه، لأنَّ غاية أمرهم البغي والخروج عن طاعة الإمام الحق، وهو لا يوجب اللعن، وإنما اختلفوا في يزيد بن معاوية، حتى ذكر في الخلاصة وغيرها: أنه لا ينبغي اللعن عليه ولا على الحجَّاج، لأن النبي عليه السلام نهى عن لعن المصلين، ومن كان من أهل القبلة، وما نقل من لعن النبي عليه السلام لبعض من أهل القبلة فلما أنه يعلم من أحوال الناس ما لا يعمله غيره.

وبعضهم أطلق اللعن عليه بقتل الحسين رضي الله عنه، واتفقوا على جواز اللعن على من قتله أو أمر به أو أجازه أو رضي به، والحقُّ أن رضى يزيد بقتل الحسين واستبشاره بذلك وإهانة أهل بيت النبي عليه السلام مما

ونعود إلى السؤال مرة أخرى : هل للصوفية صلة بالتشيع؟

وهنا نرى أن الشيعة لا يوجد عندهم طرق صوفية، فلو ذهبنا إلى العراق وجلسنا مع الشيعة الجعفرية أو الزيدية في اليمن، لا نجد عندهم ما يسمى بالطرق الصوفية، لا التي ينتمي إليها أهل السنة مثل الرفاعية والشاذلية والنقشبدنية والأحمدية ولا غيرهم، فليس هناك شخص شيعي نقول له ما طريقتك فيقول أنه شاذلي! لا يوجد مثل هذا.

فهذا أبسط رد حتى نعلم الحقيقة، فلو كانت هناك صلة كما توهم بعض الدارسين بين التصوف والتشيع لتشابه بينهما في بعض النقاط المشتركة، لكانت الشيعة سمحت بالتصوف ولم يروا به بأسا.

وأول من نشر هذا الادِّعاء شخص شيعي اسمه كامل مصطفى الشيبي، ألف كتابا اسمه الصلة بين التشيع والتصوف، وهو كتاب ألف بالطريقة الغربية العلمانية وهي طريقة المقارنات، مثل أن الصوفية تحب آل البيت وكذلك الشيعة، وأن الصوفية تقول بأن هناك أسرارًا وكذلك الشيعة، وذلك كلام غير علمي ومضحك للغاية، ويشبهه قوله فيه بأن التصوف شيعيا كمن يقول إن الاسلام يدعوا إلى التثليث، ويستدل بقوله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١] ! وهذا كلام ظاهر البطلان، فالإسلام دين التوحيد بلا ريب.

إذن فمحض المشابهة لا تستلزم إطلاقا اتحاد المنهج ولا اتحاد الفكر ولا اتحاد المشرب ولا الهدف ولا أي شيء من هذا القبيل، وهذا أبين من البينات وأوضح من الواضحات؛ إذ مجرد التشابه في بعض المصطلحات لا يعني الاتحاد في حقائق هذه المصطلحات.

تواتر معناه، وإن كانت تفاصيله آحادًا، فنحن لا نتوقف في شأنه بل في إيمانه، لعنة الله عليه وأنصاره وأعوانه". شرح النسفية للتفتازاني صـ١٤٧ ط.المكتبة الأزهرية

إثبات مفارقة الشيعة لطريق الصوفية:

ومن الشيعة من يطعن في الصوفية ويذمهم كما يفعل مدعو السلفية، أو أشد، وقد أوردوا الروايات والأخبار الموضوعة على الأئمة من آل البيت عليهم السلام طعنا في الصوفية ونهيا عن مصاحبتهم وتحذيرا من مجالستهم !

ومن الوثائق الشيعية ما جاء في كتاب مستدرك الوسائل للنوري الطبرسي بسنده عن الإمام الرضا عليه السلام قال: " من ذكر عنده الصوفية ولم ينكرهم بلسانه وقلبه، فليس منّا، ومن أنكرهم فكأنّما جاهد الكفار بين يدي رسول الله صلّى الله عليه وآله! "[١].

إذن الشيعة لا يقبلون مناهج التصوف السني؛ وكتبهم تنص على ذم التصوف كما هو عند المتطرفين من المنتسبين للتيارات السلفية تماما.

تبرؤ الصوفية من عقائد الشيعة :

وفي الجهة المقابلة نرى تبرؤ أئمة التصوف من عقائد الشيعة، وتصريحهم باتباع عقيدة أهل السنة والجماعة، وتنزيه الصحابة الكرام رضي الله عنهم عما نسبه لهم الشيعة من انتقاص لمقامهم .

---

(١) مستدرك الوسائل للمحدث النوري الطبرسي ١٢ / ٣٣٢، الناشرمؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.قم،

ومثل هذه الروايات الموضوعة على آل البيت يراد منها الطعن في التصوف لأن منشأه وأصوله هي أصول أهل السنة والجماعة، بل قد صنف أحد علماء الشيعة كتابا في إيراد كل ما يذم التصوف ويتهمه بكل ضلال وإفك مبين وهو كتاب الرسالة الاثنى عشرية في الرد على الصوفية ومؤلفها هو محمد بن الحسن الحر العاملي (ت:١١٠٣ هـ) ط.المطبعة العلمية: قم، فليس هناك قبول في الأوساط الشيعية للطرق الصوفية ؛فدعوى الاتصال بينهما دعوى لا أساس لها من الصحة .

ومن ذلك ما ذكره الإمام عبد الوهاب الشعراني رحمه الله وهو معدود من كبار الصوفية في زمانه وذلك في كتاب له اسمه "اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر" يقول فيه : "المبحث الثالث والأربعون في بيان أن أفضل الأولياء المحمديين بعد الأنبياء والمرسلين أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين ..." (١) فبمثل ذلك الوضوح يصرح الشعراني بفضل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قطعا للسبيل على كل محاولة لاتهام الصوفية بالتشيع .

وكذلك نجد عند الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي الذي يعد أحد أعلام التصوف(٢)؛

(١) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر للشعراني ٢ /٧٢ ط.دار البيان العربي

(٢) هو أبو بكر محيي الدّين محمد بن علي الحاتمي الطّائي الأندلسي، العارف الكبير، ابن عربي ولد بالأندلس ونشأ وتعلم بها ثم رحل إلى الشرق وأخذ عن العلماء ومن الله عليه بسلوك طريق الزهد والمعرفة والإقبال على الله ؛ ففتح الله عليه من العلوم ولانت له المعارف حتى قيل فيه هو أعرف بكل فنّ من أهله، وإذا أطلق الشيخ الأكبر في عرف القوم فهو المراد، له مصنفات عديدة من أشهرها الفتوحات المكية والوصايا وفصوص الحكم ؛ لكن مصنفاته تحتاج إلى خبرة بمصطلحاته وطريقته في المعرفة ؛ حتى لا يساء الظن بصاحبها الذي كان من كبار الأولياء؛ يقول الشيخ ابن حجر الهيثمي عنه [الفتاوي الحديثية ١/ ٢١٠] : " الذي أثرناه عن أكابر مشايخنا العلماء الحكماء الذي يستسقى بهم الغيث وعليهم المعول وإليهم المرجع في تحرير الأحكام وبيان الأحوال والمعارف والمقامات والإشارات أن الشيخ محيي الدين بن عربي من أولياء الله تعالى العارفين ومن العلماء العاملين وقد اتفقوا على أنه كان أعلم أهل زمانه بحيث أنه كان في كل فن متبوعا لا تابعا وأنه في التحقيق والكشف والكلام على الفرق والجمع بحر لا يجارى وإمام لا يغالط ولا يمارى وأنه أورع أهل زمانه وألزمهم للسنة وأعظمهم مجاهدة توفي رضي الله عنه في دمشق ٦٣٨ هـ، للاستزادة عن ترجمة ابن عربي انظر شذرات الذهب : ٧/ ٣٣٢، وهناك ترجمة موسعة لأحد المستشرقين الأسبان (أسين بلاثيوس)عنه بعنوان ابن عربي حياته ومذهبه ترجمها الدكتور عبد الرحمن بدوي ط.مكتبة

وذلك في كتابه "روح القدس" فهو يصرح بمكانة سيدنا أبي بكر الصديق فيقول: "رضي الله عن الصديق الأكبر، صاحب السر، العلم الأزهر، في قيامه على منبر الطرفاء، يوم الداهية الدهياء، بموت سيد الأنبياء، أمين الأمناء، وعلم الاهتداء، وقد ذهل من كان عندنا أقوى الأقوياء، فما ظنك بالضعفاء.

وصار الرفيق الأسيف، على مذهب السيدة الحميراء، لما كان يظهر عليه من شد التلهف والبكاء، فكان أضعفهم عينًا، وأقواهم في صميم السويداء، فقال:

«من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فالله حي لا يموت»، ثم تلا استشهادًا على مقالته الزهراء: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] إلى آخر الآية الغراء، ثم تلاها بقوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، ثم خاطب جميع الخصماء؛ فهذه القوة الإلهية من زهده في القوت، وسوقه جميع ما ملكته يده لله ورسوله، فملكه مفاتيح التابوت، فمن غيرته عليه وأمانته، إخفاؤه إياه إلى يوم فقد صاحب رسالته، ففتح تابوت صدره، وأبدى مكنون سره، ونبه بعلمه على مكانته من الله وقدره"(١)

كما أن الشيخ محي الدين يقول في "الفتوحات المكية": "إذا جالست من تعرف أنه يقع في الصحابة من الروافض، فلا تتعرض ولا تعرِّض بذكر أحد من الصحابة – الذين تعلم أن جليسك يقع فيهم – بشيء من الثناء عليهم، فإن لجاجه يجعله يقع فيهم، فتكون أنت قد عرضتهم بذكرك إياهم للوقوع فيهم". (٢)

الأنجلو المصرية.

(١) روح القدس في مناصحة النفس محي الدين بن عربي ص٢٦٥ ط.الهيئة المصرية العامة للكتاب

(٢) الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي ٨/ ٢٩٠ ط.دار الكتب العلمية

إذن لا يمكن لمنصف لديه ذرة من دين أو علم أن يتهم الصوفية بأن لهم صلة بالتشيع؛ حيث ظهر مباينة عقائد الشيعة وقواعدهم لقواعد الصوفية وعقائدهم الذين هم أئمة أهل السنة والجماعة.

الباب الثاني

في بيان مصطلحات يستعملها الصوفية
ويكثر السؤال عنها

فمن المستحسن للسالك أن يدرك شيئا من مصطلح القوم؛ حتى يفهم ويشعر بمعنى كل مصطلح، وقد لا يحسن التعبير عنه، فإن أدركه سهل عليه فهمه وحفظه بعد أن ذاقه، ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف، فمما ينبغي الوقوف عليه في بيان تفسير الألفاظ التي تدور بين هذه الطائفة، وبيان ما يشكل منها على غيرهم.

اعلم أن كل طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها فيما بينهم انفردوا بها عن من سواهم؛ حيث توافقوا عليها لتقرب الفهم على المخاطبين بها للتسهيل على الوقوف على مقاصدهم بإطلاقها، كأهل أصول الدين حيث اصطلحوا على إطلاق اسم العالم والجوهر والكون، والحال وغيرها من المعاني التي أرادوها، وربما وافق بعضها مقتضى اللغة على وضعها الحقيقي.[1]

(١) التصوف: هو تفريد القلب لله، واحتقار كل ما سواه.

(٢، ٣، ٤) الشريعة والطريقة والحقيقة: عند القوم: الشريعة كالسفينة، والطريقة كالبحر، والحقيقة كالدر، فمن أراد الدر ركب السفينة، ثم شرع في البحر، ثم وصل إلى الدر، فمن ترك هذا التركيب لم يصل إلى الدر.

فأول واجب على الطالب هو الشريعة، والمراد بالشريعة ما أمر الله ورسوله به من الوضوء والصلاة والصوم وأداء الزكاة والحج، وطلب الحلال وترك الحرام، وغير ذلك من

(١) وتفصيل الكلام في هذه المصطلحات، وكذلك حديثنا عن النفس ومراتبها؛ مختصر من كتب وهي: رشحات عين الحياة للإمام علي بن حسين الواعظ الهروي، طبعة دار صادر بيروت، وكذلك الكبريت الأحمر والإكسير الأكبر في معرفة أسرار السلوك إلى ملك الملوك للإمام عبد الله بن أبي بكر العيدروس. طبع دار جوامع الكلم بالأزهر. ومراتب النفس للشيخ عبد الخالق الشبراوي، طبع جمعية الشبراوي ١٩٨٩م. ومنازل السائرين إلى الحق لأبي إسماعيل الهروي طبع الحلبي سنة ١٩٦٦م.

الأوامر والنواهي: فليزين الرجل ظاهره بلباس الشريعة حتى يكون نور ظاهر الشريعة في قلبه، ويزيل من قلبه الظلمة الإنسانية، فيتمكن للطريق والنزول في قلبه.

والطريقة : الأخذ بالتقوى، وما يقربك من المولى من قطع المنازل والمقامات، فلكل مقام طريقة، طرق المشايخ مختلفة، فكل شيخ وضع طريقه على ما هو عليه، ومن أحوالهم الحال والمقام، فبعضهم طريقه الجلوس مع الناس وتربيتهم، وبعضهم طريقه كثرة الأوراد من الصلاة والصوم، وغيرها من العبادات، وبعضهم وضع طريقه بخدمة الناس، يحمل الحطب والحشيش على ظهره ويبيعه في السوق، ويتصدق بثمنه، وعلى هذا لكل واحد منهم اختيار من الطرق.

وأما الحقيقة : فهي الوصول إلى المقصد، ومشاهدة نور التجلي، كما قال صلى الله عليه وسلم لحارثة : « لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك، فأجاب، وقال : صرفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها ومدرها، وذهبها وفضتها، وأظمأت نهاري وأسهرت ليلي » [رواه الطبراني وعبد الرزاق، وابن عساكر وابن نعيم وغيرهم] الحديث.

فتمسكه بدين الله والقيام بأمر شريعته، وأخذه بالأحوط والعزيمة بسهره وظمئه، وعزوف نفسه عن المشتهيات طريقة، وانكشافه عن أحوال الآخرة حقيقة ووجدانه لك.

(٥) المشاهدة : هي رؤية الحق في كل ذرة من ذرات الوجود مع التنزيه عما يليق به.

الاتصال قال الثوري رضي الله عنه: الاتصال أن لا يشهد العبد غير خالقه، وقال بعضهم الاتصال وصول السر إلى مقام الذهول، وقال بعضهم الاتصال مكاشفة القلوب ومشاهدة الأسرار.

(٦) الشهود : رؤية الحق بالحق.

(٧) التجلي : ما ينكشف لقلب السالك من أنوار الغيب فإن كان مبدأه الذات من غير

اعتبار صفة من الصفات سمي تجلي الذات، وأكثر الأولياء ينكرونه، ويقولون : إنه لا يحصل إلا بواسطة صفة من الصفات، فيكون هذا من تجلي الصفات من حيث تعينها وامتيازها عن الذات سمي تجلي الصفات، وإن كان مبدأ فعلا من الأفعال سمي تجلي الأفعال، فتجلي الأسماء هو ما ينكشف لقلبه من صفاته تعالى، وذلك بعد فناء صفات السالك ظهر على السالك بصفة من صفاته تعالى، وذلك بعد فناء صفات السالك ظهر على السالك بعض آثار تلك الصفة بفضل الله تعالى، مثلا إذا تجلى عليه الحق تعالى بصفة السمع وصار يسمع نطق الجمادات وغيرها، وقس على ذلك، وتجلي الأفعال هو ما ينكشف لقلب السالك من أفعاله تعالى، فإذا تجلى الحق تعالى على السالك بفعل من أفعاله، بأن كشف للسالك جريان قدرة الله تعالى في الأشياء، فيرى أن الله هو المحرك والمسكن شهودا حاليا لا يعرفه إلا أهله، وهذا التجلي مزلة الأقدام، فيخشى على السالك منه؛ لأنه ينفي الفعل الثابت.

واعلم أن تجلي الأفعال سابق على تجلي الصفات والأسماء، فإذا ثبت السالك وأقام الشريعة على نفسه مع شهود أن المحرك والمسكن هو الله ترقى من هذا التجلي الخطري إلى تجلي الأسماء والصفات، وإن لم يثبت تزندق وطرد من الطريق.

(٨) **الشوق :** احتياج القلوب إلى لقاء المحبوب. المحبة : هو ميل الطبع إلى الشيء لكون لذيذا، ومحبة السالكين ميل قلوبهم إلى جمال الحضرة الإلهية.

(٩) الحال : معنى يرد على القلب بلا تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب، وهو إذا طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو هيبة أو غير مما يرد على قلب السالك، فإن زال عن قلبه فهو المسمى بالحال، وإذا دام وصار ملكة يسمى مقاما، فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب.

(١٠) **الوقت :** عبارة عن التجلي للعبد من الحق تبارك وتعالى، ويريد الصوفية بالوقت ما هم عليه من الحال في الزمان الحاضر إن كان الرجل في سرور فوقته السرور، وإن كان في

الحزن فوقته الحزن، قال العارفون الصوفي ابن وقته، يعني يشتغل بما يتوجه عليه من حكم الله تعالى، لا يتعلق قلبه بالماضي والمستقبل، فإنه لو اشتغل بالماضي والمستقبل لفات الوقت، ومراعاة الوقت أولى؛ لأنه مكلف بالوقت دون زمان آخر، والصوفي بحكم وقته يعني مستسلم لما يجري عليه من قضاء الله تعالى وقدره في وقته، قال العارفون : الوقت سيف قاطع، كما أن السيف قاطع، فما يجري عليه من قضاء الله تعالى وقدره في الوقت لا يمكن خلافه.

(١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤) القبض والبسط .والخوف والرجاء :

فالقبض والبسط : حالتان يحصلان للسالك المتوسط في الطريق كما أن الخوف والرجاء يتعلقان بأمر مستقبل مكروه أو محبوب، فالقبض يورث خشية وأدبا معروفا؛ لأنه يزهد في الدنيا ويدل على الأخرى، وحقيقة القبض ورود شيء في قلب السالك من الله تعالى فيه إشارة إلى تقصير واستحقاق تأديب على التقصير. والبسط : فرح القلب بالتوجه، وحقيقة البسط ورود شيء في قلبه من الله تعالى إشارة إلى لطف وترحيب وتكريم، وقد يكون القبض والبسط ولا يدري صاحبها سببهما، وطريق القبض الذي لا يدري سببه التسليم حتى يمضي ذلك الوقت.

والخوف والرجاء مكاسب أعني من المقامات، والقبض والبسط مواهب، إلا أن الخوف والرجاء للعوام، والقبض والبسط للخواص، لأنهما من الأحوال.

(١٥ ، ١٦) الهيبة والأنس : حالتان فوق القبض والبسط كالخوف والرجاء، والهيبة مقتضاها الصحو والإفاقة، وهي تشبه القبض إلا أنها أشد من القبض فيكون الوارد من الله تعالى على القلب أشد تهديدا وعتابا. والأنس : يشبه البسط إلا أنه أقوى من البسط يكون الوارد من الله أشد ترجيا وتلطفا.

(١٧ ، ١٨) السر وسر السر : فالسر يحتمل أنها اللطيفة الربانية المودعة في القلب كالأرواح وهو باطن الروح فإن تنزل درجة كان روحا، وإن تنزل أخرى سمي قلبا، وأصولهم تقتضي أنه محل المشاهدة، كما أن الأرواح محل المحبة والقلب محل المعارف، وقالوا : السر مالك عليه إشراف، وسر السر ما لا اطلاع لغير الحق عليه.

(١٩) الملكوت : عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس المجردة.

(٢٠) عالم المثال : وهو عالم غير هذا العالم الذي أنت فيه، وهو أول مقامات المقربين وفيه يرى السالك الأمور التي لا تدرك بالحواس الخمس، وهو حالة متوسطة بين النوم واليقظة تعرض للسالك وهو جالس غالبا ويرى فيها ما يرى بشرط أن يعلم المكان الذي هو فيه والوقت الذي هو فين ويعلم أنه بين النوم واليقظة، فإن لم يكن كذلك فهو منام لا يعتد به.

(٢١) الرتبة الأحدية : المرتبة المستهلكة في جميع الصفات والأسماء، وسمي جمع الجمع.

(٢٢) الفناء : أن يفنى السالك عن الحظوظ فلا يكون له في شيء حظ، بل يفنى عن الأشياء كلها شغلا بالله.

(٢٣) والبقاء : هو أن يفنى بما له ويبقى بما لله تعالى.

(٢٤) الجمع : شهود الأشياء بالله والتبرؤ عن الحول والقوة.

(٢٥) جمع الجمع : الاستهلاك بالكلية والفناء عما سوى الله تعالى، وهي مرتبة الأحدية المتقدمة، ويقال له فناء الحس وبقاء الإنس.

(٢٦) الفرق الأول: هو أن يحتجب السالك بالخلق عن الحق، وهو حال عوام السالكين.

(٢٧) الفرق الثاني : هو شهود قيام الخلق بالحق، ورؤية الوحدة في الكثرة، والكثرة في

الوحدة من غير حجاب بأحدهما عن الآخر.

(٢٨) التجريد : عبارة عن إزالة الأغيار عن القلب. والسر الجرس : إجمال الخطاب الإلهي الوارد على القلب بضرب من القهر.

(٢٩ ، ٣٠ ، ٣١) علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين :

فعلم اليقين : هو العلم الحاصل بالمشاهدة، وهو على موجب اصطلاح ما كان بشرط البرهان. أما عين اليقين : فهو ما كان بحكم البيان. وحق اليقين : ما كان بنعت العيان، فعلم اليقين لأرباب العقول، وعين اليقين لأصحاب العلوم، وحق اليقين لأصحاب المعارف، لأن حق اليقين : هو فناء صفات العبد من صفات الحق وبقاؤه علما وحالا لا علما فقط، فالذي يفنى من العبد على التحقيق صفاته لا ذاته، فحينئذ لابد من بقاء عين العبد الفاني، فلا تفنى ذاته في ذات الحق كما يفهمه الجاهلون الذين كذبوا على الله، بل العبد كلما تقرب على الله بالعبودية وإظهار العجز والفناء عن جميع الصفات المناقضة للعبودية، وهبه الله فضلا من صفات حميدة خفية عوضا عن ما فنى منه من الصفات الذميمة الخلقية، والله هو القادر على كل شيء، لكن متى شاء أذهب عن العبد ما فيه من الخبائث، وأمده بما يعجر عنه كل ما سوى الله تعالى، فلا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ولا راد لما قضى، ولا مبدل لما حكم.

وقد مثلوا بذلك مثلا وهو أن القطعة من الفحم إذا وقع عليها ضوء النار لكن بسبب المقابلة بل بسبب وقوعها على حائط مثلا، ثم انعكس الضوء من الحائط على قطعة الفحم فضاءت، وهذا مثال علم اليقين، وإذا كانت قطعة الفحم بجانب النار بحيث تشتعل في حرارتها وتفنى أوصافها في أوصاف النار بحيث تبدل ظلمتها بإشراق النار، وبرودتها بحرارة النار، وانفعالها بفعل النار، وهذا حق اليقين، وهذا التحقيق مأخوذ من كلام الشيخ محيي الدين بن العربي وغيره فقد قال : ولا تعتد أن ذات العب تفنى من ذات الحق فلا يبقى إلا الحق، فإن ذلك ضلالا وجهلا لا يرضى به المحققون، وإن وقع من أصحاب الشطح ما يشعر بذلك، فإن الشطح مردود على أهله، وهو عبارة عن كل كلمة عليها رائحة دعوته، ودعوى وهو من ذلات السالكين. وقال ابن الحاج في [شرح الحكم] : فإن قيل ما حقيقة علم

اليقين، وعين القين، وحق اليقين قلنا العلم المتواتر بوجود الشيء علم اليقين، ورؤيته دون الحلول به عين اليقين، والحلول حق اليقين، مثال ذلك كعلمنا بوجود مكة، ورؤيتنا لها، وحلولنا بها، وإن شئت قلت : رؤية هيولي السكران بحي منه حلاوة علم اليقين، ورؤية الحلاوة منه عين اليقين، والأكل حق اليقين. فانظر رحمك الله ما أحلى ضرب هذا المثال من السكر فإنه سكر الطوالع هي أول ما يبدو من تجليات الأسماء في باطن السالك، فتحسن أخلاقه بها؛ لأنها تنور باطنه.

(٣٢) الحجاب : هو انطباع الصورة الكونية في القلب المانعة من قبول تجلي الحق، فمتى كان في قلب السالك غير الله فهو محجوب عن تجلي الحق، وقد تكثر الأغيار فتكون حجابا ظلمانيا، وقد تقل وتكون نورانيا، فكذلك اختلفوا المحققون في ترك الأسباب والخلوة لئلا تنطبع الصور الكونية في قلبه فتمنعه عن التجلي الحق له والدليل على أن المانع هو الصور، أنك ترى العابد الذي ليس سالك لطريق المحققين يعبد الله سبعين سنة فلم يحصل في قلبه شيء مما يحصل للسالكين؛ لأن العباد الذي ليس بسالك قلبه مملوء هوى وأغيار، ولا يسعى في خلاصها عن قلبه، ولا يريد يوما إرادة السالكون، بل يطلب ما وعده الله تعالى في الجنة، وهو لا يخلف الميعاد، وأما العابد السالك فيعطيه الله في الدنيا التجليات، وله في الآخرة أعلى المقامات.

(٣٣) الهوية السارية في جميع الموجودات: هي عبارة عن الذات العلية الملاحظة، لا بشرط شيء،و لا بشرط لا شيء، وقال القصيري في [شرح تائية بن الفارض] : اعلم أن الذات الإلهية إذا اعتبرت من حيث هي هي أي بأن تكون موصوفة بصفة ما أو غير موصوفة بها، فهي مسماة عند القوم بالهوية، وحقيقة الحقائق، وإذا اعتبرت مجردة من الصفات الزائدة عليها، فهي المسماة بالأحدية، والعمى أي الخفى أيضا، وإذا اعتبرت متصفة بجميع الصفات

الكمالية فهي المسماة بالواحدية الإلهية مشتملة عليها، والصفات إن كانت متعلقة باللطف والرحمة فهي المسماة بالصفات الجمالية، وإن كانت متعلقة بالغير تسمى بالصفات الجلالية، ولكل منهما جلال وجمال، أي ولصفات الجمالية جلال، وللجلالية جمال، وإذا اعتبرت المظاهر الخلقية من غير استهلاكها فيها تسمى بمقام الفرق. والفرق منقسم بقسمين الأول والثاني، ويعنى بالأول ما يكون قبل الوصول، وبالثاني بعد الوصول، وبالفرق بالأول للمحجوبين والثاني للكاملين المكملين، ويقال له الفرق بين الجمع والصحو بعد المحق والبقاء بعد الفناء والصحو الثاني وما يشبه ذلك وهو عبارة عن إفاقة العبد بعد صمته أي بعد أن تجلى عليه الحق سبحانه وتعالى، وافناه عن أنيته.

ولما كان الوصول إلى الحضرة الإلهية متوقفا بالعناية الأزلية الجاذبة للعبد إلى ربه؛ لأن حال العبد في البدايات دائرة بين الصحو والمحو.

(٣٤، ٣٥) الصحو والمحو: ونعني بالصحو السكر، وهو حالة ترد على الإنسان بحيث يغيب عندها عن عقله، ويحصل منه أفعال وأقوال لا مدخل للعقل فيها كالسكران من الخمر، لكن بينهما من الفرق ما بين السماء والأرض، وهذا السكر نتيجة المحبة، وهي نتيجة الجذبة، وهي نتيجة التوفيق والعناية فلا مدخل للكسب فيها، وهذا حال المحبوبين لا حال المحبين، فإن انجذابهم إنما هو بعد السلوك والمجاهدة.

(٣٦) الطهارة : حفظ الله العبد من المخالفات. طاهر الظاهر : هو هو من حفظه الله عز وجل من المعاصي. طاهر السر :من لا يذهل عن الله طرفة عين.

(٣٧) الوجد هو : استدعاء النفس إلى الخيرات، وترك الدنيا، وحب الآخرة، وهو ما يرد على قلبك من غير تكلف، والوجد من ثمرات الأوراد، فمن أوراده في الطاعات أكثر يكون وجده أكثر .

(٣٨) التواجد : هو استدعاء الوجد بضرب، وإظهاره على نفسه، وطلب حصول الوجد كما قال صلى الله عليه وسلم : « ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا » [رواه ابن ماجة].

(٣٩) اختيار الوجود: وهو البعد عن حضرة الخلق، والقرب من حضرة الحق. فالوجود من الأحوال، وهو عبارة عن ثبوت سلطان الحقيقة في قلب الرجل، وهذا لا يكون إلا بعد زوال الصفات البشرية من الغفلة والشهوة، ومن أحب شيئا سوى الله تعالى يناقض الحقيقة، وبمقدار الوجود يحصل المجهود، وصاحب الوجود له صحو ومحو، فحال صحوة بقاؤه بالحق، وحال محوه فناؤه في الحق، فهاتان الحالتان المتعاقبتان عليه، فإذا غلبك عليه يصول ويجول وبه يحول، قال صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عن الحق سبحانه وتعالى : « فبي يسمع وبي يبصر ».

(٤٠) كيمياء العوام : استبدال المتاع الأخروي الباقي بالحطام الدنيوي الفاني.

(٤١) كيمياء الخواص : تخليص القلب من الكون باستإثار المكون. كيمياء السعادة : التخلي عن الأوصاف الذمية، والتحلي بالأوصاف الحميدة.

(٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥) المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة والمعاينة : وهما أكمل من المكاشفة والكشف أكمل من المحاضرة، فهو ما عنى . المحاضرة : تكون ابتداء أول المراتب ثم المكاشفة والمشاهدة. فالمحاضرة : حضور القلب مع الحق بالبرهان.

ثم بعده المكاشفة : وهي حضور القلب بنعت البيان التام بالبرهان غير مفتقر إلى تأمل الدليل وتطلب السبيل ولا مجير من دواعي الريب ولا محجوب عن نعت الغيب. ثم المشاهدة : وهي وجود الحق تعالى من غير بقاء تهمة لما شاهده من الكمال وتطلق المشاهدة على رؤية الأشياء بأدلة التوحيد، فصاحب المحاضرة مربوط ببراهينه وخوارق عاداته، وصاحب المكاشفة مبسوط بصفاته، وصاحب المشاهدة يغلي في ذاته لفنائه عما سوى الحق

والمعاينة قبل غايتها تحقيق إحاطة الذات التي لا تصلح مع وجودها كون الغير.

(٤٦، ٤٧ ، ٤٨) اللوائح واللوامع والطوالع : هذان كناية عن اختلاف أحوال أرباب السلوك وما يفتح الله بعه عليهم من المقامات التي يرمون بلوغ كمالها كالزهد والتوكل والرضى والتسليم والمحبة، وهما والطوالع متقابلة المعنى لا يكاد يحصل بينهما كبير فرق، وإن كان الطوالع أتتم ثم اللوامع وهي صفة أصحاب البدايات الصاعدين في الترقي بالقلب فتكون الأشياء التي تظهر لهم أولا : لوائح ثم لوامع ثم طوالع، فاللوائح كالبروق ما ظهرت حتى استترت، واللوامع أظهر من اللوائح وليس زوالها بتلك السرعة التي هي اللوائح فقد تبقى اللوامع مع وقتين وثلاثة مثلا، فإذا لمع المطالع قطعك عنك وجمع به.

(٤٩ ، ٥٠) التلوين والتمكين : التلوين صفة أرباب الأحوال والتمكين صفة أهل الحقائق، التلوين يقال لنيل الحال والرجوع عنه فصاحبه يكون تارة مع الحق، وتارة مع نفسه، فهو متلون ويقال الانتقال من منزل إلى آخر إلى أن يصل إلى مطلوبه الأقصى، فيصير متمكنا، فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين لاند، يرتقي من حال إلى حال فإذا وصل إلى مقام التوحيد، وغلب على قلبه حال الحق العقلي، ومن ثم قال المشايخ : انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بنفوسهم، فإذا ظفر بنفوسهم فقد وصلوا، واعلم أن التغيير الحاصل بها يرد على العبد يكون لأحد أمرين لقوة الوارد، ولضعف صاحبه عن تحمله، والسكوت من صاحبه يكون لأحد أمرين إما لقوته أو لضعف الوارد عليه، فإن كان الوارد قويا وصاحبه ضعيفا لم يحمله، وإن كان بالعكس حمله ولم يتغير.

(٥١) النفس : هي عند القوم ما كان معلولا من أوصاف العبد ومذموما من أفعاله وأخلاقه ، وكثيرا ما يعبر بها عن مبدأ الصفات المذمومة لقوله تعالى : ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ وذلك أعدت عدو الإنسان لصعوبة الخلاص من شرها، ألا ترى أن الإنسان إذا

صالح الأعداء أمن من شرهم، وإن صالح نفسه أهلكته؛ ولذلك كان جهادها الجهاد الأكبر.

ثم إن المعلولات من أوصال العبد الشاملة لأفعاله وأخلاقه على ضربين : أحدهما : كسبا كمعاصيه ومخالفته لأمر ربه كالزنا والسرقة، والثاني : أخلاقه الدنيوية التي طبع عليها كالجبن والجرأة والميل اللذيذ، فهي في أنفسها مذمومة، ومع ذلك فإن عالجها العبد ونازلها، أي تركها وانتقل عنها تنتفي بالمعاهدة لتلك الأخلاق على العادة المستمرة، وإن لم يتغير الطبع وهو الميل لكل لذيذ والنفرة عن كل كريهة، فالنفس بطبعها تميل إلى الدنيا لكونها لا تعرف حسنا غيرها، فإذا عرفت نقصها وحجبها عن الخيرات تفوتها، وكذلك ما نظر إلى الأعمال الصالحة ومشقة القيام بها يجد نفسه نافرة عنها، فإذا عرف ما يترتب من الفوائد مال إليها وكره تركها، فالذي كان تاركا له صار مائلا إليه، والطبع لم يتغير والنفس والروح والسر والعقل عند محققي الصوفية بمعنى واحد ، وهو ما يفارق الإنسان بموته من اللطيفة الإنسانية، والحقيقة الربانية.

ومنهم الغزالي حيث قال : النفس للدم وللحقيقة الربانية، والعقل للحقيقة الربانية، والقلب للجسم الصنوبري الشكل وللحقيقة الربانية، والسر لما يكتم. وفرق بعضهم بينها بأنه يحتمل أن يكون النفس لطيفة مودوعة في هذا القالب، وهي الأخلاق المحمودة، ويعبر عن هذا بأن الروح جوهر نوراني علوي رباني والنفس ظلمانية سفلية شيطانية، وأما القلب متقلب بينهما فالروح طيبة شأنها الموافقة والنفس خبيثة شأنها المخالفة والقلب إن مال إلى الروح اتصف بصفاتها أو إلى النفس فبالعكس وتكون جملة الإنسان مسخرا بعضها لبعض. والجميع إنسان واحد ولا يؤثر في الفرق بينهما اشتراكهما في اللطافة.

(٥٢ ، ٥٣) الغيبة والحضور : ومن الأحوال الغيبة والحضور، والغيبة أن تغيب عن أحوال الدنيا، والحضور أن تحضر بأمور الآخرة، وربما يحضر الرجل بمكاشفة ومناجاة مع

الله تعالى فيغيب الرجل عن الإحساس حتى لو أدخل الرجل يده في النار لم يحس بذلك الألم.

(٥٤ ، ٥٥) السكر والصحو : ومن الأحوال السكر والصحو، فالسكر يشبه الغيبة، والصحو الرجوع عن السكر إلى الإحساس، والغيبة تكون للمبتدئين في السلوك والمنتهين، والسكر لا يكون إلا لأصحاب المواجيد، وهو أن يرد من الله وارد في قلبه فيسكره، فإن كوشف الرجل بنعت الحال حصر السكر وطرب الروح وهام القلب.

(٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨) الذوق والشرب والرِّي : ومن الأحوال الذوق والشرب، ويعبرون بذلك عما يجدونه من ثمرات التجلي ونتائج الكشوفات، وموارد الواردات، وأول ذلك الذوق، ثم الشرب، ثم الري فصفاء معاملاتهم توجب لهم ذوق المعاني، وصفاء منازلاتهم توجب لهم الشرب، ودوام مواصلاتهم توجب لهم الري، فصاحب الذوق متساكر : يعني أنه أول السكر، وصاحب الشرب : سكران، وصاحب الري : صاح، فمثاله العطشان، فمن به قليل عطش فهو صاحب ذوق، ومن به عطش كثير فهو صاحب شرب، وإذا روي وأخذ حظه من الشراب زال حرصه وقلقه الذي به من عطش فهو صاحب ري وصاحب صحو.

(٥٩ ، ٦٠ ، ٦١) المحو والمحق الإثبات : ومن الأحوال المحو والإثبات، فالمحو رفع العادات، والإثبات إقامة أحكام العبادات، وينقسم المحو إلى إزالته عن الظواهر، ومحو الغفلة، وإثبات المنازلات، وإثبات المواصلات، والمحق يشبه المحو لكن المحق فوق المحو، لأن المحو يبقى له أثر، والمحق لا يبقى له أثر.

(٦٢ ، ٦٣) الستر والتجلي : ومن الأحوال الستر والتجلي، فالتجلي نور ومكاشفة من الله تظهر في قلب العارف تدهشه وتحرقه، والستر أن يرحل عن ذلك التجلي؛ كيلا ينحرق ويضمحل في نور التجلي نور منه وفضل وقربة.

(٦٤ ، ٦٥) البوادِة والهجوم : ومن الأحوال البوادة والهجوم : والبوادة ما يفجأ قلبك

من الغيب على سبيل أذهله، إما موجب فرح أو ترح. والهجوم : ما يرد على القلب بقسوة الوقت من غير تصنع منك، ويختلف في الأنواع على حسب قوة الوارد وضعفه.

(٦٦ ، ٦٧) القرب والبعد : ومن الأحوال القرب والبعد، والقرب قرب العبد من الله تعالى بالطاعة والترقي من منزل إلى منزل، والبعد بعده من الله والتآنس بمخالفته، فالأول البعد من الله، والثاني البعد من التحقيق.

(٦٨) الأنفاس : وهي من الأحوال، وهي أنفاس نورانية، وهي ترويح القلوب بلطائف الغيوب، وصاحب الأنفاس أرق وأصفى من صاحب الأحوال، فكأن صاحب الوقت مبتدئ وصاحب الأنفاس منتهي، وصاحب الاحوال بينهما، فالأحوال وسائط، والأنفاس لأهل السرائر، وقال المشايخ العارفون : لا يسلم له النفس؛ لأنه لا مسامحة تجري معه، والمحب لابد له من نفس، إذ لولا أن يكون له نفس لتلاشى، لعدم طاقته.

(٦٩) علوم الخواطر : وهي من الأحوال، والخاطر : هو خطاب يرد على الضمائر، فقد يكون بإلقاء الملك، وقد يكون بإلقاء الشيطان، وقد يكون أحاديث النفس، وقد يكون من قبل الله سبحانه وتعالى، فإذا كان من قبل الملك فهو إلهام، وإنكان من قبل الشيطان فهو وسواس، وإذا كان من قبل النفس فهو أجر، فإذا كان من قبل الله سبحانه وتعالى وإلقائه في القلب فهو خواطر.

(٧٠) الوارد : ومن الأحوال الوارد، وهو ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة عما لا يكون بعلم العبد، وكذلك لا يكون من قبل الخواطر، وهو أيضا وارد ثم يكون واردا من الحق سبحانه وتعالى، ووارد من العلم، فالواردات أعم من الخواطر؛ لأن الخواطر تختص بينبوع الخطاب، وما يتضمن معناه، والورادات يكون وارد سرور ووارد حزن ووارد قبض ووارد بسط إلى غير ذلك من المعاني، وينصح المشايخ بكتابتها حتى لا تنس وينتفع بها.

(٧١) لفظ الشاهد : ومن الأحوال لفظ الشاهد، وهو ما يكون على قلب الإنسان، فهو ما كان الغالب عليه إن كان ذكرا فهو يشاهده، وإن كان العلم غالبا عليه فهو يشاهد العلم عليه، وإن كان الغالب عليه الوجد فهو يشاهده، ومعنى الشاهد الحاضر فكل ما هو حاضر قلبك فهو شاهده.

(٧٢) الروح : والروح مختلف فيها عند أهل الحقيقة من أهل السنة، فمنهم من يقول الروح جسم لطيف مجازي، والروح الرباني أمري من عالم الأمر. قال المشايخ : هي أعيان لطيفة مودعة في هذه القوالب ولها ترق في حال النوم ومفارقة البدن، ثم الرجوع إليها، وأن الإنسان هو الروح والجسد؛ لأنه سبحانه وتعالى سخر هذه الجملة بعضها لبعض، والحشر والثواب العقاب للجملة، والأرواح مخلوقة، ومن قال بعدمها فهو مخطئ خطأ عظيما، والروح معدن الخير، والنفس معدن الشر، والعقل جيش الروح، والهوى جيش النفس، والتوفيق من الله تعالى مرد الروح والخذلان مرد النفس.

(٧٣) فتوحات أهل النهايات : فتوحات أهل النهايات من البقاء والفناء ودوام اللقاء، وصاحبها يداوم على الذكر بعد إفناء أفعال نفسه في أفعال ربه بملازمته الشريعة، وصفاته في صفاته بملازمته الطريقة حتى يتجوهر القلب بنور الذكر، ويعر الذكر من كسوة الحروف والصوت وانطبع نوره في مرآة القلب المصفاة من دنس أوصاف البشرية، ثم يسري إلى الروح ويتجوهر بجهور الذكر ويتحد الذكر والذاكر فيكون الذكر ذكر الذات.

وحينئذ تتنور أجزاء الموجودات بنور ذكره؛ لأنه محيط بها وتذكر الله معه، ثم ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾[فاطر : ١٠].

والذكر الطيب هو الذي لم يكن معلولا بعلة دنيوية ولا أخروية، ويكون خالصا لله بأن يذكر ببذل وجوده عليه ، وفنائه فيه بمباشرة الحقيقة على مقتضى حقيقة قوله تعالى :

﴿فاذكروني﴾ ليبقيه به على قوله تعالى : ﴿أذكركم﴾ [البقرة : ١٥٢] وهو عبارة عن تجلي جماله الموصوف بالمذكور به لذاكريته ليفنيه عنها ويبقيه بمذكوريته، ثم يكون المحو عما يذوقه من تجلي صفات الجمال، ثم المحو الطمس عما يصادفه من تجلي صفات الجلال، فمن فني عن أفعال نفسه فهو باق بأفعال الله، ومن فنى عن صفاته فهو باق بصفات الله تعالى، ومن فنى عن ذاته فهو باق بذات الله تعالى كما قال بعضهم :

وقوم تاهوا في أرض بقفر وقوم تاهوا في ميدان حبه

فأفنوا ثم أفنوا ثم أفنوا وأبقوا بالبقاء بقرب ربه

فالأول كما قالوا فناء صفاته لبقاء صفات الحق، ثم فناؤه عن صفات الحق بشهود الحق، ثم فناؤه عن شهود فنائه، باستهلاكه في وجود الحق، وهو فناء الذات في الذات، وهذه حقيقة : ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذرهم ﴾[الأنعام : ٩١]

(٧٤) وصول الذاكر إلى عالم الفناء :

قال العلماء بالله : إذا وصل الذاكر إلى عالم الفناء اتصل به تصرف الحق فيه، فصار حال الذكر إكسيراً عزيزاً، وانقلبت محاسنه ذهبا إبريزا، وأودع فيه من أنواع التنزيه والتوحيد ما ينتفي معه كل شرك وتشبيه، وتعطيل وتمويه، فيصفو بصفات التوحيد عن كدورات صفاته الذميمة، ويتقدس به عن دنس المخالفات، فحينئذ يدخل في زمرة السالكين، ويسير في منازل السائرين إلى أن يلغ منازل الطائرين تروح إلى الطمأنينة والتسكين ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[الرعد : ٢٨].

(٧٥) وصول الذاكر إلى روح عالم الروح :

إذا وصل الذاكر إلى روح عالم الروح برز له نعت القدم بتنصيص التخصيص، ومنشور التشريف من باب إضافة ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر : ٢٩] فهذه تفضل إضافة القدم إلى الحدث، وتبجيل القديم المحدث.

كاد هذا التخصيص والتفضيل أن يمحص عن المحدث قسمة الحدث، وكاد هذا التشريف أن يوصل القديم بالمحدث فكاد بهذه الإضافة أن تثبت القديم بالمحدث، فنزه القدم عن الحدث، وتنزه القديم عن المحدث، وجلت الأزلية عن الوصل، والفصل إضافتك إليه إضافة مزية لا إضافة جزئية، إضافتك إليه إضافة خصوصية لا إضافة بعضية، إضافة قرب لا إضافة نسبة، إضافة كرم لا إضافة قدم، هو منزه عن كل إضافة، وإن قال : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾. سبحانه ليس كمثلة شيء، ليس له كل فيقال له بعض، ليس له جنس فيقال له نوع، ليس له قرار فيقال له علا، فمقدس عن البداية والنهاية والطرفة والمحلية : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١].

(٧٦) وصول الذاكر إلى عالم السر :

فإذا وصل الذاكر إلى عالم السر كوشف بأسرار الغيب، وزفت إليه عرائس أبكار الأسرار في الخلوات، أولياؤه تحت قبابي لا يعرفهم غيري بين موائد ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ [النجم : ١٠] في مجلس ستر بيني وبين عبد بسر لا يطلع عليه نبي مرسل ولا ملك مقرب، ثم تأتيه ألطاف القدرة بتحف الحضرة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : ١٧] ما قرت عين العاشق، أتدري ما قرة عين العاشق ؟ نظر وجه معشوقه، والتمتع بالنظر إلى جمال جلاله يشق له سمعا في قلبه وبصرا في لبه، فيسمع بغير أذن ويبصر بغير عين فلا يسمع إلا من الغيب، ولا يبصر إلا من الغيب،

فيصير الغيب عنده عيانا، والخبر عنه معاينة وهو معنى قوله : « رأى قلبي ربي ».

قال العلماء بالله : مفهوم إشارة القدم في متن المصحف المجيد ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ ﴾ [الفرقان : ٤٥]، فحينئذ يجذيك. أي يبعدك. عنك ويسلبك منك، فتقع في القبضة فيوصلك إلى أعلى مراتب التوحيد والمعرفة في أعلى منازل السر والهمم ما تقصر العبارة والتعبير به، وتعجز الأسرار عن الإشارة إليه وهي نهاية الأقدام، وليس وراء النهاية شيء « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ، فحينئذ يقول : سبحان من لم يجعل للخلق سبلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته، ولما علم الحق سبحانه وتعالى عجزي عن أداء حقه في حقيقة الوحدانية والفردانية شهد لنفسه بالحق للحق ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [آل عمران : ١٨]، وحقيقة التوحيد هو البداية، والنهاية، والنهاية الرجوع إلى البداية وهي النهاية، منه بدأ وإليه يعود فهي الكلمة الطيبة.

(٧٧) توحيد خواص الخواص :

في حقيقة عالم التوحيد المبني على التفريد بعد أداء حق التجريد، وهو أن يفردك الحق بفردانيته عند استيلاء سلطان الذكر حتى تخرج من قشور الحروف والصوت، فتفنى بسطوة بقية وجودك الذاكر وبقية سلطنة إثباته، فثبتوت المذكور عن الذكر بدوام الذكر على مقتضى قوله ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢]، فيصير حينئذ الذاكر مذكورا، والمذكور ذكرا. مع ملاحظة أن لا يصير العبد رب ولا الرب عبد. ويستبدل الأين بالعين والمباينة بالمعاينة والأينية بالوحدانية، وفنى عن نفسه وعن غيره بالكلية في عين جمع الجمعية مشاهد الذات الحقيقة الصمدية المنزهة عن الجسمية الكشفية واللطيفة وتوابعها ولوازمها بالكلية، ولا يرى إلا الواحد الحق أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١]. هذا توحيد خواص الخواص.

(٧٨) المراقبة : هي استدامة علم العبد بإطلاع الرب عليه.

(٧٩) معرفة أهل المشاهدة الخصوصية :

وحقيقة العارف سائر طائر، ثم السير يستدل بالطير، فالسير يكون في مقامات النفس المطمئنة، والطير يكون في مقامات الروحانية العلوية، ثم يستدل الطير بالجذبات السرية، فالجذبة تبعده عن إنابته وتقربه لهويته إلى أن تورث الجذبة المشاهدة، فالمشاهدة أحضرته معه وغيبته عنه إلى أن ظهر بالعيان، فالعيان يسحقه والعين تمحقه، ثم يحققه الحق ويزهق باطله، فيكاشف بأنوار غيب الغيب، فيطالع أسرار الملك والمكلوت ويتيه في تيه العظموت والجبروت حتى تتجلى له شمس الربوبية عن سماء العبودية، فأشرقت أرض البشرية بنور ربها، ويرقى في المقام إلى تلالؤ نور الألوهية المستفاد من الله تعالى ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [النور : ٣٥]، ثم نفخة الألطاف الربوبية، وانفتح في عين الشمس باب الهوية، وانغمس فيه المنغمس، ثم لا تسأل :

قد كان ما كان مما لا أفوه به   فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

فاستضاءت الآفاق الجسدانية بضوء الشريعة، وظهرت المشكاة النفسانية بلوامع الطريقة وتنورت الزجاجة القلبية بأنوار حقيقة الروحانية، وأشرق المصباح الروحية بنار نور الألوهية، وبدت شجرة الوحدانية ونودي موسى السر ﴿أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [القصص : ٣٠]، فانمحت الجهات وتلاشت الصور وانطمست الأبعاض وانعدمت الأجزاء، وسطعت عزة الوحدانية بتجلي نور الصمدانية الربانية، فتدكدك جبل الإنسانية الروحانية صعقا، فاحترقت الغيرية بنار الغيرية، وارتفعت الشركة وبقيت الوحدة متعززا برداء الكبرياء والعزة متزرا بإزار العلاء والعظمة وحده لا شريك له ﴿كُلُّ شَيْءٍ

هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص : ٨٨]، هذا وإن ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال : ١٧]، وهذا وقت ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم : ٣]، وهو سر « كنت له سمعا وبصرا ولسانا فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق » ولعمري إن هذا حال من كوشفت بأسرار « كنت كنزا مخفيا فلما كوشف الغطاء وذهب الجفاء ودام اللقاء ف ﴿مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم : ١١]، وللقلب ما زوى، فرعى في رياض المعرفة، وشرب من حياض المحبة، وسقى بكأس الجمال بشراب الجلال من بحر الوصال فاستراح من حروب القيل والقال، وكثرة السؤال وتغير الأحوال؛ إذ تجافى عن المحاط المطلق به غيب الغيب المحيط المطلق فتحقق له ﴿ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ [فصلت : ٥٤]

أبان الحق ليس به خفاء وباح السر وانكشف الغطاء

فنفسي زائل والروح نادت فلم يبق التكبر والصفاء

بقاء الحق أفنانا فأفنى بقاء فنائنا ذاك البقاء

تجلت سطوة الجبروت حتى فنينا ثم إذ فنى الفناء

هذا مقام المعرفة بمشاهدة الحقيقة التي تعرف به الرب كما قال صلى الله عليه وسلم: «عرفت ربي ولولا فضل ربي ما عرفت ربي » زرقنا الله وإياكم كمال الإيمان، وهذا المقام ويثبت أقدامنا على الصراط المستقيم يوم تزل الأقدام.

فافهم الرموز من اللغوز تفتح لك الكنوز وتعطى في الدارين السعادة والفوز، وفي هذا القدر كفاية لمن وفقه الله تعالى.

(٨٠) (٨١) السالك والمجذوب:

ومن الألفاظ المتداولة على ألسنة السادة الصوفية مصطلحا" السالك والمجذوب "فإن من المريدين من هو سالك، ومنهم من هو مجذوب، ومنهم من هو مجذوب سالك، ومنهم السالك المجذوب، وكل هذه مراتب، فالطريق إلى الله وإن كان واحدا لكن الاختلاف يكون من جهة المريدين، ومثلما تتفاضل منزلة الأنبياء حيث قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، تتفاضل منازل الأولياء، وكذلك تتفاضل منزلة المريدين وتتفاوت مراتبهم، فلنتعرف على الفرق بين السالك والمجذوب.

السالك هو: الذي يقطع الطريق بالمجاهدة والرياضة.

والمجذوب هو: من جذبه الله سبحانه وتعالى إليه أولا، فقطع المقامات والأحوال دون مشقة، وتكاثرت المعارف في قلبه، ففاضت عليه.

والسالك المجذوب هو: من يسلك الطريق إلى الله حتى يصل إلى الانجذاب، أي حتى يملك الله عليه قلبه وجوارحه وتفيض أنواره عليه، ولا يرى شيئا في الكون إلا من خلاله تعالى.

وأما المجذوب السالك فهو: من ينجذب وهو في بداية سيره، ويكمل سيره بعد أن فاضت عليه أنوار المعرفة والمحبة.

فالسالك المجذوب هو من بدأ بالسلوك وانتهى بالجذب، والمجذوب السالك هو من بدأ بالجذب وانتهي بالسلوك، وكلاهما مريد، ومراد.

مريد؛ لأنه أراد أن يسير طريقه لله، ومراد؛ لأنه لو لم يكن مراد لله لما جذبه إليه، فصار مجذوبًا.

وقد رأى بعض العلماء أن الأساس الذي يشير إلى حالة الجذب والسلوك هي قول الله

تعالى : ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى : ١٣] وقد تكلم عن هذه الآية الشيخ ابن عطاء الله السكندري ونقل كلام شيخه سيدي أبي العباس المرسي [1] كما في لطائف المنن فقال: "الناس على قسمين: قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله، وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله، قال سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾[الشورى : ١٣]

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن من الناس من حَرَّكَ اللهُ همته لطلب الوصول إليه، فصار يطوي بها نفسه، ويبدأ طبعه إلى أن وصل إلى حضرة ربه، يصدق على هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا...﴾

ومن الناس من فاجأته عناية الله من غير طلب ولا استعداد، ويشهد لذلك قوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاء﴾ [آل عمران:٧٤]، والأول حال السالكين، والثاني حال المجذوبين؛ فمن كان مبدأه المعاملةْ فنهايته المواصلةْ، ومن كان مبدأه المواصلةْ رد إلى وجود المعاملةْ.

---

١ – جاء في كتاب شجرة النور الزكية [١/ ٢٦٩] في ترجمة أبي العباس المرسي: " أبو العباس أحمد بن عمر المرسي الأنصاري: الإمام العارف بالله الكامل الولي القطب الواصل العالم العامل أخذ عن الإمام أبي الحسن الشاذلي لازمه في الظعن والإقامة وانتفع بصحبته وورث سره وكان الخليفة بعده وعنه جماعة منهم تاج الدين بن عطاء الله والشيخ ياقوت العرشي والإمام البوصيري ناظم البردة وأبو العزائم ماضي بن سلطان وغيرهم كان له مجلس عظيم في الحقائق والمعارف والرقائق وكان تدريسه التهذيب ورسالة ابن أبي زيد والإرشاد في الأصول والمصابيح في الحديث وتفسير ابن عطية والإحياء وقوت القلوب ونوادر الترمذي الحكيم، توفي بالإسكندرية سنة ٦٨٣ هـ[١٢٨٤م]، وقبره هناك معروف متبرك به". وانظر كذلك في ترجمته كتاب لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه الشاذلي أبي الحسن لابن عطاء الله السكندري

ولا تظنن أن المجذوب لا طريق له، بل له طريق طَوَتْهَا عناية الله له، فسلكها مسرعًا إلى الله عَجِلًا، وكثيرًا ما تسمع عند مراجعات المتسببين للطريق أن السالك أَتَمُّ من المجذوب؛ لأن السالك عرف الطريق وما توصل إليه، والمجذوب ليس كذلك، وهذا بناء منهم على أن المجذوب لا طريق له، وليس الأمر كما زعموا؛ فإن المجذوب طُوِيَتْ له الطريق ولم تُطْوَ عنه، ومن طُوِيَتْ له الطريق لم تَفُتْهُ ولم تَغِبْ عنه، وإنما فاتَه متاعبها وطول أمدها، والمجذوب كمن طُوِيَتْ له الأرض إلى مكة، والسالك كالسائر إليها على أكوار المطايا"[1]

وقد تحدث العلماء عن أيهما أفضل فتساءلوا: هل الأفضل هو السالك الذي يسير بالهوينا[2] حتى يصل إلى أن يكون الله ولا شيء معه في قلبه؛ فيتخلص من السوى، أم أنه من جذبه الله سبحانه وتعالى إليه، ومن حبه في الله وجذبته لله سبحانه وتعالى تحركت جوارحه في البعد عن المعاصي وفي امتثال الطاعات وصار مجذوبًا سالكًا.

تفاوتت الطرق في تفضيل أحدهما على الآخر، وعلى هذا الأساس اختلفوا في طرق التربية؛ فمنهم من اختار تقديم تحصيل الجذب؛ حتى يسهل عليه فيما بعد السير في الطريق، فيسلكه بسهولة ويسر، ويسهل عليه فعل الأوامر وترك المنهيات.

ومنهم من اختار التربية من أجل الوصول، فيبدأون بالسلوك أولا حتى يصل المريد إلى الجذب بعد المعرفة.

وكما يقول الإمام البوصيري[3] في البردة :

---

١ - "لطائف المنن، في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن" للإمام أحمد بن عطاء الله السكندري صـ١٥٦ وما بعدها تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ط.دار المعارف

٢ - الهوينا : التؤدة والرفق والسكينة انظر المخصص: لابن سيده ٤/ ٣٨ ط.دار إحياء التراث، بيروت

٣ - هو الإمام أبو عبد الله شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الدَّلاصي الصُّنهاجي الشاذلي البُوصيري

وكلهم من رسول الله ملتمسٌ.. غرفًا من البحر أو رشفًا من الدِيَم

وواقفون لديه عند حَدهمُ .. من نقطة العلم أو من شَكلة الحِكم

فمن المهم أن ندرك هذه المناهج في التربية، حتى لا ننكر من غير معرفة بسبب التنوع بين الطرق.

تفصيل لمعنى التخلِّي والتحلِّي والتجلِّي:

التخلية تفريغ القلب من الشواغل والمشاغل، والتحلية هي تجميل القلب بالصفات العالية: من التوكل، ومن الحب في الله، ومن الاعتماد على الله، ومن الثقة بما في يد الله... إلخ.

وعندما ألف الإمام الغزالي كتابه "إحياء علوم الدين" جعله أربع أرباع، ربع العبادات و ربع العادات و ربع المهلكات و ربع المنجيات، فبدأ النصف الأول منه بمتعلقات الجوارح في أحكام الله سبحانه وتعالى بدءا من العبادات التي هي معاملة لله سبحانه، ثم أبواب المعاملات التي هي في التعامل مع البشر، في البيع والشراء وفي الزواج والطلاق وفي القضاء

قدّس سره صحب الإمام أبي العباس المرسي وانتفع به وسلك الطريق على يده حتى صار من أكابر الأولياء ومن أصحاب المقامات وقد أشهر الله ذكره لمدحه سيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم بقصيدة سارت بها الركبان وتناقلها المحبون وهام فيها الأولياء والصالحون وهي القصيدة المشهورة بالبردة التي منها الأبيات المذكورة هنا وهي قصيدة مباركة جربت لاستجابة الدعاء ولقضاء الحاجات وما ذلك إلا لأنها اشتملت على طاعة من أحب الطاعات إلى الله وهي إظهار محبة سيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم وإبراز مكانته العلية، وأول من ناله بركة هذه القصيدة هو الإمام البوصيري نفسه حيث كانت سببا في شفاءه من الفالج بعد أن توسل بها إلى الله توفي رضي الله عنه ٦٩٦ هـ وقبره مشهور يزار ويتبرك به وهو بالإسكندرية بجوار شيخه أبي العباس المرسي، انظر ترجمته في طبقات الشاذلية الكبرى للفاسي صـ ٧٩

والشهادات..إلخ ؛ لأن معرفة أحكام الله والالتزام بها هي عين الطريق إلى الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك عندما طلبوا من أحد العلماء ذات يوم أن يؤلف لهم كتابا في الزهد فقال لهم ألفت لكم كتابا في البيوع[1]! وكأنه يريد أن يقول لهم التصوف والزهد هو طاعة الله تعالى في فعل الحلال واجتناب الحرام.

ثم جعل الإمام الغزالي النصف الثاني من كتابه عن متعلقات القلب والباطن فبدأ بالمهلكات ثم المنجيات فبين أنه لكي يصل الإنسان إلى المنجيات لابد أن يتخلى عن المهلكات.

فبين أن من المهلكات البخل والكذب والكبر والرياء وحب الدنيا والتعلق بها.

إذن فالتخلية معناها التخلي عن القبيح، والتحلية هي التحلي بالصحيح، فالكبر عكسه التواضع فإذا خليت القلب منه فلابد أن يتحلي قلبك بالتواضع لله، ومن تواضع لله رفعه.

وتجد في الواقع أنه كلما طهر من قلبك شيئا سيئا فتجد في نفس ذات الوقت دخلت الأشياء الجميلة، فهما وجهان لعملة واحدة. فعندما أخلي قلبي من الكبر، فبمجرد خروج الكبر من القلب فيكون التواضع، ومجرد خروج الشحناء أو البغضاء أو الحقد أو الحسد أو الغل من القلب فنجد الحب والرحمة والرأفة والرفق.

والسالك إلىٰ اللهّٰ في المرحلة الأولىٰ من الطريق، لابد له من التوبة كما بينا، والتي منها التخلِّىٰ من القبيح، والتحلِّىٰ بالصحيح، لكن تأتي توبة أخرىٰ بعد ذلك، في مرحلة ثانية، يتشوق فيها قلب هذا التقي النقي، الذي خلىٰ قلبه من الشواغل والمشاغل؛ وخلىٰ نفسه وجوارحه من المعصية، ثم خلىٰ قلبه من الشوائب، ثم حلىٰ قلبه بتلك المعاني الفائقة الرائقة

---

(١) القائل هو الإمام المجتهد محمد بن الحسن الشيباني صاحب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنهما ؛انظر : المبسوط للسرخسي ١٢ / ١١٠ ط.دار المعرفة -بيروت

فعند ذلك يحدث له ما يسميه أهل الله التجلي .

والتجلي وهو أن تتجلى على قلبك الطمأنينة والسكينة والرحمة وتنكشف لك الحقائق الكونية التي تعينك على التمسك بالإيمان والتي تعينك على عبادة الله كأنك تراه، فالتجلي كما يقول السادة الصوفية هو التخلُّق بأخلاق الله التي يمكن لنا التخلق بها ؛ فالله تعالىٰ رحيم، فلابد من أن نكون رحماء، والله تعالىٰ رءوف، فلابد من أن نكون كذلك، والله تعالىٰ غفور فلابد أن نكون متسامحين، نغفر للآخرين، ويصبح الإنسان في رضا عن الله، عنده تسليم تام بقدر الله، ويحصل له اليقين فيما عند الله وتظهر له حقيقة الدنيا ؛ وحتى نقرب إلى أذهاننا مراتب التخلي والتحلي والتجلي نذكر حديثا عن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وهو ما رواه الطبراني وغيره أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقي أحد أصحابه واسمه حارثة فقال له :" كيف أصبحت يا حارث؟ قال: أصبحت مؤمنا حقا. فقال: «انظر ما تقول؟ فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» فقال: قد عزفت نفسي عن الدنيا، وأسهرت لذلك ليلي، واظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال: «يا حارث عرفت فالزم"[(١)]

فترك التعلق من الدنيا وهو من التخلي، والإقبال على الله بالطاعات وهو من التحلي يحصل للإنسان التجلي الذي يكون بحصول اليقين والمعرفة التي لا يعتريها الشك والريبة.

وهذه الأخلاق التي نتخلق ونتحلى بها هي في نموذجنا المعرفي الإسلامي مطلقة ثابتة فالقول بنسبية الأخلاق وخضوعها للملصحة من النماذج المرفوضة التي تغلب المصالح على المبادئ، بينما في النموذج المعرفي الإسلامي فإن الأخلاق ثابتة تتجاوز الزمان والمكان،

---

(١) رواه الطبراني في الكبير الحديث : ٣٣٦٧، والبيهقي في شعب الإيمان باب الزهد قصر الأمل، حديث رقم ١٠١٠٧، كلاهما عن الحارث بن مالك .

فالصدق حسن شرعا، والكذب قبيح شرعا على طول الزمان ومهما تغيرت الأحوال.

إذن فعلى السالك إلى الله أن يتخلى عن كل خلق قبيح ويتحلى بكل خلق صحيح فإنه إذا يداوم على ذلك يكرمه الله التجلي فيدرك المعاني والأسرار بعد أن شاهد الحقائق ونظر إليها بعين قلبه.

كيف نصل إلى التخلي (إجراءات التخلية)

ذكرنا من قبل أنه بمجرد التخلية من القبيح سيتم التحلية بالصحيح، وهذا مثل التواضع والكبر، والحب والكراهية، والصفاء والشحناء. فنحن نركز على التخلية ونقدمها في الذكر والدراسة والنظر، لأن التخلية والتحلية وجهان لعملة واحدة والعالم لا يعرف الفراغ.

تتم التخلية بأمور منها :

١ –**المعرفة :** وذلك بأن تدرك حقيقة نفسك أنك ستموت، وأن ما تجمعه من مال وجاه ستتركه لامحالة، وأن بعد الموت هناك حساب وجزاء وجنة ونار ..

٢ –مراقبة الذات:

فإذا حصلت المعرفة التي شرحناها دفعك ذلك إلى العمل حتى تحاول تدارك ما بقي من عمرك قبل الفوت والموت، ولا تحصل لك ثمرة العمل ما لم تراقب نفسك قبل العمل وأثناءه وبعده، فلا تخطر لك خواطر الرياء والعجب والغفلة عن الله بل تدفعها على الفور بتعظيم من تقدم له هذا العمل، دون ما سواه.

٣ – الهمة:

الهمة هي عبارة عن قرار يتخذه الإنسان السالك في النهوض وترك التواني والكسل في الطريق إلى الله .

كنا نذهب للشيخ عبد الله بن الصديق الغماري ونسأله، عن أذكار تحدث بنا الهمة، فكان يضحك ويقول: لا يوجد!

فالهمة وكأنها هي سر التكليف، فقد كلفك الله حتى تعمل، وليست الأذكار هي التي تؤثر بك وتعينك.

الهمة هي قرار من الإنسان، أنني سأنجز عملي في كذا – أي قدر من الوقت–، وسأبتعد عن كذا، وذلك يستلزم منك قوة داخلية وعزيمة على تنفيذه، وذلك يذكرنا بقول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وسلم: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير".[1]

وقد تتفاوت قوة الإنسان وضعفه في جوانب حياته، فيكون قويًا في شيء ضعيفًا في شيء، فقد كان سيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه ذا فصاحة وقوة وبلاغة في الشعر، لكنه كان لا يحسن القتال ولا يقوى عليه، ففي الحديث عن أم عروة، عن أبيها، عن جدها الزبير، قال: "لما خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نساءه بالمدينة خلفهن في فارع، وفيهن صفية بنت عبد المطلب، وخلف فيهن حسان بن ثابت، وأقبل رجل من المشركين ليدخل عليهن، فقالت صفية لحسان: عندك الرجل. فجبن حسان وأبى عليه، فتناولت صفية السيف فضربت به المشرك حتى قتلته، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «فضرب لصفية بسهم كما كان يضرب للرجال"[2]

والذكر هو الوقود لعقل الإنسان، فهو الذي يفيد في المعرفة والمراقبة ويساعد عليها

(١) صحيح مسلم :كتاب القدر – باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله الحديث رقم: ٢٦٦٤

(٢) مسند أبي يعلى حديث رقم : ٦٨٣، وانظر سبل الهدى والرشاد في هدي خير العباد للصالح الشامي ٤/ ٣٧٢ ط.دار الكتب العلمية

ويساعد كذلك في زيادة الهمة بعد وجودها .

إذن هذه الأمور التي هي المعرفة والمراقبة ووجود الهمة تساعد وتفيد في حصول التخلي قبل تحقق التحلي وصولا إلى التجلي .

أسماء الله الحسنى

التخلق والتعلق بها ومعرفة الاسم الأعظم:

المتأمل للكون حوله يجد أن أسماء الله الحسنى تسري في الكون كله، فوجود الكون على ما به من إبداع، وإعجاز هو تجلي لأسمائه تعالى في كل صورة من صوره، فرؤية الطير تغدو خماصا وتعود بطانا تجلي لأسمه تعالى الرزاق، عندما ترى الحيوانات العجماء كيف تحنو على صغارها فتطعمهم وترعاهم يتجلى اسمه تعالى الرحمن، عندما ترى طفلا صغيرا ينجو من تحت أنقاض بيت منهدم دون أن يصيبه أذى يتجلى اسمه تعالى الحفيظ، وهكذا فأسماء الله تعالى تتجلى في كل ما حولنا من الكون الفسيح إذا ما تأمله الإنسان.

وهذا التجلي يشعر به ويراه الذاكر وغير الذاكر الطائع والعاصي غير أن إدراك وتدبر معانيها وتجليتها يتفاوت بين البشر حسب تعلق قلوبهم وضراعتها، فهناك قلب لاه، غير ملتفت لحكم الله من حوله، وهناك قلب ضارع منتبه تشرق عليه الأنوار فور تجليها.

والقلوب الضارعة هي القلوب المتعلقة بالدعاء والذكر، سواء كانت تدعو لأمر دنيوي، كحاجات الدنيا من رزق وستر وغيره، أم كانت تدعو لأمر أخروي كالجنة والمغفرة والرحمة يوم الحساب، والدعاء في تلك الحالتين عبادة؛ لأن بها يستشعر العبد أن له ربًا خالقًا قادرًا عالمًا يتعلق به ويلجأ إليه عند جميع حاجاته،

فعن النعمان عن بشير رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : "الدعاء هو العبادة " (١)

---

(١) رواه الترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن، باب من تفسير سيورة البقرة وقال حديث حسن صحيح، الحديث ٢٩٦٩

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ليس شيء أكرمَ على الله من الدُّعاءِ»(١)

التخلق بصفات الله

يقول السلف الصالح: "تخلقوا بأخلاق الله". فكيف يمكن لنا هذا التخلق؟

لله تعالى صفات جمال وصفات جلال وصفات كمال، والتخلق بأخلاق الله إنما يقصد به التخلق بصفات الجمال كالرحمة والكرم والإحسان ...

وكي يتخلق الإنسان بصفة الرحمة عليه أن يكون رحيمًا مع جميع مكونات الكون من إنسان وحيوان ونبات وجماد؛ لأنه يدرك أنه يتعامل مع كون حي كل ما فيه يسبح الله تعالى ويعبده .

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ومن الرحمة بالكون التأدب في التعامل مع خلق الله، فأهل الله علمونا مثلا ألا ندفع الباب بقوة من خلفنا؛ لأنه كائن من مكونات الكون يسبح لله تعالى.

فإذا علمنا ذلك ما استطعنا أن نلقي في النيل ما يلوث ماءه مما ينافي شكر نعمة الله علينا فيه .

وعندما رأى الناس من المسلمين مثل هذه التعظيم لنعم الله والمحافظة على خلق الله، وحسن تعاملهم حتى مع الجماد والحيوان فضلا عن الإنسان دخلوا في دين الله أفواجا.

---

(١) رواه الترمذي في سننه كتاب الدعوات، باب ما جاء في قضل الدعاء، الحديث رثم ٣٣٧٠، قال العراقي في تخريج إحياء علوم الدين : أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد.

وبلغ من تخلق المسلمين بخلق الرحمة أن جعلوا في تأسيس مبانيهم ومساجدهم أماكن لطعام الطيور والدواب وشربها، فنجد الأمير محمد بك أبو الدهب[1]عندما بنى مسجده المقابل للجامع الأزهر الشريف جعل في منارته أربعة صوامع يملأها بالقمح لإطعام الطيور، وألحق به من الجهة الغربية تكية وحوضًا وسبيلا لسقى الدواب، وحرصًا على دوام تلك الرحمة بالدواب والطيور كانوا ينصون عليها في شروط الوقفيات التي كان يوقفها أهل الخير.

هذا هو التخلق بصفة الرحمة، تأسيا برحمة الله تعالى بجميع خلقة وجميع ما في الكون من كائنات، وهكذا يكون في كل صفات الجمال.

التعلق بصفات الله :

أما صفات الجلال كالمتكبر والمنتقم والمميت والقهار وغيرها فواجب الإنسان معها هو التعلق بها أي أن يملأ قلبه من المهابة والتعظيم والإجلال لهذا الملك العظيم جل جلاله الذي يتصف بهذه الصفات التي تعبر عن عظمته وجلاله وقهره ؛ فلا يجد المسلم حينما تنزل به الشدائد وتعيه الحيلة من اللجوء والتعلق بأسماء الله التي يستمد بها المعونة والتأييد من رب العالمين جل في علاه فيلهج المسلم باسمه تعالى القهار أو غيره إقرارا بعجزه عن دفع الضر عن نفسه وطلبا للعون من الله على قهر هذه المعوقات التي تعيقه في دنياه وهو في طريقه إلى الله.

وكل ذلك تعلمه الصوفية من قول الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾

---

(١) الأمير محمد أبو الدهب سنة ١١٨٧ هـ - ١٧٠٣م، وكان أبو الذهب تابعا لعلى بك الكبير أحد أمراء مصر، اشتراه سنة ١١٧٥ هجرية ~ ١٧٦١م وقلده الإمارة وعرف بأبى الذهب لأنه لما ارتدى الخلعة بالقلعة صار ينثر الذهب على الفقراء في طريقه إلى منزله، وعظم شأنه في وقت قصير إلى أن انفرد بإمارة مصر

[الأعراف: ١٨٠] ؛ وقد صنف الإمام الغزالي كتابا سماه " المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى " بين فيه في كل اسم من أسماء الله، وما الذي ينبغي أن يقوم به المسلم تجاهه تخلقا أو تعلقا؛ ليعلم الناس كيفية التعامل مع الأسماء الحسنى على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه .

اسم الله الأعظم:

أخفى الله سبحانه وتعالى اسمه الأعظم في سائر الأسماء الحسنى حتى ندعوه بها جميعها، فنصيب بركة كل الأسماء ونتخلق ونتعلق بها جميعا .

والاسم الأعظم هو كما يقول العلماء "الذي إذا ما دعي به ربنا أجاب".

ولما كان اسم الله خفيا بين الأسماء الحسنى حاول العلماء أن يستنبطوا تعيينه من خلال تتبع النصوص الشرعية كما حاولوا مع تعيين ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان :

١- فقيل إن اسم " الله" هو الاسم الاعظم؛ لأنه له خصوصية ليست لغيره من الأسماء، وهو الذي وضعت بإزائه الذات العلية، ويدل بكله على الله عز وجل، فكلما حذف منه حرف دل على الله، وليس ذلك لغيره من الأسماء.

٢- وقيل: الاسم الأعظم هو "هو" لحديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم : فعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وسلم قَالَ: " اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وَفَاتِحَةِ آلِ عِمْرَانَ ﴿الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢] (١)

والاسم الذي يتكرر في هاتين الايتين هو الاسم " هو".

٣- وقيل: إن الاسم الأعظم هو " الحي" أو " القيوم" لما روي عَنْ أَنَسٍ بن مالك رضي

١ -أخرجه الترمذي في سننه كتاب الدعوات - باب جامع الدعوات عن النبي صلى الله عليه وسلم، الحديث ٣٤٧٨ وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح

الله عنه أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وسلم جَالِسًا وَرَجُلٌ يُصَلِّي ثُمَّ دَعَا " اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ ". فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وسلم : «لَقَدْ دَعَا اللَّهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»[١]

٤- وقيل: إن الإسم الأعظم هو حالة تعتريك من البراعة والالتجاء إلى الله، فتدعو بأي اسم ويكون قلبك حاضرا.

فيقول الحافظ بابن حجر "المراد بالاسم الأعظم كل اسم من أسماء الله تعالى دعا العبد به مستغرقا بحيث لا يكون في فكره حالتئذ غير الله تعالى فإن من تأتى له ذلك استجيب له"[٢] ومعنى كلام ابن حجر أن العبرة في حصول بركة الاسم الأعظم بحالة المرء من الاضطرار والإخبات وغير ذلك .

٥- ويرى بعض السادة الصوفية أن المسألة تتعلق بمقام الشخص عند الله ومدى ترقيه في السلوك إلى الله فيروى عن القطب الشهيد سيدي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه أنه قال لتلميذه سيدي ابي الحسن الشاذلي رضي الله عنه : " يا (أبا الحسن) انك أردت أن تسأل الشيخ عن اسم الله الأعظم، ليس الشأن أن تسأل عن اسم الله الأعظم، إنما الشأن أن تكون أنت هو اسم الله الأعظم، يعني أن سر الله مودع في قلبك "[٣] .

---

١ -رواه أبو داود في سننه كتاب الصلاة با ب الدعاء حديث رقم ١٤٩٥، ورواه ابن حبان في صحيحه كتاب الأدعية، باب ذكر اسم الله العظيم الذي إذا سأل المرء ربه أعطاه ما سأل الحديث رقم ٨٩٣

٢ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١١/ ٢٢٤ ط.دار المعرفة بيروت

٣ - انظر كتاب "القطب الشهيد عبد السلام بن مشيش" للشيخ الدكتور عبد الحليم محمود صـ ٣٥ ط.دار المعارف

ومن كل هذه الأقوال نخرج بأن على الإنسان أن يجتهد في طلب الاسم الأعظم عبودية لله وطلبا للنجاة من كل ما يعيق عن الوصول إليه جل في علاه، ولا ييأس من رحمة الله ولا يمل من الإقبال على مولاه.

المقامات والأحوال عند الصوفية

يراد بالمقام عند الصوفية: مقام العبد بين يدي الله فيما يُقَامُ فيه من العبادات، والمجاهدات، والرياضات، ومن أمثلة المقامات عندهم: التوبة، والزهد، والورع، والفقر، والصبر، والرضا، والتوكل وما إلى ذلك.

أما (الأحوال) فهي: ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب، من صفاء الأذكار.

ومن أمثلة الأحوال عندهم: المراقبة، والقرب، والمحبة، والخوف، والرجاء، والشوق، والأنس، والطمأنينة، والمشاهدة، واليقين، وغير ذلك.

وقد فرق الصوفية بين: (المقام) و(الحال) تفرقة دقيقة. فـ:(المقام) عندهم يتصف بالثبوت. أما(الحال) فيأتي ويزول.

والمقام يحصل للسالك بكسبه وإرادته، على حين أن الحال وارد عليه دون تعمد منه.

وإلى هذا يشير القشيري في رسالته بقوله: "الحال معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم -أي: من الصوفية-، ولا اجتلاب، ولا اكتساب لهم من طرب أو حزن أو بسط أو قبض أو شوق أو انزعاج أو هيبة أو احتياج. فالأحوال: مواهب، والمقامات مكاسب. والأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود، وصاحب المقام ممكن في مقامه، وصاحب الحال مترق عن حاله.[1] "

الإشراقات والخواطر:

علمنا أن الطريق إلى الله أساسه التخلية والتحلية، التخلي من كل قبيح والتحلي بكل صحيح، وذلك يجعلنا نصل إلى التجلي، ومن هذا التجلي رؤية ما يسمى بالإشراقات والأنوار وعن هذه الإشراقات يقول سيدي ابن عجيبة: "جعل الله قلب الإنسان كالمرآة

---

١ – انظر الرسالة القشيرية ١/ ١٥٤

الصقيلة ينطبع فيها كل ما يقابلها، وليس لها إلا وجهة واحدة؛ فإذا أراد الله عنايته بعبد شغل فكرته بأنوار ملكوته، وأسرار جبروته، ولم يعلق قلبه بمحبة شيء من الأكوان الظلمانية والخيالات الوهمية، فانطبعت في مرآة قلبه أنوار الإيمان والإحسان، وأشرقت فيها أقمار التوحيد وشمس العرفان"[1]

وهذه الإشراقات نحن لا نقف عندها ولا نلتفت إليها حتى لا ننشغل بها عن استكمال الطريق، إلا أننا ندرك أنها نعمة من نعم الله علينا تستوجب الشكر الجليل لرب العالمين.

وهذه الأنوار التي تتلألأ في القلب، في بعض الأحيان قد تفتن صاحبها، ونحن نريد أن نعبد الله مخلصين له الدين، لا نستلذ بهذه المعاني ولا نفتتن بها، ولا نزداد بها تعلقا وتأملا لما قد يكشفه الله لنا من عالم آخر، وهو عالم الملكوت.

وقد قسم العلماء العوالم التي خلقها الله إلى: عالم الملك، وعالم الملكوت، وهناك عوالم أخرى غيرهما كعالم الجبروت[2].

فعالم الملك: هو عالم الظاهر ، وهو كل ما أدركه الإنسان بحسه المعتاد من سمع وبصر ولمس، كإدراكه للشمس والشجر والانهار والبحار والدواب، وكإدراكه لما لا يراه ولكن يرى آثاره كالكهرباء، وهو مما يتساوى في إدراكه جميع البشر.

وقد أشار القرآن الكريم عن هذا النوع من العالم بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١]، وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

أما عالم الملكوت: فهو ما وراء هذا العالم من حقائق لا تدرك بالحواس الظاهرة، ولا

---

١ – شرح ابن عجيبة على الحكم العطائية صـ٦٣ وما بعدها

٢ – انظر تفصيل وشرح هذه العوالم شرح ابن عجيبة على الصلاة المشيشية صـ ٢٤ وما بعدها

يتساوى في إدراكها جميع البشر، بل يخص الله عزوجل بعض عباده بذلك؛ تفضلا وترقية في المقامات، فكلما ترقى الإنسان في الطريق إلى الله أدرك شيئا من الحقائق الملكوتية المنبئة عن قدرة الله وعظمته وجميل صنعه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا العالم بقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

وممن نص القرآن الكريم على إدراكهم لهذا العالم الخفي سيدنا إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥].

وقد تحدث للمريد هذه الإشراقات والأنوار التي تتجلى له من عالم الملكوت لكي تنقله إلى مرتبة أعلى مما هو فيها، وهي مرتبة اليقين قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]

لذا فينبغي ألا ينشغل السالك بهذه الإشراقات عن مقصوده وهو الله وحده، فما هذه الإشراقات إلا لتثبيته.

ومن الأمور التي قد تحدث للسالك ما يسمى بالخواطر، وهو: **ما يخطر في القلب من تدبير أو أمور[١]، وهو مرادف الهاجس، وقيل: إنهما متغايران. فالخاطرُ هو: اسمٌ لما يخطر ببالك ولا يكون له استقرارٌ في الباطن، والهاجس: هو اسم لما يخطر بالبال ويستقر في الباطن.[٢] وقيل: إن الخاطر هو ما يستقر بالباطن، والهاجس ما لا يستقر.**

وهي كما يقول الجرجاني :" ما يرد على القلب من الخطاب، أو الوارد الذي لا عمل

(١) تاج العروس (١١/ ١٩٤).

(٢) التعريفات الفقهية (ص: ٨٤).

للعبد فيه "[1]

وقد فرق العلماء بين خمسة من مراتب القصد وهما: الهاجس والخاطر وحديث النفس والهم والعزم، نظمها بعضهم في قوله :

مراتبُ القصد خمسٌ هاجسٌ ذكروا   فخاطرٌ فحديثُ النفس فاستمعا

يليه همٌّ فعزم كلُّها رفعت   سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقعا

وقد بينا الخاطر والهاجس، وأما حديث النفس: فهو حديث بين الإنسان ونفسه دون عزم أو إرادة على فعله.

وأما الهم: فهو اجتماع النفس على فعل شيء ما. وأما العزم: فهو القصد على إمضاء الفعل.

ونوضح ذلك بمثال فنقول: لو أنني مرت بخاطري دون قصد صورة زجاجة الخمر وزالت من أمام عيني في الفور فهذا هو "الخاطر"، فلو إنها ظلت تتكرر أمام عيني فهذا هو "الهاجس"، فإذا ما دار حوار بيني وبين نفسي هل أشتريها أم لا؟ فهذا "حديث النفس"، فإذا استقر هذا الحديث الذي بيني وبين نفسي على أن اذهب لشرائها فهذا هو "الهم"، فإذا بدأت في الاستعداد للنزول من أجل شرائها فهذا هو "العزم" وهو الذي يحاسب ويعاقب عليه الإنسان؛ لشروعه في المعصية ولو لم يفعلها.

١ – التعريفات للجرجاني ص٩٥ ط.دار الكتب العلمية وما بعدها

أقسام الخواطر:

وقسم أهل الله الخواطر إلى أربعة أنواع: خاطر رحماني من الرحمن، وخاطر ملكي أي من الملك، وخاطر نفساني، أي من نفس الإنسان، وخاطر شيطاني وهو من الشيطان والعياذ بالله تعالى، ويكون على سبيل الوسوسة، قال تعالى:﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٥، ٦].

ولكل من هذه الخواطر صورته التي يأتي بها فعندما يأتي الخاطر في صورة طيبة وفيها بشرى، أو تعليم للأدب مع الله، أو فتح، فهو الخاطر الرحماني من الله عزوجل، وعندما يكون الخاطر به حالة من الطمأنينة والسلام فهو خاطر ملكي أي من الملائكة، وعندما يكون خاطرا متكررا سواء كان بخير أو بشر فهو الخاطر النفساني أي من النفس والنفس بها الخير والشر، والتكرار علامة أنه من قبل النفس، أما إذا كان خاطرا سيئا يريد الفتنة أو تحليل المحرم أو رفع لتكليف فهو الخاطر الشيطاني.

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] "[1]

ولما كان الأمر كذلك كان من المهم على السالك أن يزن كل خاطر يرد على قلبه قبل أن يتبعه أو يسير وراءه؛ فإذا كان من الخير ثبته وعمل به وإن لم يكن كذلك صرفه وابتعد عنه؛

١ - الرسالة القشيرية ١/ ٦١، والمراد بالنكتة هنا الخاطر الوارد على القلب

وإن أشكل عليه توقف حتى يرجع إلى شيخه، وهذا ما يروى عن أهل الله ؛ قال أبو سليمان الداراني: "ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياما فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة".[1]

ويروى أيضا عن مشايخ الصوفية ما يؤكد أهمية ألا يسير السالك وراء كل خاطر أو ما يبدو له من الإشراقات أو خوارق العادات إلا إذا تأكد من أنه ليس من الشيطان ليشغله عن سيره إلى الله، ومن ذلك ما يحكيه لنا الشيخ عبد القادر الجيلاني فيقول:" خرجت في بعض سياحاتي إلى البرّيّة ومكثت أياما لا أجد ماء فاشتد بي العطش، فأظلّتني سحابة ونزل عليّ منها شيء يشبه النّدى فرويت، ثم رأيت نورا أضاء به الأفق، وبدت لي صورة، ونوديت منها يا عبد القادر أنا ربُّك وقد حللّت لك المحرمات - أو قال ما حرّمت على غيرك- فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، اخسأ يا لعين، فإذا ذلك النور ظلام وتلك الصورة دخان، ثم خاطبني وقال: يا عبد القادر نجوت مني بعلمك بحكم ربِّك وقوتك في أحوال منازلاتك، ولقد أضللت بهذه الواقعة سبعين من أهل الطريق، فقلت: لربِّي الفضل والمنّة. قال: فقيل له: كيف علمت أنه شيطان؟ قال: بقوله: قد حللّت لك المحرمات".[2]

يجب أن نتعلم من أسيادنا الأكابر: "اذهب يا لعين"، فلو كان مراد الله أن يسقط التكليف لأسقطه عن سيد الأولين والآخرين الذي خاطبه ربه بقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أي: حتى يأتيك الموت.

وكما أن لعالم الملكوت وهو "عالم الأمر" أنوارا وإشراقات، فكذلك لعالم الملك وهو

---

١ – سنن الترمذي كتاب التفسير – با ب ومن سورة البقرة الحديث رقم : ٢٩٨٨، وقال الترمذي حديث : حسن غريب .

٢ – شذرات الذهب لابن العماد ٦ / ٣٣٣ وما بعدها

"عالم الخلق" أنوار بها يتوصل لما في عالم الملكوت من أنوار وهي اللطائف الخمس، لطيفة القلب، لطيفة الروح، لطيفة السر، لطيفة الخفي، لطيفة الأخفى.

وسنعالجها بالتفصيل حتى نرى أنوارها في عالم الملك وأنوارها في عالم الملكوت وما بعد ذلك من فوق العرش وخارج العالم.

فصل

في معرفة اللطائف الخمس

اللطائف الخمسة وهي: القلب، والروح، والسر، والخفي، والأخفى، يترقى فيها الإنسان، ويشعر بها في أماكن معينة في صدره؛ فيشعر بنحو برد في الصدر عند الذكر، ويشعر بنحو لذة عجيبة غير موصوفة عند الذكر، ويشعر أيضًا بأماكنها، وهي أماكن معروفة في الجسم، فيترقى مع ترقيه في الذكر والإخلاص فيه، يترقى شيئًا فشيئًا من مرحلة إلى مرحلة.

ومن الأدب مع الله ألا ينقل المريد السالك نفسه من مرحلة إلى مرحلة، بل يجعل الله هو الذي ينقله، ومن الأدب مع الله ألا يتشوف المريد للمرحلة الأعلى بل يرضى ويسلم.

وقد فصل كثير من أهل الله الكلام عن هذه اللطائف عن حقائقها وذكروا أيضا مواضعها، فمن ذلك ما ذكره صاحب كتاب "تذييل الباقيات الصالحات" للشيخ مراد بن عبد الله القزاني النقشبندي وهو ذيل على كتاب "رشحات عين الحياة" الذي ترجم لأعلام الطريقة النقشبندية حيث ذكر أن هذه اللطائف من عالم الأمر، وأن لكل منها موضع ولكل منها نور يدركه الذاكر، وذكر تفاصيل ذلك بشكل مفصل كله ناتج عن تجربة الذاكرين من أهل الله.[١]

وفائدة ذكر هذه اللطائف نقل التجربة الصحيحة للسالكين، لتنبيههم إلى ما قد يعرض لهم أثناء الذكر، حتى يكون الذاكر على بينة من أمره، فلا ينشغل عن ذكر الله ولا ينقطع عن الطريق بسبب تلك العوارض والأمور الحاصلة له .

---

١ – انظر تفصيل الكلام عن هذه اللطائف الخمس وما يتعلق بها في كتاب ذيل الرشحات المطبوع على هامش رشحات عين الحياة صـ٢٠٦ وما بعدها ط.دار صادر

ومن تكلم كذلك عن هذه اللطائف الإمام القشيري في رسالته فيقول عن لطيفة السر: "أنها لطيفة مودعة في القالب، كالأرواح، وأصولهم تقتضي أنها محل المشاهدة، كما أن الأرواح محل للمحبة، والقلوبَ محل للمعارف، وقالوا: السر: ما لك عليه إشراف، وسر السرِّ: ما لا اطلاع عليه لغير الحق"[1]

وجاء فيه " أن النفس والعقل والقلب والروح والسر أسماء لمسمى واحد وهو اللطيفة الربانية النورانية المودعة في هذا القالب الجسماني الظلماني، وإنما اختلفت أسماؤها باختلاف أحوالها" [2]

وهذه اللطائف الخمس لها تعلقات بعالم الملك وعالم الملكوت، ولفهم ذلك ولشدة دقته وتشابكه احتاج السالك إلى الشيخ المعلم المرشد الكامل الذي يصاحبه في الطريق ليوجهه، ويربيه، ويعلمه، ويدله على ربه، ويوفر عليه الأوقات والتجارب، ويحفظه من الدخول في اختبارات قد لا يصمد فيها في بعض الأحيان.

---

١ - انظر الرسالة القشيرية ١/ ٢٠٥

٢ - إيقاظ الهمم شرح متن الحكم صـ٤٢

فصل

في معرفة مراتب النفس

اهتم السادة الصوفية ببيان ماهية النفس وأنواعها، وربطوا ذلك بعملية التربية والسلوك، واستمدوا علومهم من علوم الوحي بالكتاب والسنة، ومن التجربة الصوفية العملية التي يتوارثها العلماء الصالحون والأولياء عبر سلسلة الطريق، فمن خلال ممارسة التربية بالرياضة الروحية يتكشف للإنسان ترقيه وانتقاله عبر مراتب للنفس، فيتعرف على حال كل منها وآفاتها وأوصافها وعلاجها.

ماهية النفس وأنواعها:

١- النفس الشهوانية :

هي البخار اللطيف الحاصل للحياة والحس والحركة الإرادية، وهي التي تسميها الحكماء «الروح الروحاني»، وهي جوهر مشرق على البدن، فإن أشرق على ظاهر البدن وباطنه حصلت اليقظة، وإن أشرق على باطن البدن لا على ظاهره حصل النوم، وإن انقطع إشراقه بالكلية حصل الموت، فسبحان الصانع الحكيم.

٢- النفس الناطقة :

هي جوهر مجرد من المادة في ذاته مقارن لها في أفعاله، وهذه النفس هي التي تسمى بالأمارة واللوامة والملهمة والمطمئنة والراضية والكاملة، فكلما اتصفت بصفات سميت لأجل اتصافها بها لاسم من هذه الأسماء، فإن صادقت النفسَ الشهوانيةَ المذكورة آنفا وصارت تحت حكمها سميت أمارة، وإن سكنت تحت الأمر التكليفي وأذعنت لاتباع الحق لكن بقي فيها ميل إلى الشهوات سميت لوامة، فإن زال هذا الميل وقويت على معارضة النفس الشهوانية وزاد ميلها إلى عالم القدس وتلقت الإلهامات سميت ملهمة، فإن سكن

اضطرابها ولم يبق للنفس الشهوانية حكم أصلا، ونسيت الشهوات بالكلية سميت مطمئنة، فإن ترقت عن هذا وسقطت المقامات من عينها وفنيت عن جميع مراداتها سميت راضية، فإن زاد هذا الحال عليها سميت مرضية عند الحق والخلق، فإن أمرت بالرجوع إلى العباد لإرشادهم وتكميلهم سميت كاملة.

بيان حجب النفس :

واعلم أن بين العبد وربه سبعين حجابا من ظلمة ونور، وهي راجعة إلى العبد؛ لأن الله تعالى لا يحجبه شيء، والمراد من الحجب عند المحققين بُعد المناسبة؛ فافهم، فإنه دقيق.

ولا تعتقد أن الحجب أمور حسية ولا البعد بعد مسافة كما يفهم القاصرون، فإن الله تعالى منزه عن البعد والقرب الحسيين وعن الجهة والمكان والزمان، وسلوك الطريق غرضه تمزيق الحجب السبعين، وهي ترجع إلى السبع مقامات، والنفس في كل مقام محجوبة بعشرة حجب، الحجاب الأول منها أكثف من الثاني، والثاني أكثف من الثالث، وهكذا إلى العاشر، وكذا كل حجاب في كل نفس أكثف من حجب النفس التي بعدها ، وهكذا إلى النفس السابعة.

مراتب النفس الناطقة

المرتبة الأولى: النفس الأمَّارة.

وهذه النفس الأمارة: هي النفس الناطقة، وهي **القلب** الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ** ﴾؛ إذ ليس المراد منه قطعة اللحم، وإنما هي اللطيفة الربانية، لكنها لما تدنست بالميل إلى الطبيعة والركون إلى الشهوات وصادفت النفس الشهوانية. الروح الحيواني. انخرطت في سلك الحيوانات وتبدلت أوصافها الحميدة بأوصافهم الذميمة، وصارت لا تميز عن الحيوانات إلا بالصورة.

فهي نفس خبيثة، وهي التي قالت عنها زليخا امرأة العزيز في قصتها مع يوسف الصديق عليه السلام: ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾، وقال نبينا سيدنا صلى الله عليه وسلم: «أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك». وقال صلى الله عليه وسلم: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

وسير هذه النفس: **إلى** الله تعالى.

وعالمها: عالم الشهادة.

ومحلها: الصدر.

وحالها: الميل.

وواردها: الشريعة.

ومن جنودها: الشيطان.

وأوصافها: البخل، والحرص، والحسد، والكبر، والشره، والغضب، وسوء الخلق، والشهوة، والغفلة، والخوض، والإيذاء باليد واللسان، والاستهزاء والبغض ...

وغير ذلك من القبائح؛ وذلك لأنها واقعة في ظلمات الطبيعة، فلا تفرق بين الحق

والباطل، ولا تميز بين الخير والشر، ولا يقدر الشيطان اللعين على الدخول إلى الإنسان إلا بواسطتها.

فكن منها أيها الأخ على حذر، ولا تأمن لها، ولا تساعدها، ولا تنتصر لها إذا أحد آذاها، بل كن له معين عليها، وحيث أنفقت عداوتها لزمك تقليل الطعام والشراب والمنام لتضعف هذه النفس الشهوانية الحيوانية؛ لأنها إذا ضعفت هان خلاص هذه النفس الشريفة العزيزة العلوية التي سميت بالأمارة عن شبكتها.

وليكن **ذكرك** في هذا المقام بـ «لا إله إلا الله». وتقدم أن يكون بمد «لا» وتحقيق همزة «إله» وفتح هائه فتحة خفيفة، وتسكين آخر لفظ الجلالة، وعدم الفصل بين الهاء وقولك «إلا الله»، وإياك أن تتهاون في تحقق همزة «إله» فإنك إن لم تحققها قلبت ياء، وصار الذكر « لا يله إلا الله»، وهذه ليست كلمة التوحيد، فلا ثواب فيها، ولا بتكرارها.

وهذا الذكر الذي سماه الله تعالى في كتابه العزيز بكلمة التقوى، والكلم الطيب والشجرة الطيبة والعروة الوثقى، وهو أفضل الأذكار وهو حصن الله تعالى قال صلى الله عليه وسلم: «قال الله تعالى: لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي». وقال صلى الله عليه وسلم: «لا إله إلا الله أفضل الذكر، وهي أفضل الحسنات، أسعد الناس بشافعتي من قالها خالصا من قلبه، ما من عبد قالها ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، قيل: يا رسول الله، وإن زنى وإن سرق. قال: وإن زنا وإن سرق، وإن زنا وإن سرق، وإن زنا وإن سرق».

وقال صلى الله عليه وسلم : « جددوا إيمانكم". قيل: وكيف نجدد إيماننا يا رسول الله. قال: "أكثروا من قول لا إله إلا الله لا تترك ذنبا، ولا يشبهها عمل، ليس لها دون الله حجاب، حتى تخلص». وقال صلى الله عليه وسلم: «من صلى الصبح في جماعة ثم قعد يذكر

الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم يصلي ركعتين كان له كأجر حجة وعمرة تامة تامة». وفي رواية أخرى : «انقلب بأجر حجة وعمرة».

وقال صلى الله عليه وسلم: « لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس أحب إلي من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل، ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله من صلاة العصر حتى تغرب الشمس أحب إلى من عتق أربعة أيضا » وقال صلى الله عليه وسلم: «لأن أذكر الله مع قوم بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس أحب من الدنيا وما فيها».

وأكثر منها . لا إله إلا الله . في القيام والقعود والاضطجاع في جميع الأوقات، وذلك بالجهر والقوة، فإن التأثير المطلوب من هذا الاسم لا يحصل إلا بالإكثار والإجهار آناء الليل وأطراف النهار، فإن الذكر بالسر والهوينا لا يفيد رقيا، وبه يطول الطريق على السالك، وعليك بترك الغفلة مع الاستحضار والإجهار، وإذا داوم السالك على ذلك ملأ قلبه بالأنوار، وأودع فيه الأسرار.

فينبغي على الذاكر إذا ابتدأ بقوله : « لا إله » أن يلاحظ في قلبه نفي كل معبود غير الله، ويلزمه أيضا أن يكون قوله: « إلا الله ». بقوة وشدة كأنه يضرب به الجانب الأيسر من صدره، مع الحضور والخشوع، وتغميض عينيه وملازمة الطهارة من الحدث والخبث.

والملازم على هذه الكلمة يرى لها من الأسرار ما لا يدخل تحت حصر، وتورثه التوحيد الخالص المعروف عند القوم، فادخل يا طالب الخلاص حصن مولاك، وخلص نفسك من سجن الطبيعة؛ لتنال المقامات الرفيعة مع المجاهدة، وأكل الحلال، واصقل مرآة قلبك ليزول عنها الران المانع لها من إدراك حقائق الأشياء، وعن فهم دقائق العلوم؛ لأن مرآتك وأنت في هذا المقام قد علاها الصدأ من الكبر والطمع والعجب والشهرة والشره والحقد والحسد والغضب وغير ذلك مما تعرفه من نفسك، كما مر.

واجبات الذاكر :

وإياك أيها الذاكر وأكل الحرام؛ لأن جميع القبائح منشؤها من البطن المملوء من الحلال، فكيف حال من ملأ بطنه من الحرام، ولا بد لك من معرفة ما تحتاج إليه من الفقه مثل معرفة الطهارة والوضوء وإزالة النجاسة، وأركان الصلاة، وغير ذلكم مما لابد منه، وكذلك معرفة شيء من العقائد كمعرفة الواجب وجوده سبحانه بمعرفة صفاته القديمة وما يجب له تعالى ، وما يستحيل وما يجوز، ولا تشتغل بغير ما ذكر من العلوم إلا بعد تزكية النفس وتصفية القلب؛ لأنك قبل ذلك كثير الاحتياج إلى خلاص نفسك من سجن الطبيعة، وصقل مرآة قلبك ليزول عنها الرين المانع لها من إدراك حقائق الأشياء؛ لأن القلب في هذا المقام قد علاه صدأ الكبر والطمع والحسد والعجب والبغض وغير ذلك مما تعرفه من نفسك، فالواجب الأهم في هذا المقام الخلاص من هذه النجاسات التي منعت القلوب عن الدرجات الرفيعة بالذكر الكثير القوي وتقليل الطعام والمنام لتضيق مسالك الشيطان.

فالواجب الأهم في هذا المقام الخلاص من هذه النجاسات التي منعت القلوب عن مطالعة الغيوب بالذكر الكثير، وإنما أمر المشايخ بالذكر الجهري لتستيقظ الأعضاء من الغفلة التي هي فيها، فعليك بالذكر القوي والوقوف على أبواب الشريعة، ومحاسبة النفس كل ساعة وتخويفها بالموت وعذاب القبر، وما بعده من الأهوال وجهنم وعذابها وحياتها وعقاربها؛ لأنك في هذا المقام تترادف عليك حالتان خوف ورجاء، ثم بعد نقلتك من هذا المقام يتبدل خوفك بالقبض ورجاؤك بالبسط، وإذا وصلت إلى درجات الكمال يتبدل القبض بالجلال والبسط بالجمال، ففي هذه الحالة يجب عليك أن تذكر أسباب الخوف؛ لأنه أنفع لك من الرجاء إلا إذا أوصلك الخوف إلى درجة القنوط، فيجب عليك أن تذكر أسباب الرجاء وسعة رحمة الله تعالى وعفوه وكرمه، وعليك بالتذلل والخضوع له تعالى، واطلب الخلاص

منه بلطفه وإحسانه، وأكثر من الدعاء ولا تمل منه، ولا تقل: إن الله تعالى لا يقبل مني؛ لأن ذلك مما يقطعك عن الحق سبحانه وتعالى.

تنبيه : لا يجوز للشيخ المسلك أن ينقل مريده من الاسم الأول إلى الاسم الثاني؛ حتى يتطهر من لوث دنس غبار الأغيار، وتتنور ظلمة ليل وجوده بأقمار معارف الأنوار، ويغيب في وجوده عن مسماه في شهوده، فلا يزال في معراج هذا الاسم صاعدا، وبالاشتغال لنيران اشتعاله واقدا؛ حتى تناديه روحانيته من غير حجاب، وتخاطبه بأفصح خطاب، فحينئذ يشرف على عالم شهادته ويلبس خلع سيادة سعادته.

فإذا اشتغلت في خلاص نفسك من هذه الآفات وبدلت أوصافها الذميمة بأحسن الصفات شاهدت بعض العجائب المكنونة والأسرار المخزونة في صدق البشرية، وفهمت قول المحقق سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه :

دَوَاؤُكَ فِيكَ وَمَا تُبْصِرُ وَدَاؤُكَ مِنْكَ وَمَا تَشْعُرُ

وَتَزْعُمُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ انْطَوَى العَالَمُ الأَكْبَرُ

ويجب عليك وأنت في هذا المقام الضيق القبيح أن يكون توجهك إلى الخلاص من ضيق النفس إلى فضاء الروح، وأن يكون مطلبك التخلي عن الأوصاف الذميمة التي ذكرت، والتحلي بأضدادها وهي الصفات الحميدة، فيتبدل ما فيك من الكبر بالتواضع والبغضاء بالمحبة، والرياء بالإخلاص، والشهرة بالخمول، حتى لا يبقى أحد يذكرك بمدح وذم.

واعلم أنك إذا خلصت نفسك من هذه الآفات شاهدت بعض العجائب والأسرار بعون الله تعالى، وتسمى مكاشفة القلوب.

المرتبة الثانية : النفس اللوامة .

سيرها : إلى الله.

وعالمها : عالم البرزخ.

ومحلها : القلب، وهو أول اللطائف الربانية، ومودعة في الجانب الأيسر، مائلة إلى تحت الثدي والجنب بفاصلة أصبعين، ونسبتها إلى القلب الجسماني الصنوبري الشكل الموجود في جميع الحيوانات، نسبةَ الصبي إلى المهد، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان عند الأكثر، وتسمى حقيقة جامعة، وتسميها الحكماء بالنفس الناطقة، ولكل لطيفة من عالم الأمر نور خاص من عالم الخلق، فللطيفة القلب النور الأصفر من عالم الخلق، ربما يظهر في أثناء السلوك لمن له كشف، فأصل لطيفة القلب من عالم الأمر النفس، وعلى ذلك فأصل القلب الأفعال الإلهية، فيكون فناؤه في التجلي الأفعالي، وعلامة فنائه اختفاء أفعال السالك وأفعال جميع المخلوقات عند نظره، وعدم رؤيته غير فعل فاعل حقيقي، ويقال للولاية القلبية ولاية آدم عليه السلام، ويقال للسالك الواصل من هذه الولاية آدمي المشرب.

وحالها: المحبة.

وواردها: الطريقة.

وصفاتها: اللوم والفكر والعجب والإعراض عن الخلق والرياء الخفي، وحب الشهرة والرئاسة، وقد بقي معها بعض أوصاف الأمارة، لكن مع هذه الأوصاف ترى الحق حقا، والباطل باطلا، وتعلم أن هذه الصفات مذمومة، ولها رغبة في الطاعات وفي المجاهدة وموافقة الشرع، ولها أعمال صالحة من قيام وصيام وصدقة وغير ذلك من أفعال الخير، لكن يدخل عليها العجب والرياء الخفي.

فيحب صاحب هذه النفس أن يطلع الناس على أعماله الصالحة مع أنه يخفيها عنهم، ولا

يظهرهم عليها، ولا يعمل لهم بل عمله لله، إلا أنه يحب أن يحمد ويثنى عليه من جهة أعماله، ومع ذلك يكره تلك الخصلة، ولا يمكنه قلعها من قلبه بالكلية، ولو أمكنه لكان من المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم.

قال صلى الله عليه وسلم: «كل الناس هلكى إلا العالمون، والعالمون هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون». والمخلصون على خطر عظيم؛ وذلك لأن المخلص يجب أن يكون عالما بالإخلاص، وهذا هو الرياء الخفي؛ لأن الرياء الجلي العمل لأجل الناس.

فإن كنت متصفا بهذه الصفات فأنت في المقام الثاني، ويقال لنفسك لوامة، وهو مقام لا يسلم صاحبه من الخطر ولو أخلص في أعماله، وهذا مقام ثاني بالنسبة إلى سلوك المقربين الطالبين الفناء عن نفوسهم، والبقاء بربهم الذين أمروا بالموت قبل انقضاء آجالهم، فقال لهم : موتوا قبل أن تموتوا.

الفرق بين الأبرار والمقربين :

وأما بالنسبة إلى الأبرار أهل اليمين، فهو آخر منازلهم، وأعلى مقاماتهم؛ ولذلك قالوا : «حسنات الأبرار سيئات المقربين » ؛ لأن المقربين لا يقفون عند هذا المقام الثاني، بل يطلبون غيره إلى أن يصلوا إلى سابع مقام، فيكون لهم بعد ذلك خمس مقامات، وإنما يقف المقربون في المقام الثاني، لما فيه من الخطر العظيم؛ لأن أعلى درجات هذا المقام الإخلاص، والمخلصون على الخطر ولا يكون الإخلاص من هذا الخطر إلا بالفناء عن شهود الإخلاص بشهودهم أن المحرك والمسكن هو الله تعالى شهود ذوق، وهذا الشهود متوقف على سلوك طريق المقربين.

وإن الأبرار لا تصل إليه ولا تشم له رائحة؛ لأنهم نظروا أنهم أوجدوا آمالهم فطولبوا بالإخلاص، ولم يشهدوا أن الله تعالى خالق الأفعال كلها، فوقفوا بالعناء والتعب وصار

أحدهم لو دخل في جحر ضب لقيض الله له من يؤذيه، وذلك لما فيه من الشهرة المقتضية للعجب والكبر وسوء الخلق ونحو ذلك، وهذه الأشياء مقتضية للتعب والعناء، وضيق الصدر.

وضرب بعضهم مثالا يوضح الفرق بين الأبرار والمقربين وبين تعب هؤلاء وراحة هؤلاء فقال : مثال ذلك كشجرة عظيمة خبيثة كبيرة الأغصان، كل غصن منها يثمر نوعا من السم القاتل، فجاء أناس فانشغلوا بقطع تلك الأغصان، ولم يلتفتوا لقطع تلك الشجرة من أصلها، ولا لقطع الماء عنها لتيبس، وأرادوا التخلص منها فلم يمكنهم الخلاص ؛ لأنهم كلما قطعوا غصنا نبت غيره؛ لبقاء الشجرة، ودوام سقيها، فجاء الآخرون فقطعوا الماء عنها فضعفت ولم تثمر، فتخلصوا عنها وأراحوا نفوسهم من تعب هؤلاء، فالشجرة مثل بطن الإنسان، والمأكل مثل الماء والأغصان مثل الصفات الذميمة كالكبر والحسد، والثمرة مثال لما يحصل من هذه الصفات من الآثار في الخارج.

فالأبرار لما علموا بالدليل أن هذه الصفات مهلكة للإنسان في الدنيا والآخرة سعوا في إزالتها شيئا فشيئا، ولم يقدروا على الخلاص منها بالكلية؛ لأنهم كلما ملئوا بطونهم بالشهوات تقوى بشريتهم، ويتمكن الشيطان منهم فتقع منهم تلك الأشياء، فيسعون في إزالتها بالتوبة، وهكذا حتى ماتوا، بخلاف المقربين فإنه أماتوا تلك الأشياء بالجوع والمجاهدات، وعملوا بالدليل والتجربة أن البطن هي منبع الفساد والصفات الذميمة فسعوا على الخلاص من شرها بذلك، فتخلصوا من جميع تلك الصفات.

فإذا أردت الانتظام في سلكهم والخلاص من جميع الآلام والراحة على الدوام، فاسلك مسلكهم ، واقفو أثرهم، بالترقي من مقام إلى مقام حتى تصل إلى المقام السابع، ففيه ترى العجائب، والترقي يكون بالمجاهدة والاشتغال بالأسماء في كل مقام تشتغل به باسم

مخصوص بذلك المقام، وكلما أكثرت من الاشتغال به قربت عليك الطريق، وكلما توانيت وأهملت بعدت عليك.

ذكر النفس اللوامة : واشتغل وأنت في هذا المقام بالاسم الثاني، وهو الله الله بسكون الهاء، وكذا بسكون آخر كل اسم من السبعة، وأكثر منه فإنه لا ينفع إلا الإكثار منه آناء الليل وأطراف النهار، واجعل لك أوقاتا تجلس فيها مستقبل القبلة إن أمكنك وغمض عينيك واذكر بهذا الاسم بشدة وقوة ورفع صوت، وارفع رأسك إلى فوق واضرب به صدرك كما مر، ولا تلتفت يمينا ولا شمالا، وحقق همزة «الله»، ومد الألف قبل الهاء الساكنة، وإياك أن تفض بك العجلة إلى أن تقول : « هلا هلا » ولا يكون ذلك إلا إذا تركت تحقيق الهمزة، واعلم أنه ليس في الأذكار كلها أوسع مددا ولا أقرب تأثيرا منه، فيطلع الذكر بالإكثار منه على الأحوال النفيسة والأسرار الملكوتية ما لا يدخل تحت حصر، وبالحقيقة فهو الاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، واحرص على أكل الحلال، والمشي على طريق الكمال، وعليك بالإكثار من هذا الاسم، فإنه سيد الأسماء، ومحط رحال العلماء، الذي يشير إليه الأولياء، ويتجلى به الأصفياء.

واجباتها :

واعلم أنك إذا أكثرت من الاشتغال بالاسم الذي لقنه لك شيخك قرب عليك الطريق، وكلما توانيت وأهملت بعد عليك الطريق، فلا تلومن إلا نفسك، ولابد من المجاهدة وحقيقتها : ترك العادات والعادات كثيرة لكن جعل المشايخ للطريق أركانا، فلابد منها وهي ستة :

(١) **تقليل الطعام.**

(٢) **تقليل المنام.**

(٣) تقليل الكلام.

(٤) الاعتزال عن الأنام.

(٥) الذكر على الدوام.

(٦) الفكر على التمام.

والمطلوب من هذه الأشياء الستة الاعتدال، ولذلك قالوا تقليل الطعام الخ ولم يقولوا ترك الطعام، فالنافع في هذا الطريق أن لا يأكل حتى يجوع وإذا أكل لم يشبع، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا تغدى لم يتعش، وإذا تعشى لم يتغد.

وإياك أن تفضي بك العجلة فتقول: « اللهلا هلا هلا » ولا يكون ذلك إلا إذا لم تحقق الهمزة، فإن حققتها لا يكون شيء من ذلك.

ثم اعلم أنك في هذا المقام كثير الخواطر كثير الوساوس، خصوصا إذا ذكرت بين الجهر والخفاء. وأما إذا ذكرت بالجهر فتقل الخواطر والوساوس، وهذا الاسم نار تحرق به ذلك فكن مكثرا منه، ولا تبالي بالخواطر فلا يمكنك الخلاص منها بالسرعة؛ لأن مرآة قلبك متوجهة للخلق، ولا شك أن المرآة إذا توجهت إلى شيء انتقش ذلك الشيء فيها، فإن كنت متعطشا إلى زلال الوصال، فاترك الخلق وجميع اللذات، ولازم المجاهدة تنتج المشاهدة، فإذا أردت المقامات العلية، فاترك الخلق بالكلية، وانس جميع أهلك وصحبك، واشتغل بربك، وهذا المقام أول مقام المقربين.

وإذا لم تفعل ما سمعته مضت أوقاتك في العناء والتعب ولم تنل من مطلبك شيئا، فجد واجتهد، ولا ترض بالسفساف ولقلقة اللسان، وامتحن نفسك ولا تصدقها، واحك لشيخك ولا تخف عنه شيئا من قبائحها، واصدق في الطلب والمجاهدة تنكشف لك عجائب القلب وأسراره.

وتدخل **عالم المثال** : وهو عالم غير هذا العالم الذي أنت فيه، وهو أول مقامات المقربين وفيه يرى السالك الأمور التي لا تدرك بالحواس الخمس، وهو حالة متوسطة بين النوم واليقظة تعرض للسالك وهو جالس غالبا، ويرى فيها ما يرى، بشرط أن يعلم المكان الذي هو فيه، والوقت الذي هو فيه، ويعلم أنه بين النوم واليقظة، فإن لم يكن كذلك فهو منام لا يعتد به، وتسمى الحالة التي فيها السالك حينئذ بمكاشفة الأرواح.

فائدة : واعلم أنه جرت عادة الله أن الترقي من المقام الثاني إلى الثالث لا يكون إلا على يد المسلك العارف بمقامات الطريق وأحواله، وكذلك الترقي من المقام الثالث إلى المقام الرابع لا يكون إلا بالاستعانة بالمسلك الكامل، وهو أعلى من المسلك العارف؛ لأن الكامل عارف وزيادة، وأما الترقي من المقام الرابع إلى الخامس ومنه إلى السادس ومنه إلى السابع فإنه لا يحتاج فيه إلى المسلك إلا القليل، والله الموفق.

المرتبة الثالثة : النفس الملهمة .

فسيرها : على الله بمعنى أن السالك لا يقطع نظره في هذا المقام إلا على الله؛ لظهور الحقيقة الإيمانية على باطنه، وفناء ما سوى الله في شهوده.

وعالمها : عالم الأرواح.

ومحلها : الروح، وهي اللطيفة الثانية من لطائف عالم الأمر، وهي مودعة في الجانب الأيمن مائلة إلى تحت الثدي بفاصلة أصبعين، وهي مقابلة للطيفة القلب، والنور الأحمر من الأنوار في عالم الخلق هو الذي يوافق لطيفة الروح. وأصل لطيفة الهواء من عالم الخلق هو أصل لطيفة الروح من عالم الأمر، وأصل الروح الصفات الثبوتية، ففنائه في التجلي الصفاتي الثبوتية، وعلامة هذا التجلي اختفاء صفات السالك، وصفات جميع الممكنات عن نظره، ورؤيته إياها مسلوبة عن الممكنات، ومنسوبة إلى الحق سبحانه، ويقال لولاية الروح ولاية

نوح وولاية إبراهيم عليهما السلام، ويقال للسالك من تلك الولاية إبراهيمي المشرب.

وحالها : العشق.

ووارداها : المعرفة.

وصفاتها : السخاء والقناعة، والعلم والتواضع والصبر والحلم، وتحمل الأذى والعفو عن الناس، وحملهم على الصلاح، وقبول عذرهم، وبشهود أن الله آخذ بناصية كل دابة، فلم يبق له اعتراض على مخلوق أصلا، ومن صفاتها الشوق والهيمان، والبكى والقلق، والإعراض عن الخلق والاشتغال بالحق والتلوين، وتعاقب القبض والبسط وعدم الخوف والرجاء، وحب الأصوات الحسنة، وزيادة الهيمان عند سماعها وحب الذكر، وبشاشة الوجه، والفرح بالله، والتكلم بالعلم، والمعارف والمشاهد، وسميت ملهمة؛ لأن الله تعالى ألهمها فجورها وتقواها.

واعلم أن لا يكون الخلاص من هذا المقام إلا بأنفاس المسلك الكامل؛ ليخرجه من ظلمات التنبهات إلى نور التجليات؛ لأنه وهو في هذا المقام ضعيف الحال لا يفرق بين الجلال والجمال، ولا بين ما ألقاه الملك ولا ما ألقاه الشيطان؛ لأنه لم يخلص من الطبيعة بالكلية، ولم يسلب عنه جميع مقتضيات البشرية، ويخشى أن يغفل عن نفسه فيهوى إلى سِجِّين، وأسفل سافلين، أعني المقام الأول الذي تسمى فيه النفس بالأمارة، فيرجع إلى ما كان عليه من الأكل الكثير، والشرب الكثير، والنوم الكثير والاختلاط مع الخلق، وربما يفسد اعتقاده فيترك الطاعة ويرتكب المعاصي، ويزعم أنه موحد مكاشف بحقائق الأشياء، وأنه من المحققين، وأن غيره من أهل الطاعة محجوب من هذا الشهود، فإذا فسد اعتقاده هلك مع الهالكين، والتحق بالكفرة المشركين، وضاع تعبه وعنائه وما بلغ مناه وظن أن التجليات الشيطانية تجليات رحمانية.

واجباتها :

فالواجب عليك أيها الأخ متابعة الشيخ وإن سولت لك نفسك أنك أعلى منه، وإنك موحد وهو محجوب، ويجب عليك أيضا اتباع الشرع وملازمة الأدب وتكره نفسك على ملازمة الأوراد وتقيدها بقيود الطريق، فإنها في هذا المقام مائلة إلى الإطلاق وخلع العذار، وعدم المبالات، والمقصود مخالفتها إلى أن تطمئن، وذلك بالوصول إلى المقام الرابع، ففيه سعادة الدارين وقرة العين، ومتى وضع السالك قدمه فيه خلص بعون الله من جميع الآفات النفسانية؛ لأنه ترقى إلى أول درجات الكمال وهبت عليه نسمات القرب والوصال وانتقل من التلوين إلى التمكين، فلا يحتاج إلى المسلك إلا القليل من السالكين.

فانهض واترك رعونات النفس ولا تفتر بما لاح لك من التوحيد، فإنه سبب لرجوعك وانقطاعك عن مطالبك العلية، بل كن مستعينا به على تمزيق ما بقي من الحجب النورانية، واطلب الحضرة الأحدية وتعلق بأذيال شيخك ودم على ما كنت تفعله من تقليل الطعام وتقليل المنام وتقليل الاجتماع بالناس، ولا يغلب على ظنك أنك أعلى من شيخك فتحرم المدد منه، واجزم بأن خلاصك على يديه، وتحمل ما تلقاه منه من الأذى، وإياك أن تنكر عليه حالة من الحالات.

وبالجملة إن هذا المقام ثالث مقام تزل فيه الأقدام جامع للخير والشر، فإن غلب خير النفس على شرها ترقت المقامات العلية، وإن غلب شرها على خيرها نزلت إلى سجين الطبيعة، وأسفل السافلين، فيجب عليك حينئذ إتعاب النفس وتحقيرها وعلامة غلب الخير على الشر أنك ترى باطنك معمورًا بالحقيقة الإيمانية بأن تعتقد بأن ما في الوجود جاري على وفق إرادة الله مقدر بقدرته تعالى، ويكون ظاهرك متلبسا بالطاعات مجتنبا جميع الكبائر والصغائر.

وأما غلبة الشر على الخير فعلامته أن يقوى شهود الحقيقة الإيمانية على السالك مع بقاء شيء من بشريته ولا يكون ظاهره معمورا بالشريعة فيترك الطاعات، ولا عجب أن يرتكب بعض المعاصي، وذلك لأنه لما قوي عليه شهود الحقيقة ورأى أن أفعاله جارية على وفق إرادة الله تعالى انحجب بأنوار الحقيقة عن أسرار الشريعة، فطرد عن أبواب الحضرة الإلهية ووقف عند البوارق التي وافقت طبعه، وخسر دنياه ودينه فغلب شره خيره وصار زنديقا لا يقف عند دين من الأديان.

وسوقها في هذا المقام بالعشق والهيمان والشوق إلى الوصال والاجتماع مع الأحبة وتذكر لقاء المحبوب والتمتع بجمال وجه المعشوق، فإن هذه الأشياء تقوي قلب السالك على جد السير، سيما إذا رأى نفسه رجع إلى ورائه؛ فإنه يتقطع قلبه ويزيد بكاؤه.

واعلم أيها العارف أنك وأنت في هذا المقام روحاني لطيف قد أشرقت عليك شمس العيان، وأقبلت عليك بشائر الكمال، وهب عليك نسيم الوصال، وكشف عن قلبك من الحجب أكثرها وأكثفها، وزال عن نفسك من الحظوظ أعظمها وأقبحها؛ لأن هذا المقام للروح، والروح وإن كانت محجوبة عن شهود جمال الحق، ولها حظوظ تقطعها عن الوصول إلى حضرته إلا أن حجابها نوراني وحظوظها مقبولة؛ لأن حظوظها طلب رؤية الحق، وطلب المشاهدة والوصال وذلك من غلبة الشوق المقضي لطلب الشيء قبل أوانه.

وهذا شأن العاشقين فأنت في هذا المقام من العاشقين المتلذذين بالذل والافتقار والمحبين الذين ليس لهم عن محبوبهم اصطبار، فاخلع العذار ولا تبال من العار.

وإياك أن تزل بك القدم وتظن أن المراد بخلع العذار ترك الأوامر الشرعية كما يظن الضالون المضلون الملاحدة الزنادقة، الذين لم يخرجوا من عالم الطبيعة، ولم يكن لهم علم بالحقيقة ولا اتباع للشريعة، فيتركون الصلاة والصوم ويتبعون الشهوات ويفعلوا المنكرات،

ومع هذا كله يدعون أنهم موحدون ولحضرة الحق محبرون.

ثم اعلم أن رضا الله وتجلياته لا تصل للعبد إلا من باب الطاعات، وأن سخطه وطرده وبعده لا يصل للعبد إلا من باب المعصية، فقف على باب الشريعة وقفة الذليل، واسأل مولاك واستعن على مطالبك بتلاوة الاسم الثالث، وهو «يا هو هو هو» تظهر إن شاء الله تعالى على الهوية السارية في جميع الموجودات، وليكن أولا بياء النداء ثم بدونها وتكثر من تلاوته في جميع الأوقات في القيام والقعود والاضطجاع آناء الليل، وأطراف النهار؛ لتخلص ببركته من خطر هذا المقام، وبه تنقطع ما بقي من التفات النفس إلى المقام الأول والثاني؛ لأنها لا تخلو من الالتفات إليهما؛ لأن الطبع يغلب التطبع، وهي تترقب غفلتك فمتى غفلت عن سوقها وزجرها عادت لألفها وشوقها في هذا المقام بالعشق والهيمان والشوق إلى الوصال والاجتماع مع الأحباب وتذكر لقاء المحبوب والتمتع بحال المعشوق، فإن هذه الأشياء تقوي السالك على السير خصوصا إذا أرجع نفسه رجع إلى ورائه.

واعلم يا حبيبي أنك في هذا المقام تحتاج إسقاط حرمتك في أعين الناس حتى لا يكون لهم بك تعلقا، ولا يكون لك عندهم قيمة ولا قدر ولا ذكر؛ لأن هذه الأشياء يلتذ بها العاشق وبها يُعلم الكاذب من الصادق. قال سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه

ولو عز فيها الذل ما لذ لي الهوى ولم يك إلا الحب في الذل عزتي

فاخلع العذار ولا تخش من العار، فإنك في هذا المقام لا يعسر عليك خلع العذار كما يعسر عليك في غيره من المقامات؛ لأن هذا المقام مقام العشق والعاشق لا يعسر عليه خلع العذار، فإذا تممت خلع العذار ماتت نفسك الشيطانية القاطعة لك عن مرادك ويحصل لك خطاب الروحانيين بأمر أو نهي أو خبر، فلا تلتفت إلى شيء من ذلك، واحذر أن تستعمل أمورا تسقط حرمتك من أعين الناس موافقة للوجه الشرعي.

وفائدة خلع العذار قطع الموانع التي تمنع عن لقاء المحبوب ، وهي كثيرة جدا، ولا تقطع كلها إلا بخلع العذار بالوجه الشرعي : مثلا الملبس الفاخر من بعض القواطع؛ لأنه يحتاج المبتلى به إلى تحصيله بأنواع الحيل والتعب، وهذا قاطع له عن محبوبه، فإذا خلع العذار لبس ما وجد وسهل عليه تحصيله، وتوجه إلى محبوبه فهذه بعض فوائد خلع العذار، وقس على هذا المثال، وإذا خلعت العذار وماتت نفسك القاطعة لك وحصل لك خطاب من الروحانيين بأمر أو نهي فلا تلتفت إلى شيء منه، ولا يزدك خطابهم فرحا ولا حزنا، ولا تشتغل إلا بمحبوبك وإن لم تسمع شيئا فهو الأحسن في حقك؛ لأنك قد تقطع عن السلوك بسبب سماع شيء من ذلك؛ لأنه شيء غريب ما سمع مثله قط فتظن أنك وصلت إلى مطلوبك فتفتر همتك، وترجع إلى عالم الطبيعة، وهذا من خطر هذا المقام فكن على حذر واستعن بربك سبحانه على قطع كل ما يقطعك عنه، فإنه لا وصول إليه إلا به.

الفناء الأول والثاني وأسبابهما :

وفي هذا المقام تعرض عليك حالة الفناء فتعينك على الترقي من هذا المقام إلى المقام الرابع، وهو الذي تكون فيه النفس مطمئنة، والفناء في هذا المقام حالة تعرض على السالك تغيبه عن كل مدرك غيبة ذهول لا غيبة إغماء أو نوم فتذهب كل حاسة عن محسوسها مثلا تذهل العين عن المبصرات مع إبصارها لها، فيصير حال السالك كحال رجل أصيب بمصيبة فمر في تلك الحالة على صاحبه ونظر إلى وجهه، ولم يسلم عليه، فإذا قال له : لأي شيء تمر بي ولم تسلم علي، فيقول له: والله ما رأيتك من عظم مصيبتي، وكذلك الأذن تسمع الأصوات وكأنها لم تسمعها، وكذلك جميع الحواس، ويذهل العقل أيضا عن المعقولات، وهذه الحالة لا يعرفها حق المعرفة إلا من اتصف بها وهذا الفناء الأول.

وأما الفناء الثاني فيعرض للسالك في المقام الخامس الذي تسمى النفس فيه بالنفس

بالراضية، وأما الفناء الثالث فهو هلاك الصفة البشرية في المرتبة الأحدية، فالذي يفنى من العبد صفاته، لا ذاته فلا تفنى ذاته في ذات الحق جل وعلا، كما يفهمه الجاهلون الذين كذبوا على الله بل إن العبد كلما تقرب إلى الله بالعبودية وتخلى عن الصفات الذميمة المناقضة للعبودية، وهبه الله فضلا من صفات حميدة عوضا عما تخلى عنه من الصفات الذميمة، والله هو القادر، والعبد هو العاجز.

واعلم أنك في حالة الفناء الأول تسمع كلام الروحانيين لا بحاسة السمع، ولا تفهم منهم شيئا، ولكن إذا انصرفت عنك حالة الفناء ورجعت إلى الإحساس، فهمت ما قالوه وألقوه إلى سرك، وتصورت ما نقشوه في مرآة قلبك، فإن تكلمت نطقت بالحكمة، اللّٰهم يا من إذا سئل أعطى لا تحرمنا والمحبين هذا الفناء، ولا تجعل حظنا منك العناء، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، واصرف عنا كل شيء يقطعنا عنك بجاه صاحب الجاه صلى الله عليه وسلم.

وأسباب حصول الفناء ستة أمور بها صارت الأبدال أبدلا، وهي :

(١) الذكر

(٢) والفكر

(٣) والجوع

(٤) والسهر

(٥) والصمت

(٦) والعزلة

وأعظمها الجوع، فيا أيها الراغب في هذا الفناء لا تترك الرياضة والمجاهدة في هذا المقام وإن صعبتا عليك ولا تنس فضلهما عليك ولا تغتر بما لاح لك من البارقات التي لا تعلم أنها

شيطانية أو رحمانية لما عرفت أن المقام الثالث محل التلبيس لا يفرق السالك فيه بين ما يلقيه الملك وبين ما يلقيه إبليس.

قيل للجنيد : قد وصلت إلى الله فأي غرض لك في السبحة ؟ فقال : شيء أوصلني إلى مطلوبي لا ينبغي لي تركه. فأنت أيها السالك لا تغتر بما لاح لك وتترك الأشياء التي تحققت عندك أنها خير محض، وأنها توصل بعون الله إلى ما صعب من الطريق، فإن النفس عدوة، ولا ينبغي أن تأمنها ولو بلغت المقامات العلية، فداوم على الرياضة والمجاهدة يزد عشقك وتلتذ بما أنت فيه من الشوق والسكر وخلع العذار، ومقام العشق مقام لذة، حتى إن العاشق من عظم ما يجده من اللذة لم يرد الترقي من مقام العشق مع أن "هو" العشق حجاب المعشوق، ولا يرغب في الخلاص مما هو فيه من ضيق الصدر والكآبة وتقطع الأحشاء وغير ذلك مما هو مسبب عن العشق، بل يطلب دوام هذه الحالة عليه.

فحاله العشق حالة مقبولة عند العاشقين، وإن كانت بالنسبة إلى ما فوقها من الحالات مذمومة حتى إن الكامل إذا تذكر حالة العاشق وأوقاته تراه يتحسر لما فيها من خلع العذار وعدم المبالاة، ولكنها مع الرياضة والمجاهدة حالة صادقة وصاحبها صادق في جميع ما يقوله من أشعار العاشقين، وأما مع عدم الرياضة والمجاهدة فحالة كاذبة وصاحبها كاذب ليس لما يقوله من أشعار العاشقين طعم ولا تأثير له في القلوب تمجه النفوس إذا سمعته.

وذكرها : هو هو

تنبيه : مر أن خواص هذه الأسماء لا تظهر إلا بكثرة الذكر الجلي القوي بالمداومة على الأدب، وهو أن يكون مستقبل القبلة إن أمكنه جالسا على ركبتيه أو قائما مغمضا عينيه، وأن يكون خليا للبال وأن يلقي سمعه إلى نطقه صاغيا لما يقول، مع نظافة الظاهر والباطن، فإن كنت مع هذه الآداب متمسكا بالشريعة فقد قرب الفتح عليك فلا تمل ولا تضجر إذا تعوق

عليك الفتح، فإنه لابد لك منه لكن بشرط الاستقامة والتمسك بالشريعة والطريقة، واجعل ذكرك بهذا الاسم في بعض الأوقات «لا هو إلا هو» بمد لا ومد واو «هو»؛ لأنه ذكر عظيم الشأن وكن حالة الذكر كأنك تخاطب أعضاءك، فإنه ليس في الوجود إلا هوية الحق تعالى، وإن كل ما سوى الله فهو صفاته وأفعاله، فهذا المشهد مشهد الكاملين.

ولما كان هذا المقام للروح والروح محل العشق والهيمان والذهول كانت إقامة السالك فيه مدة طويلة لأن العاشق ذاهل عن نفسه ومشتغل عن محبوبه بذكر اسمه وملتذ بالأشعار التي يمدح فيها حسنه وجماله، وذلك كله في حالة البسط، أما إذا وردت عليه حالة القبض بعد البسط واستيقظ من نومة العشق ضاق صدره وكاد أن ينخلع قلبه منه فيذل ويخضع ولا تزال حالتا القبض والبسط تتعاقبان على السالك حتى يترقى إلى المقام الرابع فيتمكن عشقه ويتبدل القبض والبسط بالهيبة والأنس، وهما حالتان تتعاقبان على الكامل لا يعرفان إلا بالذوق.

والفرق بين الهيبة والقبض : أن القبض تضيق منه النفس والهيبة ليست كذلك والفرق بين الأنس والبسط أن البسط يغلب صاحبه حتى إنه يخشى عليه أن يسيء الأدب مع الحق سبحانه والأنس ليس كذلك، وبالجملة فالخوف والرجاء والقبض والبسط والهيبة والأنس والجلال والجمال حالتان لا غير، ولكن أسماءهما باعتبار الأشخاص والمقامات.

فإن اتصف بهما من كان في النفس الأمارة أو اللوامة سميتا خوفا ورجاء، وإن اتصف بهما من كان في النفس الملهمة سميتا قبضا وبسطا، وإن اتصل بهما من كان في النفس المطمئنة أو الراضية أو المرضية سميتا هيبة وأنسا، وإن اتصف بهما من كان في النفس الكاملة سميتا جمالا وجلالا، فالخوف والرجاء للمبتدئ، والقبض والبسط للمتوسط والهيبة والأنس للكامل والجلال والجمال للخليفة.

واعلم أن أسرار الربوبية مودعة في المسكنة والعبودية، فاسلك طريق الذل والانكسار تكن من العبيد الأحرار، فإنك لا تنال مطلبا من المطالب إلا بالعبودية وقد يحصل بدونها، ولكنه لا يتم قال ابن عطاء الله في الحكم : « ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لم يتم نتاجه » وقال بعض الصوفية : «طريقنا لا يصلح إلا لأقوام كنست نفوسهم المذابل»، وقال بشر بن الحارث : « ما أعرف رجلا أحب أن يُعْرَفَ إلا ذهب دينه وافتضح » فادفن وجودك واخف شخصك حتى يصدق عليك قوله : « موتوا قبل أن تموتوا »، وقوله « من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض، فلينظر إلى أبي بكر الصديق » وتحسب لك هذه الموتة عن الموتة الطبيعية، حتى إذا جاءك الملك الموكل يقبض روحك يأتيك لينقلك من دار إلى دار فيسلم عليك ويتلطف بك.

ولذلك قدم الموت الإرادي المطلوب بقوله : « موتوا قبل أن تموتوا »، وهو الفناء الذي سبق تبيانه في هذا الباب، وهو حالة لا يبقى للسالك معها ميل إلى مال أو ولد أو شيء من الأشياء، ولا له خوف من مكروه أصلا، ولا شك أن هذه الحالة هي حالة الأموات، حتى أن الميت يكشف له عن البرزخ فهذا السالك أيضا في هذه الحالة يكشف له عن عالم المثال، والبرزخ وعالم المثال كلاهما شعبتان من عالم الملكوت، فإذا دخل السالك في عالم المثال شاهد منه ما يناسب استعداده وقابليته، فالواجب عليك أنك إذا لم تكن وصلت إلى هذه الأحوال فكن متعشقا لها طالبا لتحصيلها؛ لأن كل من طلب شيئا بإخلاص وجد في طلبه ناله بقدرة الله تعالى فاستعن بما ذكر من الرياضات والمجاهدات ولا تفتر عن تلاوة الاسم الثالث، وتحدث مكاشفات تسمى مكاشفات الأسرار.

المرتبة الرابعة : النفس المطمئنة .

فسيرها : مع الله.

وعالمها : عالم الحقيقة المحمدية.

ومحلها : السر ، وهو اللطيفة الثالثة من عالم الأمر، وهي لطيفة مودعة في جنب الثدي الأيسر مائلة منه إلى وسط الصدر بفاصلة أصبعين. والنور الأبيض من عالم الخلق هو الذي يوافق لطيفة السر التي هي من عالم الأمر، وربما انكشف هذا النور أثناء السلوك لمن له كشف، وأصل الماء من عالم الخلق، هو أصل لطيفة السر من عالم الأمر، وأصل السير الشؤونات الذاتية، ففنائه في التجلي الشئوني الذاتي، وعلامته وجدان السالك ذاته مستهلك في ذاته تعالى، ويقال لولاية السر ولاية موسى عليه السلام، والسالك الواصل منها موسوي المشرب.

وحالها : الطمأنينة الصادقة.

وواردها : بعض أسرار الشريعة.

وصفاتها : الجود والتوكل والحلم والعبادة والشكر والرضا بالقضاء والصبر على البلاء وعلامة دخولك في هذا المقام أنك لا تفارق الأمر التكليفي شبرا ولا تلتذ إلا بالتخلق بأخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم ولا تطمئن إلا باتباع أقواله؛ لأن هذا المقام مقام التمكين وفي هذا المقام يلتذ بالسالك أعين الناظرين، وأسماع السامعين حتى أنه لو تكلم طول الدهر لا يمل كلامه، وذلك لأن لسانه يترجم عما ألقاه الله تعالى في قلبه من حقائق الأشياء وأسرار الشريعة فلا يتكلم كلمة إلا وهي مطابقة لما قاله الله ورسوله من غير مطالعة في كتاب، ولا سماع من أحد لأنه قد سمع بغير حاسة ما ألقاه الله في سره، وخلع عليه الوقار والقبول.

فيجب على السالك في هذا المقام الاجتماع مع الخلق في بعض الأوقات ليفيض عليهم مما أنعم الله به عليه ويترجم عما في قلبه من الحكم، وليكن مع الله وقتا؛ لأنه وهو في هذا المقام في أدنى درجات الكمال، فلا يناسبه مخالفة الخلق في جميع الأوقات لئلا يحرم الترقي إلى المقامات الباقية، أعني الخامس والسادس والسابع، فمتى رأى الفائدة في العزلة اعتزل أو في الاجتماع اجتمع، وعلامة فائدة الاجتماع أن يستفيد الحاضرون منه مما وهبه الله من العلم، أعني علم الصدور لا علم السطور.

ذكرها : واشتغل وأنت في هذا المقام بالاسم الرابع وهو «يا حق» بحرف النداء، وبدونه فأكثر منه ولا تلتفت لما يظهر لك، واطلب من ربك أن لا يظهرك على ما يكون سببا لانقطاعك عن خدمتك، ولذلك ترى المحفوظين من الكمال إذا أظهر الله على أيديهم شيئا من الكرامات لا يلتفتون إليها، ولا يعلمون أظهرت لهم كرامة أم لا، والكرامة وإن كانت ليست قبيحا؛ لأنها إكرام من الله لعباده، ولكن تطلبها والميل إليها قبيح قاطع من حضرة القرب، التي لا تنال إلا بالعبودية المودع فيها أسرار الربوبية.

ولذلك ترى المحفوظين من الكُمل إذا أظهر الله على أيديهم شيئا من الكرامات لا يحسون بها، ولا يعلمون أظهرت على أيديهم كرامة أم لا ، روي أن رجلا منهم مر برجل فضربه الرجل بحصاة أصابته في كعبه، فلم يلتفت إلى الضارب ومشى فسقط الضارب ميتا فقيل للولي : أين أنت من العفو والسماح، وهل يجوز لك قتل نفس حرمها الله ؟ فقال : والله ليس لي علم بما تقولون، ولا أعرف الرجل، ولكن جرت عادة الله بإكرام أوليائه من حيث لا يعلمون، وأمثال هذه الحكاية كثيرة، فافهم المقصود واطلب من الله العون على تمزيق ما بقي عليك من الحجب، فإن الحجب في هذا المقام حب الكرامات والميل إليها فلا تقف عندها؛ لأنها كون من الأكوان لا تنفعك في الدنيا، ولا في الأخرى.

واعلم أن السالك في هذا المقام يحب الأوراد ويميل إليها، وكذا الأدعية ويحب حضرة النبي صلى الله عليه وسلم محبة غير المحبة التي كانت قبل هذا المقام، ولا تأمن النفس في هذا المقام، ولا غيره؛ لأن العدو الذي غرست في طبعه العداوة لا ينبغي أن يأمن وإن صار صديقا؛ ولأن الإنسان متعرض للمحن والبلايا، وقد يعرض له حب المال هنا فلا يضره بشرط أن يكون قصده به الاستعانة على الله وعلى أن يعين به إخوانه، لا يشغل قلبه بتحصيله، وإن حصل شيئا منه فلا يخفيه عن الناس، ويظهر لهم الفقر وقد يعرض عليه في هذا المقام حب الرئاسة وتدخل عليه نفسه بأن يتعرض للمشيخة والإرشاد واجتماع الناس عليه ليحصل على يديه الاهتداء، فلا يلتفت إلى ذلك، فإنها دسيسة من النفس، وأما إذا أقامه الله وأشهره وألبسه ثوب المشيخة من غير سعي منه ولا جد ولا تطلب، فلا بأس به فإنه يخرج من الاعتزال، وعلامة إقامة الله له أن يكون محبوبا لإخوانه وهم مطيعون له، ولا يرى لنفسه عليهم تمييزا كأنهم خير منه من وجهة؛ لأنهم يرون أنفسهم أحقر منه.

وإذا وصل السالك إلى الرابع، وصارت النفس مطمئنة إلا أنها لا تصلح للإرشاد لانعدام شروطه منها، فينغبي أن لا يستعجل في التقدم حيث كان هناك ما هو أفضل منه ويكمل سلوكه بالترقي إلى المقام الخامس، فالسادس فالسابع.

وإذا عرفت الفرق بين النفوس عرفت أنه لا خلاف في المعنى بين من قال إن المقامات سبعة التي يترقى بها السالك، وهم الخلوتية، وبين من قال إنها ثلاثة وهم غيرهم؛ لأن غير الخلوتية لا يعدون المقام الأول مقاما، فيعدون الثاني والثالث والرابع، ولا يعدون الخامس والسادس والسابع؛ لأنهم يعتبروا النفوس الزكية باعتبار الفطرة، ولا شك أن هذه النفوس إذا وصلت للمقام التي تكون فيه النفس مطمئنة كملت، وصلحت للإرشاد.

المرتبة الخامسة : النفس الراضية .

فسيرها : في الله.

وعالمها : عالم اللاهوت.

ومحلها : سر السر.

وحالها : الفناء، لكن لا بمعنى اللفظ الذي مر بيانه، والفرق بينهما أن ذلك حال المتوسط في الطريق، وقد عرف أنه ذهول الحواس عن المحسوسات، وهذا حال المشرفين على البقاء الذين هم في آخر السلوك، والمراد به محو الصفات البشرية والتهيء للبقاء من غير أن يعقبه البقاء في الحال؛ لأن ذلك الفناء هو حق اليقين، وهو بعد الفناء.

واردها : وهذه النفس أعني الراضية ليس لها وارد؛ لأن الوارد لا يكون إلا مع بقاء الأوصاف، وقد زالت في هذا المقام الخامس، وهذه الحالة لا تُدرك إلا بالأذواق، وقد يمكن الكامل أن يفهمها للمريد المنتهي للكمال.

وصفات هذه النفس : الزهد فيما سوى الله، والإخلاص والورع والنسيان، والرضا بما يقع في الوجود من غير اختلاج قلب، ولا توجه لدفع مكروه، ولا اعتراض أصلا، وذلك لأنه مستغرق في شهود الجمال المطلق، ولا تحجبه هذه الحالة عن الإرشاد والنصيحة للخلق وأمرهم ونهيهم ولا يسمع أحد كلامه إلا وينتفع به، كل ذلك وقلبه مشغول بعالم اللاهوت، وسر السر.

وصاحب هذا المقام غريق في بحر الأدب مع الله، لا ترد دعوته، والحق أن صاحب هذا المقام ليس له ركون إلى ما سوى الله، فمتى رأيت نفسك تركن لغيره فاعلم أنك لست من أصحاب هذا المقام؛ لأن صاحبه أشرف على سلطنة الباطن التي جميع الظواهر تحت قهرها.

ذكرها : واشتغل وأنت في هذا المقام بالاسم الخامس وهو «يا حي» فأكثر منه فيزول فناؤك، ويحصل لك البقاء بالحي، فتدخل في المقام السادس، وتترقى من الوقوف على الباب

إلى منازل الأحباب، وبقيت بالحي واتصفت بالصفات الكاملة، وهو معنى « كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به » المعبر عنه قرب النوافل.

فائدة : واعلم أن من الأسماء أسماء يقال لها فروع، وهي « الوهاب- الفتاح - الواحد - الأحد - الصمد » فاشتغل وأنت في هذا المقام بالاسم الفتاح، أو بالاسم الوهاب مع الخامس، وهو الحي يسهل عليك الانتقال إلى المقام السادس الذي أنت إليه في غاية الاحتياج، ولكن هذا بأمر الشيخ، والله الموفق.

المرتبة السادسة : النفس المرضية .

فسيرها : عن الله.

وعالمها : عالم الشهادة.

ومحلها : الخفي، وهي اللطيفة الرابعة من عالم الأمر، وهي لطيفة مودعة في جنب الثدي الأيمن مائلة منه إلى وسط الصدر بفاصلة أصبعين، والنور الأسود من أنوار عالم الخلق هو الذي يكون للطيفة الخفي من عالم الأمر، وأصل النار من عالم الخلق أصل الخفي من عالم الأمر، وأصل الخفي الصفات السلبية، ففناؤه في التجلي الصفاتي السلبي، وعلامته مشاهدة السالك تفرده تعالى وتجرده عن جميع العالم وما يناسبه، ويقال لولاية الخفي ولاية عيسى عليه السلام، وللسالك الواصل منها عيسوي المشرب.

وحالها : الحيرة.

ووارِدها : الشريعة.

وصفاتها : حسن الخلق وترك ما سوى الله واللطف بالخلق وحملهم على الصلاح، والصفح عن ذنوبهم وحبهم والميل إليهم لإخراجهم من ظلمات طبائعهم وأنفسهم إلى أنوار أرواحهم، كالميل الذي في النفس الأمارة؛ لأنه مذموم، ومن صفات هذه النفس الجمع بين

الخلق والخالق، وهو عجيب لا يتيسر إلا لأصحاب هذا المقام، ولذلك صاحبه لا يتميز من العوام بحسب ظاهره، وأما بحسب باطنه، فهو معدن الأسرار، وسميت هذه النفس بالمرضية؛ لأن الله قد رضي عنها، ومعنى كون سيرها عن الله أنها أخذت ما تحتاجه من العلوم من حضرة الحي القيوم، ورجعت من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ليفيد الخلق مما أنعم الله عليها، وحالها الحيرة المقبولة وهي المشار إليها بقول العارف سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه :

رب زدني بفرط الحب فيك تحيرا وارحم حشا بلظى هواك تسعرا

لا الحيرة المذمومة التي في أقل السلوك، ومن شأن صاحب هذا المقام الوفاء بما وعد الله، فلا يخلف وعده أصلا، ووضع كل شيء في محله، فينفق الكثير إذا صادف حتى يظن الجهول أنه أسرف، ويبخل بالقليل إذا لم يصادف محله، حتى يظن الجهول أنه أبخل من كل بخيل، ولا يلتفت لمدح ولا ذم، في الإعطاء والمنع، ومن أوصافه أن جميع شؤونه في الحالة الوسطى وهي بين الإفراط والتفريط، وهذه الحالة لا يقدر عليها إلا من كان في هذا المقام.

واعلم أنك في أول هذا المقام تلوح لك بشائر الخلافة الكبرى، وفي آخره تخلع عليك خلعتها، وفي خلعة كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبه يسمع وبه يبصر وبه يبطش وبه يمشي، وهذا نتيجة قرب النوافل، وهو أن يكون التأثير للعبد باستعانة الحق، فافهم وتحقق هذا المقام إن السالك إذا وصل إلى مقام الفناء، وهو المقام المذكور قبل هذا تنمحق صفاته الذميمة البشرية التي هي محل الانفعال والشقاوة، وذلك هي سبب تقريبه بالنوافل التي هي الرياضات والمجاهدات للنفس، وقد جرت عادة الله تعالى أن يهبه كرما منه صفات مناقضة لتلك الصفات مؤثرة بإذن واهبها، وهذا هو حق اليقين الآتي في الخاتمة، والحق أن هذه الأمور لا تدركها العقول،

ومتى حاول إدراكها العقل وقع في الزندقة؛ لأن الفناء ليس في الخارج له نظير، حتى يمثل له، وكذا البقاء بالله، وكذا قرب النوافل، وقرب الفرائض.

واشتغل وأنت في هذا المقام بتلاوة الاسم السادس وهو «القيوم» وأكثر منه تصير حسنات الأبرار سيئات لك، ولا تزال مؤدبا بآداب الشريعة والطريقة إلى أن تنتقل إلى الاسم السابع طالبا التحقيق بالصورة الآدمية التي كانت قبلك للملائكة التي حقيقتها الحقيقة المحمدية.

المرتبة السابعة : مقام النفس الكاملة .

فسيرها : بالله.

وعالمها : كثرة في وحدة ووحدة في كثرة.

ومحلها : الأخفى الذي نسبته إلى الخفي كنسبة الروح إلى الجسد، وهو اللطيفة الخامسة، وهي لطيفة مودعة في وسط الصدر، والنور الأخضر من أنوار عالم الخلق هو للطيفة الأخفى من عالم الأمر، كما أن أصل التراب من عالم الخلق هو أصل الأخفى من عالم الأمر، وأصل الأخفى الشان الجامع، ففناؤه في التجلي الشأني الجامع، وعلامته حصول التخلق بأخلاق الله تعالى للسالك، ويقال لولاية الأخفى الولاية المحمدية، وللسالك الواصل منها محمدي المشرب.

وحالها : البقاء.

وواردها : جميع ما ذكر من الأوصاف الحسنة للنفوس المتقدمة.

ومفتاحها : الاسم السابع وهو «القهار» وهو أعظم المقامات؛ لأنه قد كملت فيه سلطنة الباطن، وتمت فيه المكابدة والمجاهدة ليس لصاحب هذا المقام مطلب سوى رضوان الله، حركاته حسنات، وأنفاسه قدرة، وحكمه عبادة.

اعلم أن اسمه تعالى «القهار» من أسماء القطب. قال المشايخ : ومنه يمد القطب المريدين الطالبين بالأنوار والهديات والبشارات. وقالوا : مهما حصل في قلوب المريدين من الفرح والسرور والجذبات الكائنة بغير سبب، فهو من مدد القطب عوضا عن أذكارهم وتوجهاتهم لربهم.

وصاحب هذا المقام لا يفتر عن العبادة، وذلك إما بجميع البدن، أو باللسان أو بالقلب أو بالرجل، وهو كثير الاستغفار كثير التواضع، سروره ورضاه في توجه الخلق إلى الحق، وضره وغضبه في إدبارهم من الحق، يحب طالب الحق أكثر من محبة ولده الذي من صلبه، وهو كثير الأوجاع، قليل القوى، قليل الحركة، ليس في قلبه كراهة لمخلوق، مع أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويظهر الكراهة لمستحق الكراهة، ويظهر المحبة لمن هو أهل المحبة، لا تأخذه في الله لومة لائم، يرضى في عين الغضب، ويغضب في عين الرضى، لكنه يصنع كل شيء في محله، متى ما وجد همته إلى كون من الأكوان، أوجده الله تعالى على وفق مراده، وذلك لأن مراده مراد الله، فإذا أراد شيئا وطلبه منه لا يخيبه.

علاقة اللطائف الخمس بمراتب الأنفس:

إن لكل لطيفة من اللطائف الخمس درجة، ونور، وذكر، ولكل لطيفة من هذه اللطائف عالم، وقد بذل أهل الله مجهودا كبيرا في الوصول إلى هذه اللطائف والتأكد من حقيقتها، فعلموا صدقها من توافق ما وصلوا إليه رغم اختلاف الزمان والمكان، وذلك بأن يحكي شخصان لم ير أحدهما الآخر نفس التجربة، ونفس النتائج، فيدل ذلك على صدقها.

فعلموا أن الإنسان في عالم الملك لديه لطائف خمس يستطيع بها الاتصال بعالم الملكوت الذي به أيضًا لطائف خمس، فهم عشر لطائف كل اثنين منها في مرحلة، ولكل درجة وذكر، وهذه المراحل مقسمة إلى أجزاء، يسير الإنسان متنقلا من جزء إلى جزء بواسطة التربية والذكر والتأمل والتفكر والعبادة والطاعة، حتى يرتقي شيئا فشيئا، وكل ذلك كما قلنا بتوجيه الشيخ المربي وإرشاده.

وعندما بحث أهل الله عن هذه اللطائف أخذهم ذلك للبحث عن النفس الإنسانية، فتأملوا الكتاب والسنة وتأملوا حال الإنسان بدقة فوجدوا أن الإنسان مكون من جسد وأن هذا الجسد تحل فيه روح، وأن هناك نفسًا منفوسة إنسانية تقع في هذا الجسد وهذه الروح.

فشبهوها وكأنها إناء بداخل إناء، وداخل الإنائين تكون النفس، والنفس هي النفس الناطقة العاقلة المكلفة.

وهناك الروح التي ينزلها الله سبحانه وتعالى في الجنين بعد مائة وعشرين يوما، ويبدأ يتشكل بعد أربعين أو اثنين وأربعين يوما إلى أن تنزل النفس الناطقة العاقلة التي ستحاسب عندما تستوفي شروطها من البلوغ ومن العلم ومن الإدراك السليم، ويصير الإنسان مكونا من ثلاثة أشياء، الجسد بداخله الروح وبداخل الروح النفس.

قال تعالى ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى

عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، فعندما ننام وكأن النفس ترتفع ويبقى الجسد حيا بروحه، وتصبح للنفس إدراكات أخرى ترى بها الرؤى، فيكون هناك رؤية من الملك ويكون هناك منام من الشيطان، أو تحدث النفس صاحبها فيكون من قبيل حديث النفس.

فهناك رؤية رحمانية أو ملكية ويكون بها بشرى أو توجيه، وهناك إدراك نفسي أو شيطاني، وكذلك هناك الخواطر التي تخطر على بال الإنسان وهي من الإشراقات، وكذلك تكون الواردات التي تحدث عند امتلاء الإنسان بالذكر، فقد تكون ملكية وقد تكون شيطانية وقد تكون رحمانية وقد تكون نفسانية. وكل ذلك يدركه الشيوخ بعلامات في كل ذلك ليرشدوا به خلق الله إلى الله.

وهذه النفس التي هي محل التكليف ومحل الإدراك لها مراتب سبعة وهي :

النفس الأمارة – النفس اللوامة – النفس الملهمة – النفس المطمئنة – النفس الراضية – النفس المرضية – النفس الكاملة[1].

ولكل منهما تعلق بإحدى اللطائف الخمس، كما أن لكل منهما ذكر يتناسب مع حالها يكون لها علاجًا ودافعًا إلى ترقيها إلى مرتبة النفس التي هي أعلى منها.

فنجد أن النفس الأمارة بالسوء محلها القلب وهو اللطيفة الأولى وذكرها لا إله إلا الله وهو الاسم الأول في مجال الأصول.

ف "لا إله إلا الله" بها نفي وإثبات وكأنها تخرج الناس من مكان إلى مكان، من الظلمات إلى النور، لا إله إلا الله ينفي وجود الإلهية، ثم يثبتها لله وحده لا شريك له.

١ – انظر في تفصيل الكلام عن مراتب النفس كتاب مراتب النفس للشيخ عبد الخالق الشبراوي الخلوتي.

فعلم مشايخنا أن كثرة ذكر "لا إله إلا الله" سبعين ألف مرة يعالج هذه النفس الأمارة وتكف عن أمرها بالسوء، وينقلها إلى مرتبة النفس اللوامة، ويعتبر هذا ترقيا في الطريق وخطوة جيدة.

وعلم مشايخنا ذلك بالتجربة وليس بنص قرآن أو حديث، علموه من الوجود، والوجود مصدر من مصادر المعرفة.

ثم في أوائل القرن العشرين وجد مشايخنا أن عدد سبعين ألفا، لم يعد يحقق هذا النقلة في حال تلك النفس؛ وذلك لكثرة تعلقاتها بالأمور الحياتية وفقًا لما تغير في الحياة من مستجدات واختلاف الواقع من تكنولوجيا وتطور، فاختلف بذلك برنامج الإنسان اليومي واختلفت أوقاته، وكثرت بتلك النفس العلائق التي لم تكن تشغلها من قبل، ووفقا لهذا التغير قرروا زيادة العدد إلى مائة ألف حتى يكون له تأثير مناسب في الواقع المعيش.

فالوقوف عند عدد سبعين ألف علموه من التجربة في عصرهم الماضي، كما أن الوقوف عند العدد مائة ألف علموه بالتجربة في عصرنا الحاضر.

ثم بعد النفس الأمارة بالسوء تأتي مرتبة النفس اللوامة، وهذه النفس لها ارتباط باللطيفة الأولى القلب، وعلى مشارف اللطيفة الثانية وهي الروح، وذكرها هو الاسم بالضمير "هو" وهو أعرف المعارف.

فبين النفس الأمارة والنفس اللوامة يقع القلب، وبين النفس اللوامة والنفس الملهمة تقع الروح، وبين النفس الملهمة والمطمئنة يقع السر، وما بين المطمئنة والراضية والمرضية يقع الخفي، وما بينها وبين الكاملة يقع الأخفى.

فكأن هذه الخمسة قد تخللت هذه السبعة فيما بينها في المسافات البينية، فالنفس الراضية والمرضية وهي كمرحلة واحدة لها قسمين تعد واحدة، فتخللت هذه اللطائف الخمسة في

هذه النفوس السبعة.

وعرفنا أن طرق علاج هذه الأنفس الذكر بالأسماء الأصول: لا إله إلا الله، الله، هو، حي، قيوم، حق، قهار، وأن الطرق تختلف في هذا الترتيب وفي ترتيب الفروع أيضا طبقا لرؤية معينة ومداخل معينة كثيرة، ومن هنا يكون اختلاف الطرق، وهو اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد وتناحر فيما بينها، فطريق الله واحد كما ذكرنا.

من أصول الطريق

١ - قلة الكلام:

تحدثنا عن عبادة الباطن من ذكر وفكر، ومناجاة ودعاء، وعلمنا أنه كي يصل المريد إلى مراده لا بد أن يُرقِّي نفسه، وذلك بإحكام السيطرة على شهوات النفس، حتى تخرج من حب ذاتها إلى حب الله، ولا يتحقق ذلك إلا بعبادة الجوارح أيضًا، فكما أن للباطن سلوكا فكذلك للجوارح سلوكا.

وسلوك الباطن بعبادة "الكثرة"، كثرة الذكر وكثرة الفكر، وكثرة الدعاء، والتخلي والتحلي، وأما سلوك الجوارح الظاهرة فهو بعبادة "القلة"، وهي قلة الكلام، وقلة المنام، وقلة الطعام، وقلة الأنام. أي التقلل من تلك الشواغل الأربعة.

وهذا الأمر إنما يكون بالتدريب والمجاهدة، وذلك من أصول الطريق كما يقول البعض.

ونبدأ ببيان منزلة قلة الكلام من السنة النبوية ومن أقوال السلف الصالح.

تواردت النصوص من السنة النبوية للنهي عن النهي كثرة الكلام، والتحلي بالصمت إلا أن يكون الكلام في الخير كذكر الله تعالى أو أمر بالمعروف أو نهي عن منكر.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم "يا أبا ذر ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر، وأثقل في الميزان من غيرهما؟ " قال: بلى يا رسول الله، قال: "عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، والذي نفس محمد بيده، ما عمل الخلائق بمثلهما.[1]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم " من كان

١ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد(٨ / ٢٢) رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط، ورجال أبي يعلى ثقات.

يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت" (١)

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم "مَنْ صَمَتَ نَجَا". (٢)

أي: نجا من كل ما يوقعه فيه لسانه من المهلكات.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم قليل الكلام حتى إذا أراد السامع أن يعد حديثه لأحصاه، فعن عائشة رضي الله عنها "أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم يحدث حديثا لو عدَّه العاد لأحصاه".(٣)

فالصوفي دائما منشغل بربه، مستشعر معيته في كل أحواله، والصمت من آداب الحضرة، قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

وكان من شأن الأنبياء: الصمت وقلة الكلام؛ حتى إن ابن أبي الدنيا، أَلَّفَ كتابًا ضخمًا، أورد فيه كل الأحاديث الواردة عن فضيلة الصمت.

وكذلك كان الصحابة رضي الله عنهم من أحرص الناس على التحلى بهذه العبادة.

فكثرة الكلام توقع الإنسان في معصية الله، وقلته تعينه على الذكر والتأمل والتفكر وهما الأساس الذي عليه يكون الطريق إلى الله.

قال إبراهيم بن بشار: سألت إبراهيم بن أدهم عن العبادة، فقال: "رأس العبادة التفكر

---

١ – صحيح البخاري :كتاب الرقاق –باب حفظ اللسان، حديث رقم ٦٤٧٥

٢ – قال العجلوني في كشف الخفا ١/ ٦٥٣ : الترمذي وقال: غريب، والدارمي وأحمد وآخرون عن عبد الله بن عمرو بن العاص به مرفوعا، ومداره على ابن لهيعة رواه عن يزيد بن عمرو عن أبي عبد الرحمن الحبلي عنه، ولكن شواهده كثيرة، منها عند الطبراني بسند جيد، وقد أفرد ابن أبي الدنيا للصمت جزءا حافلا.

٣ – صحيح البخاري كتاب المناقب – باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، الحديث رقم ٣٥٦٧

والصمت إلا من ذكر الله"(١)

فكثرة الكلام في الحقيقة بلية، بل هي من أول ما يوقع الإنسان في النار.

فعن معاذ رضي الله عنه قال:" يا رسول الله، وإنا لنؤاخذ بما نقول بألسنتنا؟ قال: «ثكلتك أمك ابن جبل، هل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم؟ "(٢)

ويشبه الإمام الشافعي رضي الله عنه الصمت بالتجارة الرابحة فيقول:

وَجَدْتُ سُكُوتِي مَتْجَرًا فَلَزِمْتُهُ ... إِذَا لَمْ أَجِدْ رِبْحًا فَلَسْتُ بِخَاسِرِ

وَمَا الصَّمْتُ إِلَّا فِي الرِّجَالِ مَتَاجِرَ ... وَتَاجِرُهُ يَعْلُو عَلَى كُلِّ تَاجِرِ(٣)

فالتزام الصمت من الآداب التي ينبغي على السالك أن يلتزم بها، حتى يجنب نفسه كثيرا من آفات اللسان التي لا تكون إلا بكثرة الكلام.

---

١ – حلية الأولياء ٨ / ١٧

٢ – أخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي

٣ – حسن السمت في الصمت للإمام السيوطي صـ٢٧ ط.دار العلم والإيمان

٢ - قلة المنام:

من أصول التربية عند الصوفية قلة المنام، والحرص على قيام الليل امتثالا لقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

وقيام الليل يسير على من يسره الله إليه، وإنما يحتاج من العبد همة ومجاهدة ومواظبة حتى ينال هذه الدرجة، وقد يمثل السالك بها ولو بيسير كصلاة ركعتين فقط كل ليلة.

عندما قابل السيد محمد أمين البغدادي [١]الشيخ محمد راشد[٢] سأله فقال له: يا سيد محمد راشد ماذا بينك و بين الله من العبادات التي ترجو منها القبول؟

قال له: أصلي ركعتين بالليل لا يدري بهما أحد من أهلي منذ أربعين عامًا.

ركعتين فقط!! ركعتين يمكن أن يأخذوا من الوقت خمس دقائق، ولكن لهم فضل عظيم ومعنى كبير في العبادة.

ويقول بعض أهل الله في قيام الليل: "طاشت الكلمات، وذهبت العبارات، وبقيت ركعات كنا نصليها في الليل لرب العباد"[٣].

---

١ - الولي العارف بالله تعالى شيخ العارفين صاحب المواهب السنية والبركات والفيوضات العلية محمد أمين جاء من السليمانية في شمال العراق وجاور بالمدينة المنورة ثم بمكة المكرمة وفتح الله عليه الفتوح الكثيرة حتى أذن الله بالانتقال إلى مصر حوالي سنة ١٩١٤ م ليجاور مولانا الإمام الحسين –عليه السلام– وينتفع به عدد من مشايخ وعلماء الأزهر الشريف ويتلقون الطريق النقشبندي على يديه، وشوهدت منه الكرامات والأنوار، انتقل رضي الله عنه حوالي سنة ١٩٤٠م .

٢ - الشيخ محمد راشد كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف وكان من كبار علماء التفسير فيه.

٣ - انظر صفة الصفوة لابن الجوزي ١/٥٢٢

وقلة المنام تجعل الإنسان يقيم الثلث الأخير من الليل الذي هو من الأوقات التي لها قدسية خاصة عند المسلمين؛ لأنه من أوقات إجابة الدعاء وقبول التوبة، وعبادة القيام هي من أحب العبادات إلى الله تعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني، فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له »[1]

فقيام الليل، وترك النوم من أجل العبادة من علامات الإخلاص؛ حيث يترك الإنسان نومه وهو من ملذات الدنيا، ويجد لذته في القيام بين يدى ربه ومناجاته حيث لا يراه إلا الله.

فقيام الليل من أكثر الأمور التي تساعد السالك على التحقق، وهو وإن كان عبادة من عبادات الجوارح إلا أنها لخفائها عن الأعين من أكثر الأمور التي تصلح الباطن.

وقد رغب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قيام الليل فعن أبي هريرة رضي الله عنه: قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل».[2]

ولم يترك النبي صلى الله عليه وآله وسلم قيام الليل قطُّ، بعد أن أمره الله به، فالطريق إلى الله يحرص فيه الشيخ على تربية السالك على أن يجعل لنفسه بيئة تساعده على الصفاء وعلى الذكر وعلى الخلوة بالله، ومما يساعد على ذلك قلة الكلام وقلة المنام، ويكون ذلك بمتابعة من الشيخ حتى لا يكون في الأمر إفراطا ولا تفريطًا فتكون العاقبة الترك؛ لأن هذا الأمر إذا زاد انقلب لضده قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]

---

١ – صحيح البخاري :كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة آخر الليل الحديث رقم ١١٤٥

٢ – صحيح مسلم : كتاب الصيام – باب فضل صوم المحرم، الحديث رقم :١١٦٣

٣ -قلة الطعام:

من أصول الطريق عند الصوفية "قلة الطعام"؛ لأنهم علموا أن كثرة الطعام من أكثر المهلكات؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنَفَسِه»[١]

فكثرة الطعام تثقل البدن وتثقل الروح وتميت القلوب، ولذا أوجب الله علينا الصيام في شهر رمضان، وحبب فيه كثرة العبادة؛ لأن الجسد إذا قل تعلقه بالمادة والشهوات ارتفعت الروح وصفت وكانت أقدر على العبادة والتقرب لله.

وكثرة الطعام تورث كثرة النوم، وبلادة الذهن، وتثقل الروح فلا يقوى الإنسان على التأمل والتفكر، كما أن كثرة الطعام هي من أكثر أسباب المرض، وقد قيل في الحكم: إن "المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء".

والحمية هي خلو البطن من الطعام، والبردة إدخال الطعام على الطعام.

فالصوفي يتربى على كسر شهوة البطن وعلى الاعتياد على الشعور بالجوع ويكون ذلك بالتدرج دون مبالغة حتى لا يهلك.

والحد الحسن في الأكل هو التوسط وذلك ألا يتناول الطعام حتى يشتهيه، ويرفع يده عنه وهو يشتهيه.

يقول الإمام الجنيد: "من بات جائعًا مطيعًا لله بات قائمًا ولو كان نائمًا، فإن الجوع سبب الخوف من الله ... يا أهل الإرادة عليكم بالجوع والوصال والذكر تصلوا إلى مطلبكم، من

١ - رواه الترمذي في سننه :كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية الأكل وقال الترمذي حسن صحيح الحديث : ٢٨٣٠

جاع وصل، ومن شبع انقطع[1]"؛ لأن الجوع كسر النفس عن الشهوات، والتفكر، والذكر، وانفصال عن الصفات المذمومات إلى الصفات المحمودات.

ويقول الشاعر:

بيتُ الولاية قَسمت أركانَه ❊❊ سادُتنا فيه من الأبدال

ما بين صمتٍ واعتزال دائم❊❊ والجوع والسهر النزيه العالي[2]

فالجوع اختيارا وعدم الشبع؛ أحد السبل الموصلة إلى الله، التي ينبغي على السالك مراعاتها .

١ - انظر كتاب شيخ الشيوخ في الأمصار أبو مدين الغوث :أحمد فريد المزيدي ص٢٧٧ ط.دار الكتب العلمية

٢ - الأبيات لسيدي محي الدين بن عربي كما في الفتوحات المكية ٣/ ٢٧٣

٤ - قلة الأنام:

في طريقنا إلى الله وقفنا عند التربية بقلة الكلام وقلة المنام وقلة الطعام ثم قلة الأنام، وقلة الأنام يستدل عليها بما سنه الله لنا من الاعتكاف، وأشارت السيدة عائشة في حديثها عنه صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: «ثم حبب إليَّه الخلاء»[١]، وكان يتزود لليالي ذات العدد في غار حراء حتى إذا نفد الزاد من طعام أو شراب نزل لمكة ليتزود لمثلها.

إذن الاعتكاف والخلوة هو قلة الأنام ؛ ومن فائدتها إتاحة فرصة لعقل الإنسان أن يتأمل وأن يتدبر ويتفكر، أن يعيش مع نفسه ويراجع أخطاءه وأفعاله، وأن يقوِّم تصرفاته حتى يتقدم إلى الأمام، إذن في نهاية المطاف هي تربية تجعل الإنسان يذكر ويفكر، يتخلى ويتحلى، يتعامل مع التجلي من أجل أن يصل الإنسان في طريقه بهذا السلوك إلى العبادة الحق وإلى الإخلاص في الدين وإلى إنشاء الهمة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ: رَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاه".[٢]

يقول القاضي عياض في شرحه: "ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه". فيه فضل البكاء وفضل أعمال السر كلها؛ لأنها أبعد من الرياء والتصنع".[٣]

فأرجح الأعمال عند الله ما كان بعيدا عن أعين الناس، كصدقة السر وقيام الليل وقرآن الفجر.

ويرى أهل الله أنه لا بد أن قلة الأنام يتصل بها خدمتهم، من هنا كان طريق الله متصلا

---

١ - صحيح البخاري كتاب بدء الوحي با بكيف كان بدء الوحي، الحديث رقم ٣

٢ - صحيح البخاري :كتاب الأذان - باب من جلس في المسجد ينتظر، الحديث رقم ٦٦٠

٣ - إكمال المعلم بفوائد مسلم (٣/ ٥٦٤)

بخدمة الناس قال تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، والمقصود بخدمة الأنام، أي خدمتهم بكل ما يستطيعه الإنسان سواء كانت خدمة عامة أم خاصة مطلقة أم مقيدة مادية أم معنوية.

فقلة الأنام ليس معناها الهروب منهم ابتغاء كراهيتهم، بل معناها التركيز من أجل خدمتهم بكل الوسائل، ومن هنا حملوا حديث ابن عباس حيث كان معتكفا فجاءه رجل يدعوه في حاجة معينة ويعلم أن ابن عباس معتكفا، فخرج ابن عباس من المسجد، وقطع الاعتكاف ليذهب لخدمة هذا الرجل، فقال له الرجل: لست في عجلة أتم اعتكافك. فقال له ابن عباس: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: "لأن يمشي أحدكم مع أخيه في قضاء حاجته أفضل من أن يعتكف في مسجدي هذا شهرين".[١]

إذن قلة الأنام تشمل وجهين: أحدهما، الخلوة عنهم لكي يمتلئ القلب بالهمة.

وثانيهما: قضاء حوائجهم وخدمتهم.

وقالوا: إن من آداب العزلة أن تكون "كائن بائن"، أي: كائن مع الخلق، بائن عنهم بالسر.

ويقول القشيري في "رسالته" سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق، رحمه الله، يقول: البس مع الناس ما يلبسون، وتناول مما يأكلون، وانفرد عنهم بالسر".[٢]

---

١ - قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه الحاكم وصححه من حديث ابن عباس انظر تخريج العراقي على هامش إحياء علوم الدين ٢/ ٢٠٨، وقد روي بألفاظ متقاربة عند الطبراني في الأوسط على هذا النحو: "من مشى في حاجة أخيه كان خيرا له من اعتكاف عشر سنين". قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٩٢ : "رواه الطبراني في الأوسط وإسناده جيد".

٢ - الرسالة القشيرية ١/ ٢٢٣

فقلة الكلام وقلة المنام وقلة الطعام وقلة الأنام مع خدمتهم؛ أصول الطريق وبها يتم الوصول إلى الله، وكلها مستمدة من الكتاب والسنة.

الباب الثالث

الأجوبة الشاذلية

أولا: إطلاله حول التصوف

ما هو التصوف:

س: يسأل المريد عن ماهية التصوف، وحقيقته، وهل كان موجودًا في القرون الأولى من الإسلام، أم هو فكر وسلوك ابتدعه المسلمون فيما بعد، فهو من قبيل البدع المستحدثة التي حذرنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم منها؟

إن التصوف لفظ اختلف فيه هل هو مشتق من الصفا، فالصوفي من صفا لله تعالى، أم من مشتق من الصوف وهو اللباس الخشن الذي كان يلبسه بعض العباد والزهاد مقتدين في ذلك بأهل الصفة، وهم الذين خصص النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم مكانا بالمسجد النبوي وأطلق عليه الصفة؛ حيث انشغلوا فيه بذكر الله تعالى وعبادته عن حاجات الدنيا وزينتها، وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨] .

يقول الإمام الطبري في تفسيره: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم: (واصْبِرْ) يا محمد (نَفْسَكَ مَعَ) أصحابك ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ بذكرهم إياه بالتسبيح والتحميد والتهليل والدعاء والأعمال الصالحة من الصلوات المفروضة وغيرها (يُرِيدُونَ) بفعلهم ذلك (وَجْهَهُ) لا يريدون عرضًا من عرض الدنيا"[١].

وقال بشر الحافي [ت٢٢٧هـ]: الصوفي من صفا قلبه لله تعالى.

وصح أن يجمع لفظ الصوفي بين المعنيين، فالصوفي هو: من لبس الصوف على الصفا كما عرفه بذلك بعض الصوفية[٢]، أي: من زهد في الدنيا وخلص لله تعالى.

١ - تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٨/٥، ط. مؤسسة الرسالة)

٢ - هذا التعريف ذكره أبو علي الروذبادي عندما سئل من هو الصوفي، فقال: هو من لبس الصوف على

أما لفظ التصوف فهو مصطلح أطلقه المسلمون على العلم الذي يحفظ مرتبة الإحسان، وهي المرتبة الثالثة من مراتب الإسلام، التي علمها لنا سيدنا جبريل عليه السلام في حديث دار بينه وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صورة سؤال وجواب، في مجلس يحضره الصحابة رضي الله عنهم، وهو الحديث الأول في صحيح الإمام مسلم، وقد سبق ذكره في أول الكتاب. فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: «الإسلام أن تشهد أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَام الصَّلاَةِ، وَإِيتَاء الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَحَجّ الْبَيْت لِمَن اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ. فَقَالَ عُمَر: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ!!

ذلك لأن السؤال يقتضي الاستفهام، والاستفهام طلب المعرفة، وتصديقه معناه أنه يعلم هذا الأمر قبل ذلك، واجتماع هذين الأمرين عجيب.

قَالَ: فأخبرني عن الإيمان؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

ومن هذا الحديث قسم العلماء العلوم الشرعية إلى ثلاثة أقسام، كل قسم يختص بمرتبة من مراتب الدين، فلحفظ مرتبة الإسلام أسس الفقهاء علم الفقه بفروعه المختلفة من

الصفا أي الصفاء من التعلق بزينة الدنيا ومفاتنها.

عبادات ومعاملات ومواريث وغير ذلك، ولحفظ مرتبة الإيمان كان علم الكلام أو علم التوحيد وهو الذي يبين حقيقة الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله ويرد على ما قد يرد في ذهن المؤمن من تساؤلات وشبهات، ويبين بطلان ما تدعيه الفرق المخالفة من عقائد باطلة وزائفة بالحجج والبراهين، وصنفت في ذلك العديد من المصنفات، وللحفاظ على مرتبة الإحسان كان علم التصوف الذي هو محل كلامنا، وهو العلم الذي يهتم بتزكية المسلم وتحليته بكل صحيح وتخليته من كل قبيح، فيأخذ الناس إلى مقام عبادة الله تعالى وكأنهم يرونه، وأنه في حالة نزولهم عن هذه المرتبة فهم يعلمون ويشعرون في كل لحظة بأنه تعالى يراهم ويراقب أفعالهم.

وكل هذه العلوم ليست ابتكارًا أو اختراعًا اخترعه المسلمون من قبل أنفسهم؛ بل هي تقسيم وتجميع لما هو موجود بالفعل، ومفرق بين ثنايا القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة.

ومن هذا يتضح لمن يسأل عن التصوف وحقيقته، بأنه أصل من أصول الدين، ومرتبة من مراتبه ينبغي أن يتحقق بها كل مسلم، وليس في التصوف الصحيح شيء من البدع المنهي عنها؛ بل كله مقيد بالكتاب والسنة، وكما أنه ليس لقائل أن يقول إن علم الفقه بدعة؛ لأنه لم يكن موجودًا في عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فكذلك ليس لأحد أن يدعى أن التصوف بدعة لأنه لم يعرف في العصر النبوي.

فصحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن لديهم الحاجة لجمع العلوم وإفراد كل علم بمسائله ومباحثه؛ لأنهم عايشوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم واقتبسوا من نوره، فكل هذه العلوم كانت حاضرة تامة في أذهانهم دون أن تكون مصنفة ومرتبة الأبحاث، وكذلك التصوف لم يكن عندهم علمًا مدونًا يتناقلونه؛ لكنه كان حالًا يتحققون به ويعيشونه، لذا فنحن دائما نردد عبارة الإمام الجنيد: "طريقنا هذا مقيد بالكتاب والسنة"، فليس في

التصوف شيء مبتدع من عند أنفسنا.

حكم التصوف:

تعلمنا أن الأحكام الشرعية بين الوجوب والاستحباب والكراهة والحرمة، ولكل منهم ما يترتب عليه من ثواب أو عقاب، فما هو حكم التصوف، هل يجب على المسلم أن يكون متصوفًا وأن ينتسب إلى إحدى الطرق الصوفية، وهل عليه شيء لو لم يفعل، ككثير من المسلمين؟

التصوف كمنهج متبع لتزكية النفس ومعالجة آفاتها واجب على كل مسلم، بل على كل إنسان، قال تعالى:﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[الشمس: ٩، ١٠].

أما التصوف كطريق وخطوات يسير بها المسلم المريد تحت رعاية شيخ بصير بذلك، قد اختلف العلماء في إيجاب ذلك من عدمه، فبعضهم ذهب إلى أن التصوف واجب، ومن ثم لا بد على المسلم أن يسلك طريق من الطرق الصوفية الصحيحة ويستمر فيه، وممن قال بذلك، شيخنا الإمام عبد الله بن صديق الغماري.

وذهب بعضهم إلى أن ذلك من المندوبات وليس من الواجبات.

والراجح عندي أن التصوف ليس بواجب، ودليلنا هو ما بينه سيدنا رسول الله في حديث جبريل أن الإحسان درجتين، ومن ثم فلا حرج على من انتسب لطريق ثم أراد الخروج منه، لكنه خلاف الأولى والأفضل.

ثانيا: إطلالة حول الشيخ والمريد:

يستنكر البعض فكرة الشيخ والمريد الشائعة في التصوف، فيعترضون على ذلك قائلين: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يأمرنا باتباع المشايخ من بعده، بل أمرنا باتباع القرآن والسنة، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ»(١)

فما هي أهمية وجود الشيخ الذي يذهب إليه الصوفية ويتبعونه ولا يخالفون تعاليمه، وما هو الجديد الذي سيعلمهم إياه الشيخ، وقد علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم كل شيء، وهل يكفي المسلم أن يقرأ القرآن الكريم والسنة النبوية ويتمثل بهم حتى يصل لمرتبة الإحسان التي يدعو لها التصوف؟

والجواب على ذلك: أن اتخاذ الشيخ عند الصوفية لا يخالف الأمر باتباع الكتاب والسنة في شيء، بل هو من اتباع القرآن الكريم والسنة والنبوية والدليل على ذلك أن الله تعالى أمرنا في كتابه الكريم باتباع سبيل الهداة إليه، قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥]، وأمرنا كذلك باتخاذهم قدوة لنا نسير على هداهم؛ قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، كما أن الأصل في اتباع القرآن والسنة النبوية الشريفة هو اتباع من امتثلوا بهما، وأحاطوا بفهمها على الوجه الصحيح، إذا ليس كل مسلم يهبه الله تعالى صحة الفهم وحسن الاتباع من تلقاء نفسه دون مرشد يرشده لذلك، ذلك لأن العقل مهما بلغ من فهم وعلم فهو محل للخطأ.

كما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد حثتنا على اتباع صحابته الكرام رضي الله

---

١ - موطأ مالك:ج٢/ص٨٩٩ ح١٥٩٤.

عنهم فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ»[1]، ولم يقل أحد بأن الأمر باتباعهم يتعارض مع الأمر باتباع القرآن الكريم والسنة النبوية، إذا هم رضي الله عنهم خير مَنْ فهم القرآن والسنة وامتثل بهما، فاتباعهم اتباع لهما .

وكذلك هو الأمر مع الشيخ في الطرق الصوفية، فاتباع الشيخ والامتثال له هو امتثال بما جاء به القرآن والسنة إذا هو مرشد إليهما بالحكمة والموعظة الحسنة، وسبق التجربة في حال السالكين إلى الله تعالى وما يعترضهم من شواغل قد تشغلهم عن السير، فالشيخ بعلمه وسبق تجربته وبما فتح الله به عليه يذلل لهم تلك الصعاب ويرشدهم إلى ما فيه صلاحهم، وقد قال الله تعالى : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

وفي قصة سيدنا موسي عليه السلام مع الخضر دليل على صحة التزام الشيخ المرشد الهادي؛ بل والسعي في الوصول إليه، فسيدنا موسي وهو رسول الله تعالى وكليمه الموحى إليه من رب العالمين، إلا أنه لم يمنعه ذلك، من السعي في طلب واتباع من يعلم صلاحه وعلمه وعلو منزلته عند الله تعالى، وهو سيدنا الخضر عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٦ - ٦٩].

والناظر المتأمل يجد أن مجرد قراءة ألفاظ القرآن الكريم قراءة صحيحة تحتاج إلى شيخ مرشد لذلك، فلا تصح قراءته إلا بشيخ فكيف بفهم معانيه وأحكامه وما خفي من أسراره، وكذلك الصلاة فقد جعل الله تعالى صلاة المصلي جماعة خلف إمام يؤتم به أعلى في الدرجة

---

١ - مسند عبد بن حميد: ج١/ص٢٥٠ ح٧٨٣.

من صلاته فردًا، فقد يصل الإنسان الله وحده دون شيخ إلا أن ثباته وكمال وصوله لن يكون إلا بشيخ.

يقول الإمام الغزالي: "من تطهر وتوضأ ورفع الحدث وصار صالحًا للصلاة يحتاج إلى إمام يقتدى به، فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل فإن سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة، فمن سلك سبل البوادي المهلكة بغير خفير قد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها، فإنها تجف على القرب وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر" [1].

ويتفرع عن أهمية الشيخ الحديث عن علاقة الشيخ بالمريد وما هي حدود هذه العلاقة فمن الأسئلة التي تدور حول هذا الموضوع:

طبيعة العلاقة بين الشيخ والمريد:

س: علمنا أن وجود الشيخ في حياة المريد من الأمور المهمة؛ إذ به يسترشد ويهتدي ويتجاوز ما قد يقع فيه من عقبات الطريق، لكن ما هي حدود تلك العلاقة بين المريد وشيخه؟ وهل يلزم من ارتباط المريد بشيخه أن يمتثل له في كل شيء وأن يطيعه طاعة مطلقة ويرجع إليه في كل شؤون حياته كما يقول بعض الصوفية، وأليس في ذلك إلغاء لإرادة المريد وعقله؟

إن أصل العلاقة بين الشيخ والمريد الحب والإحسان لا الطاعة والامتثال، فما ذهب المريد لشيخه إلا لأنه أحبه ووثق فيه وأحسن الظن فيه وفي صلاحه وأهليته لنصحه وإرشاده وإصلاح ما خفي عليه من عيوب نفسه، وإلا ما ذهب له مريدًا، وكذلك ما كان الشيخ ليقبل

---

١ - إحياء علوم الدين (٣/٧٥، ط. دار المعرفة)

أن يكون شيخًا لمريده إلا لأنه أحب له الخير والهداية، فالعلاقة بينهما ليست قائمة على الطاعة إنما قائمة على الحب، والطاعة فيها أمر ثانوي يأتي بعد الحب.

كما أن هناك فرق بين الطاعة التي هي الامتثال والتقيد بكلام الشيخ رغمًا، وبين أن يفعل المريد هذا ثقة وحبًّا في الشيخ، وتجربة معه، ويرى أن هذا الشيخ يشبه كلامه كلام الحكيم لتلميذه، وكلام الأب لابنه، فيحسن حينئذ الامتثال لما يرشده له شيخه ويفعله برغبة مشوبة بالمحبة والاقتناع، ويتضح من ذلك أنه على قدر هذا الحب تكون الطاعة. وكما يقول الإمام الشافعي:

لَوْ كانَ حُبُّكَ صَادِقًا لأَطَعْتَهُ إنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

فالحب هو الأساس الذي ينبغي أن تبنى عليه سائر العلاقات الإنسانية، ليس فقط علاقة المريد بشيخه، إذ أن ما بني على الحب دام واتصل، وما بني على غير الحب انقطع وانفصل.

فالشيخ لمريده كالأب الحنون المشفق على ابنه المحب له، والذي لا تؤثر طاعة ابنه له أو عصيانه على ما بينهما من علاقة الأبوة والبنوة.

فالأب يحب ابنه في حال طاعته له وفي حال عصيانه، بل تزداد شفقته عليه إذا ما عصاه؛ لأنه يعلم أن في ذلك ضررًا يلحق به، فلا تهدم معصيته له ما بينهما من علاقة؛ بل ولا تؤثر على قوتها، ذلك لأنها مبنيَّة على ما هو أوسع وأسبق وأثمن من الطاعة.

وكذلك فقد يخطئ المريد أو لا يمتثل، وتظل العلاقة بينه وبين شيخه قائمة، لأن الحب هو الأساس، فالحب دائم، أما الطاعة فهي بالقدر المستطاع كما يقول تعالى: ﴿فاتقوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

كما أن وجود شيخ ناصح حكيم في حياة الإنسان تسد حاجة من الحاجات الفطرية لكل

البشر في وجود شخص يثق به ويسترشد به ويعود له في جل أمره، وهذه هي مهمة الأنبياء والصالحين من بعدهم، وكما يقول البعض الشيخ الصالح كالنبي .

وليس في خلوص المريد لشيخه وتسليمه له خاصة فيما يتعلق بالذكر ما يمنع منه الشرع، بل لا يخفى ما في ذلك من نفع يعود على المريد، وقد قال تعالى: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]. والمفسرون على أن من خلص لواحد استحق معونته وإحسانه.

طرق التواصل مع الشيخ:

وبعدما علمنا أهمية الشيخ وطبيعة العلاقة بينه وبين المريد، يتفرع عن ذلك تساؤل مهم وهو كيف نصل للشيخ، وما هي طرق التواصل معه؟

فما هي طرق الوصول للشيخ لأخذ الورد منه، والتربية على يديه، وهل إذا صعب الوصول للشيخ لبعد المكان أو ضيق الزمان كأن يكون في بلد غير بلد المريد، هل يمكن التواصل معه عبر وسائل التواصل الحديثة، وهل تصح تربية الشيخ للمريد عن طريق الرؤى؟

على المريد أن يبحث عن الشيخ الذي يرغب أن يسترشد به إلى الله تعالى، وأن يختار من هو ممتثل بالسنة النبوية وأيسر في السلوك، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، أما من تعذر عليه الوصول للشيخ فعليه أن يكثر من الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فهو بها يستدل على الشيخ إن شاء الله تعالى، وإن لم يجده فكثرة الصلاة على النبي تربيه وتهذبه.

فإذا وجده ووصل إليه فقد حاز خيرا كثيرا، ثم إذا تعذر بعد ذلك المداومة على التردد عليه والتلقي عنه، جاز له وصح أن يأخذ الورد وأن يتعاهده الشيخ عن طريق أحد مقدميه في الطريقة أو بإحدى طرق التواصل الحديثة كالتواصل عبر التليفون أو الإنترنت.

أما في إمكانية التربية عن طريق الرؤى، فهو مما يحدث كثيرًا بين الشيخ والمريد.

الفرق بين المريد والسالك:

س: ما الفرق بين المريد والسالك، وما القدر الضروري من العلم للسالك؟

ج: السالك هو من يطبق أمر الله في العبادة قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والمريد اسم فاعل من أراد، وهو الذي أراد الله تعالى، وأراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأراد الشيخ، فمن أراد شيئًا وذهب إليه فهو مريد له.

وهناك مراد وهو الذي يريده الله تعالى، فيجذبه إلى طريقه، وييسر له مرضاته، حتى يدخله الجنة، يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «ومنكم من يساق إلى الجنة بالسلاسل». أخرجه مسلم.

فهناك مريد، وهناك مراد، وهناك عابد، والفرق بين العابد والمريد أن العابد ليس ملتزما بشيخ يتلقى عنه، ويتعلم منه الذكر والفكر، إنما هو يعبد الله تعالى بنفسه غير مقيد بشيخ ولا طريقة في العبادة.

وجميعهم ناجون؛ لذلك جعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم الإحسان على مرتبتين، وليس مرتبة واحدة. فقال: الإحسان "أن تعبد الله كأنك تراه" وهذه الأولى، ثم قال: "فإن لم تكن تراه فهو يراك".

فدل هذا على أن الناس ليسوا سيان في عبادتهم لله تعالى، فهما طريقان أو مستويان وليسا مستوى واحدا، والسالك أعم من المريد.

أما عن القدر الضروري للعلم؛ فيجب على السالك أن يتعلم الشرع الشريف، كشروط الصلاة، يجب أن يتعلم الوضوء، القبلة، دخول الوقت، أركان الصلاة، وهكذا.

ويجب علينا كلما شرعنا في أمر من الأمور أن نتعلم أحكامه قبل الشروع فيه.

انقطاع الإمداد وعلامة ذلك:

س: كيف يعرف المريد أن إمداد شيخه قد انقطع عنه، وماذا يفعل حينئذ؟

من علامات انقطاع إمداد الشيخ ألا يشعر المريد بالديمومة، فيرى أنه انقطع عن الذكر والورد بعد أن بدأ فيه، ثم رجع إليها ثم انقطع عنها، ثم رجع إليها، فإن داوم عليها، فالديمومة علامة الصحة.

وأما إذا وجد حاله لا يستطيع أن يداوم على ورده وأذكاره ولا يستطيع أن يكمل مع الشيخ، فهذا معناه أنه لا رزق له عنده، ولا يعني ذلك أبدا أن هناك عيبًا أو تقصيرًا عند الشيخ أو عند المريد، بل كل ما في الأمر أنهما لم يتلاءما، فهو رزقه عند شيخ آخر بطريق آخر.

وعليه حينئذ أن ينتقل إلى طريقة أخرى، مع شيخ آخر، لأنه عندما أقام التجربة مع هذا الشيخ لم تنتج معه، وإنتاجها هو الاستمرار والديمومة، وهذه هي العلامة الوحيدة الأساسية.

وهناك علامات أخرى ثانوية، مثل الاستحضار والترقي، مثل أن تكثر عليه الإشراقات، لكن هذه العلامات ليست أساسية، الاستمرار والديمومة هما العلامة الأساسية.

الدعاء للشيخ:

ينتشر بين السادة الصوفية كثرة الدعاء لمشايخهم، وذلك في ختام كل مجلس أو في ختام الصلوات، وكذلك قراءة الفاتحة لهم، فهل هذا الأمر واجب عليهم مأمورين به كالأوراد، أم يفعلونه تأدبًا ووفاء لمشايخهم، وهل من لا يفعل ذلك يعد مقصرًا في حق شيخه؟

العلاقة بين الشيخ وتلميذه مبنية على المحبة قبل أن تكون مبينة على الطاعة، وربما زادت محبة التلميذ لشيخه عن محبته لنفسه، بحيث يؤثره على نفسه، ويتمنى له من الله تعالى أفضل

مما يتمنى لنفسه، وذلك لأن محبة الشيخ إنما هي مرتبة يترقى منها المريد إلى مرتبة محبة النبي محمد صلَّى الله عليه وعلى آله وسلم، ومنها إلى مرتبة محبة الحق جل وعلا، ذلك لأن الشيخ هو دليله إلى الله تعالى وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: "إِنَّ الدَّالَّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ"[١].

يقول الإمام أحمد بن حنبل عن شيخه وأستاذه الشافعي رحمهما الله: "الشافعي من أحباب قلبي".[٢]

وقيل: كان الشافعي رضي الله عنه يكثر من زيارة أحمد، وكان أحمد يقل من زيارته هيبة له فقيل للشافعي: إنك لتزوره أكثر وهو المحتاج إليك. فأنشد:

قالوا يزورك أحمد وتزوره ... قلت الفضائل لا تفارق منزله

إن زارني فبفضله أو زرته ... فلفضله فالفضل في الحالين له[٣]

وقد جبل السلف الصالح من علمائنا على ذلك، فكانوا يواظبون على الدعاء لمشايخهم ولمن تعلموا على أيديهم.

يقول الإمام أبو حنيفة رحمه الله: ما صليت صلاة منذ مات حماد بن أبي سليمان. شيخه. إلاَّ استغفرت له مع والديَّ، وإني لاستغفر لمن تعلمت منه علمًا أو علمته علمًا.

وقال الإمام أبو يوسف القاضي، تلميذ أبي حنيفة رحمهما الله: إني لأدعو لأبي حنيفة قبل أبويَّ، وسمعت أبا حنيفة يقول: إني لأدعو لحماد مع والديَّ.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي، فإني سمعتك تكثر من الدعاء له؟ فقال: يا بني كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر! هل

١ - سنن الترمذي:ج٥/ص٤١ ح٢٦٧٠.

٢ - طبقات الحنابلة لأبي يعلى ج٢٨٩/٢، وكان يدعو له وقت السحر مع والديه.

٣ - السفاريني، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب ٢٨٥/١، مؤسسة قرطبة، ط١٩٩٣/٢م.

لهذين من خلف، أو عنهما من عوض.[1]

وقال إسحاق بن راهويه: قل ليلة إلاَّ وأنا أدعو فيها لمن كتب عني، ولمن كتبنا عنه. [2]

وقال الحارث بن سُريج: سمعت يحي القطان يقول: أنا أدعو الله للشافعي، أخصه به.

وقال الإمام أحمد: ما بت منذ ثلاثين سنة إلاَّ وأنا ادعو للشافعي، واستغفر له.

وقال ابن أبي حاتم: رأيت في كتاب عبد الرحمن بن عمر الأصبهاني، المعروف برسته إلى أبي زُرعة بخطه: اعلم –رحمك الله– أني ما أكاد أنساك في الدعاء لك ليلي ونهاري: أن يمتِّع المسلمون بطول بقائك، فإنه لا يزال الناس بخير ما بقي من يعرف العلم، وحقه من باطله، وقد جعلك الله منهم.[3]

وقال عبد الله بن أحمد: ربما سمعت أبي في السحر يدعو لأقوام بأسمائهم.

فأفضل ما يعبر به عن المحبة هو الدعاء لمن نحب، وذلك ليس واجبًا يلزم به الشيخ مريده، أو يلقنهم إياه، إنما هو من باب الأدب مع الشيخ والمحبة له، ووفاء لفضله عليه.

والصوفية هم أهل الأدب وأهل العرفان والوفاء، فألزموا أنفسهم الدعاء لمشايخهم إذ علموا أن الخير لمشايخهم خير لهم، ولذا جعلوا ذلك من أورادهم وسعدوا به، ومن غفل عن هذا أو انشغل لم يكن مقصرًا في حق شيخه ما دامت محبته لشيخه ووفاءه له دائمين.

ثالثًا: الإذن وما يتعلق به من مسائل.

أما التساؤل الذي يطرحه البعض بأنه هل على المريد أن يستأذن شيخه في كل أموره،

---

١ – ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي عياض ١٨٢/٣ .مطبعة فضالة بالمغرب، ط١/١٩٧٠م. وسير أعلام النبلاء ج١٠/ ٤٥.

٢ – (فتح المغيث ج٣/ ٣٠١).

٣ – (الجرح والتعديل ج١/ ٣٤١).

كزيادة الورد والنقصان منه، وأمور الحياة كالبيع والشراء وما أشبه ذلك من أمور قد تطرأ على المريد مما يعتاد عليه الناس؟

فيجاب على ذلك: أنه على المريد أن يستأذن شيخه في زيادة الورد أو الذكر، أو الأمور الحاسمة التي يتردد فيها من أمور حياته، ويحتاج فيها لمشورة الشيخ وحكمته، أما الأمور الاعتيادية فلا يلزمه أن يستأذن فيها شيخه.

وقد كان المشايخ في القديم يربون أبناءهم على الاستئذان في مثل هذه الأمور لما كان لها من أثر واضح في حياتهم، أما الآن وبعد أن تسارعت الحياة وأصبحت تسابق الزمن، فلم تعد تلك الأمور الحياتية مما له أثر عميق في حياة المريد.

فالأصل أن الشيخ ليس مسيطرًا على المريد ولا لاغيًا لعقله وإرادته، ولا يريد ذلك ولا يتسع وقته لمثل ذلك، فالمريد حر في اختيار كافة أمور حياته، والشيخ في حياته ناصح ومرشد، فإن أراد نصحه ذهب إليه والتزم قوله، وذلك على سبيل الندب لا الوجوب؛ لما له من بصيرة وحكمة وسبق تجربة، وإن لم يرد فلا شيء يلزمه بذلك.

فالعلاقات الإنسانية في الإسلام مبنية على التكامل والتجانس لا على التضاد والتسارع، يقول تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[البقرة: ٢٢٨].

ونخلص من ذلك أنه يجب على المريد الالتزام بتعليمات الشيخ فيما يخص الذكر والأوراد، وألا يتجاوزه في ذلك فلا يزيد من أوراده أو ينقص منها دون إذن من شيخه، فالطريق تربية، والتربية تبليغ الشيء شيئا فشيئا على الوجه الذي يراه الْمُرَبِّي، ويلزم عنها الالتزام بما يرشد إليه المربي، والشيخ أعلم بما يصلح المريد من نفسه، وأعلم بما يحتاجه كل مريد من التربية التي تتناسب مع حاله والتي تناسب شخصيته.

وكما أن المريض يجب عليه الامتثال لما ينصحه به الطبيب المكلف بعلاجه من الأمراض

البدنية، فكذلك على المريد الامتثال لما ينصحه به شيخه لعلاج ما يتعلق بأمراض النفس وعللها، فالشيخ كالطبيب، ولكنه طبيب للنفوس وليس للأبدان.

وفي ذلك يقول الغزالي: فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ عُيُوبَ نفسه فله أَنْ يَجْلِسَ بَيْنَ يَدَيْ شَيْخٍ بَصِيرٍ بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه في نفسه ويتبع إشارته في مجاهدته وهذا شأن المريد مع شيخه، والتلميذ مع أستاذه، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه.[١]

وذلك المعنى من الرجوع للشيخ والالتزام بتوجيهاته، هو من الفروق الرئيسة بيننا وبين النابتة، الذين يسيرون على هواهم ويرفعون شعار "هم رجال ونحن رجال"، فلا ينزلون الناس منازلهم التي أنزلهم الله تعالى بها، كبرا منهم وعنادًا، أما أهل الله والصادقون من مريديهم يضعون أمام أعينهم قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ به". متفق عليه.

الإذن في الأوراد والأحزاب:

علمنا أنه يلزم المريد الرجوع لشيخه فيما يتعلق بأمر الطريق والأوراد والأحزاب، فهل يتحتم عليه أن يعود له في كل ورد وذكر يود أن يذكر به، فربما احتاجت نفسه لخلوة يذكر فيها ربه، وربما سمع أو قرأ من الأذكار ما حبب إلى نفسه فأراد أن يذكر به ولم يتاح له أخذ الإذن من الشيخ في ذلك الوقت، فلماذا يُقيد المريد في أمر الذكر بالشيخ، والذكر كله خير؟

نعم الذكر كله خير، ومن الخير أيضًا المداومة عليه، فالشيخ حريص جدًا على أن يداوم المريد على ذلك الخير ولو بالقليل منه، لا أن يكثر منه ثم ينقطع عنه، وقد قال صلى الله عليه

---

١ - إحياء علوم الدين (٣/٦٤، ط. دار المعرفة)

وآله وسلم: "إِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ عِنْدَ اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ ".(١)

وقد وجدنا كثيرا ممن شَقُّوا على أنفسهم بكثرة الأذكار قد تشتتوا وشق عليهم ذلك فتركوها وانقطعوا عن جميع الأذكار، لذا فالشيخ يتدرج مع السالك بما يعلم أن في ذلك صلاحه واستمراره، وقد نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يشرع الإنسان في خير ثم يتركه، قال صلى الله عليه وآله وسلم: "يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ ".(٢)

فهذا هو الغرض من إخبار الشيخ واستئذانه في أمر الأذكار.

فالشيخ يضبط عند المريد ما يصيبه من حماس ورغبة في الاستزادة بما يعلمه عنه من طاقة تمكنه من الالتزام والمداومة، وهذا هو الذي فعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما نهى أحد صحابته من قراءة القرآن كله في يوم، فقد روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: "جمعتُ القرآن، فقرأت به في كل ليلة، فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: "إني أخشى أن يطولَ عليك زمانٌ أن تَمَلَّ، اقْرأه في كل شهر"، قلت: يا رسول الله، دعني أَسْتَمْتِعْ من قوتي وشبابي، قال: "اقرأه في كل عشرين"، قلت: يا رسول الله، دعني أَسْتَمْتِعْ من قوتي وشبابي، قال: "اقرأه في كل عَشرٍ"، قلت يا رسول الله، دعني أَسْتَمْتعْ من قوَّتي وشبابي، قال: "اقرأه في كل سبع"، قلت: يا رسول الله، دعني أَسْتمْتِعْ من قوتي وشبابي، فأَبى.

وقد جبلت طبيعة البشر على أنه يعقب كل جهد فتور، والشيخ حريص على ألا يصل المريد إلى فتور يبعده عن مواصلة السير.

---

١ - صحيح البخاري: ج٥/ص٢٣٧٣ ح٦١٠٠.

٢ - صحيح البخاري:ج١/ص٣٨٧ ح١١٠١.

قال صلى الله عليه وسلم: " فَإِنَّ لِكُلِّ عَابِدٍ شِرَةٌ وَلِكُلِّ شِرَةٍ فَتْرَةٌ فَإِمَّا إِلَى سُنَّةٍ وَإِمَّا إِلَى بِدْعَةٍ فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّةٍ فَقَدِ اهْتَدَى وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ ». (١)

كما أن تلقين الشيخ للأذكار والأوراد الأحزاب له ترتيب معين يعلمه الشيخ يتناسب مع خبرته وسبق تجربته في معالجة أفات النفوس وعللها، والذكر بها بعد أخذها عن الشيخ وبأذنه به سر يصل ما بين المريد وشيخه، لذا فالانتفاع بالذكر يبلغ أقصى درجاته إذا ما كان مأذُونًا به.

أما عن رغبة المريد في الذكر ببعض الأوراد والأحزاب في حالة تعذر الحصول على الإذن من الشيخ، فلا مانع من الذكر حينئذ بالكثير من الأوراد والأحزاب المأذون بها أذنًا عامًا، وهي أحزاب شهيرة نافعة مجربة، كحزب البر ويسمى بالحزب الكبير، وحزب البحر، وحزب النصر، وحزب الإخفاء، وحزب الشكوى، وحزب اللطف، وهذه الأحزاب هي الأكثر شيوعًا من أحزاب أخرى موجودة، ومأذون فيها إذنا عاما ولها تأثيرات طيبة في النفس.

وأيضا الصلاة على سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم من أنفع الأذكار وأمرها مفتوح بلا قيد؛ لأنها هي التي تحل حتى محل الشيخ نفسه، حتى قال السادة الصوفية: إن من لا شيخ له يصلي على سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم ألف مرة يوميًّا على الأقل، وأن من يريد الوصال والاتصال الدائم مع سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم فعليه بذلك أيضا.

ومن الوسائل المساعدة أيضا على ذلك قراءة السيرة النبوية كثيرا، وخاصة الأنوار المحمدية لسيدنا الشيخ يوسف النبهاني وهي اختصار للمواهب اللدنية للقسطلاني وشرحها

١ - مسند أحمد:ج٢/ص١٥٨ ح٦٤٧٧.

للزرقاني.

وأما قراءة كتب التصوف فللمريد أن يقرأ ما يشاء، ولكن عليه ألا يتبنى مما قرأ إلا ما هو واضح؛ لأنه ليس كل قارئ يفهم بتمام الفهم، ولذلك إذا أشكل عليه شيء فليراجع شيخه، لكن هو له أن يقرأ ما يشاء، وهذا على العموم. أما الكتب الخاصة مثل التصوف الفلسفي فهذا أمر آخر لا بد فيه من الإذن لفك مصطلحاته ورموزه.

انتظار الوارد بعد الورد:

نص أهل الله على انتظار الوارد بعد الأذكار، ومن لا يستطيع فليس هذا سوء أدب ولا يترتب عليه إثم أو عتاب، ولكنه نوع من ضياع فرص، كمن يأتيه رزق، فتركه ولم يأخذه.

الرابطة أثناء الذكر وكيفية تحقيقها:

تلاوة الورد يستحب أن تكون مع إغماض العينين حتى لا ينشغل بما حوله من عالم الأشياء، وحتى يعمل على تحقيق الرابطة مع الشيخ إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المولى عز وجل، وهذه الرابطة دليلها (وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) (التوبة: ١١٩)، بمعنى أن يكون هناك رابطة بينكم وبين الصادقين. إلا أن ذلك قد يحدث بعض التصورات والخواطر التي تتعارض مع قوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشورى: ١١)، فالله ليس كمثله شيء، ولكن أثناء الذكر قد ترد خواطر وصور لله سبحانه وتعالى، فلا بد للمريد أن يطرد هذه الصور، ويطرد هذه الخواطر التي تشغل الإنسان عن الضراعة لله ومناجاته سبحانه وتعالى، فكان التوجيه بأن يضع المريد شيئًا أمام عينيه يتصوره ويتخيله ليمنع من الخواطر كالكعبة وكقبر سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم الشريف، أو صورة للشيخ، بمعنى وضع شيء من المخلوقات في تصوره؛ الكعبة مخلوقة والقبر الشريف مخلوق والنبي مخلوق والشيخ مخلوق وصورة هذا المخلوق تمنع من مرور صور منسوبة إلى الله فنقع في المحظور.

والرابطة يتم طلبها أثناء الأوراد فقط حتى نسد الخواطر والتوهمات والصور التي تنسب على غير وجهها، أما خارج الأوراد في أثناء الحياة، فلا حاجة لنا بذلك.

هيئة الذاكر:

آداب المريد عند الذكر عديدة ومتنوعة، وهي من باب المستحبات، وكلها شروط كمال، فمن تركها فلا إثم عليه ولا عتاب. ومن هذه الآداب: أن يكون على طهارة، وأن يلبس البياض، وأن يجلس جلسة معينة، وعدم سند الظهر أثناء الذكر، وكلها محاولات بذل مجهود عضلي جسماني للسيطرة على الجسد وجعله أكثر وهنا، مما يجعل علاقة الروح بالجسد أكثر شفافية، وأخذوا ذلك من حديث البخاري: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا"[(١)]

وفي ذلك أيضا قال بعضهم يوجه المريد أن (طه)، يعني طأها، وكأنه يراوح بين قدميه من شدة القيام. وكل هذه شروط كمال تمت بالتجريب، والتكرار.

---

(١) صحيح البخاري:ج٤/ص١٨٣٠ ح٤٥٥٧.

رابعًا: مفاهيم صوفية.

أ- العهد.

مصطلح "العهد"، "البيعة"، "إلباس الخرقة"، ما هو المقصود من هذه المصطلحات عند الصوفية، وما هو أصلها وأدلتها، وما هي مراحل تحققها في الطريق الصوفي؟

أما العهد، فهو: الميثاق، فكل ما ألزم به الإنسان نفسه، أو التزم به مع غيره فهو من العهد، يقول تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وفي الحديث الشريف: "وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت".(١)

أي ملتزم بما أقررت لك به من الوحدانية والعبادة.

والعهد عند الصوفية: معاهدة المريد شيخه على فعل الطاعات وترك المنكرات والالتزام بما تلقاه عن شيخه من قرب دينية كالذكر والفكر، وتربية سلوكية، كالمداومة على تطهير النفس من الآفات.

ومعاهدة المسلم لشيخه على الخير مشروع بالكتاب السنة وفعل السلف الصالح، فأما من القرآن الكريم، فقد أثنى الله تعالى على مبايعة المسلمون للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]. ومن السنة: فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه: "بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو

---

١ - أخرجه الإمام البخاري في "صحيحه"

كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه فبايعناه على ذلك".[1]

وعن سلمى بنت قيس رضي الله عنه، وكانت إحدى خالات رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صلت معه القبلتين، وكانت إحدى نساء بني عدي بن النجار. قالت: جئت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فبايعته في نسوة من الأنصار، فلما شرط علينا "أن لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف قالت: قال: "ولا تغششن أزواجكن"، قالت: فبايعناه ثم انصرفنا، فقلت لامرأة منهن: ارجعي فاسألي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غش أزواجنا؟ قالت: فسألته فقال: " تأخذ ماله فتحابي به غيره".[2]

وعلى ذلك كان صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه، قال: "قدمت المدينة وقد مات أبو بكر رضي الله عنه، واستخلف عمر رضي الله عنه، فقلت لعمر: ارفع يدك أبايعك على ما بايعت عليه صاحبك قبلك، على السمع والطاعة فيما استطعت".[3]

وعن سليم أبي عامر رضي الله عنه، قال: "إن وفد الحمراء أتوا عثمان رضي الله عنه، فبايعوه على ألا يشركوا بالله شيئا، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويصوموا رمضان، ويدعوا عيد المجوس، فلما قالوا "نعم"، بايعهم.[4]

---

١ - صحيح البخاري:ج١/ص١٥ ح١٨.

٢ - مسند أحمد:ج٦/ص٣٧٩ ح٢٧١٧٧.

٣ - الطبقات الكبرى لابن سعد ١٥/٧.

٤ - الإمام أحمد في كتاب السنة. والمتقي الهندي في كنز العمال حديث رقم ١٥٠٤.

فالعهد عند الصوفية نوع من المبايعة على فعل الطاعات وترك المنكرات، وهو مشروع بالكتاب والسنة وفعل السلف الصالح من الصحابة والتابعين.

ما هي مراتب العهد وطريقة الحصول عليه:

للعهد عند السادة الصوفية مراتب ثلاث: كالدوائر، وهذه الدوائر بعضها أوسع من بعض، وبعضها فوق بعض، فهو كأنه دائرة كبيرة فوقها دائرة أصغر منها فوقها دائرة أصغر منها وهكذا، وبعض الناس لا يميز بين هذه الدرجات لأن كلٍّ منها دائرة، هي على الإجمال كما يلي:

المرتبة الأولى "الدائرة الكبرى": وفيها يتم إعطاء الأذكار للمريد، وطلب الالتزام بها كل ورد في وقته وبعدده، فإذا أخذها المريد على ذلك فهذا بمثابة عهد، أي أنه قد عاهد الشيخ على الالتزام بما لقنه إياه من أذكار وأوراد بالكيفية التي علمها له.

ومن الأهمية بمكان أن يعلم أبناء الطريقة أن المريد المقصر في الأوراد هو في عناية الشيخ أيضًا؛ لأنه أولى بالرحمة به والوقوف بجانبه ومساعدته.

المرتبة الثانية "دائرة الانتساب": وهي أعلى من المرتبة السابقة، حيث تزيد هذه المرتبة على مرحلة التلقي والتلقين من الشيخ، إلى الإذن الخاص للمريد وأخذ العهد عليه بالالتزام بالطاعات والانتهاء عن المعاصي، إضافة إلى الالتزام بالطريق ومواظبة على سلوكه ومداومة الذكر والفكر حسب منهج الشيخ وطريقته، إضافة إلى خدمة الطريقة وشيخها وإخوانه فيها، ومواصلة السلوك في هذا الطريق حتى نهايته.

مرتبة السند "دائرة الصحبة" : وهذه الدائرة هي التي يُدْخِلُ فيها الشيخُ مريدَه، بعد أن يجده صالحا ومؤهلا، وفي هذه الدائرة وهي مرحلة أعلى من سابقتيها؛ يعطي الشيخ سند الطريق للسالك، ويأذن له في إعطاء الطريقة وتسليك المريدين على طريقة شيخه، فيحرص

السالك على شدة الالتزام بمنهج الشيخ وطريقته التي ألزمته به صحبة الشيخ وتربيته، فإن خرج عنه وخالفه فقد نقض عهده، وليس خروجًا عن الملة أو عن الإسلام، ولكنه يعنى نقصا مما يعتري البشر.

ومسألة إلباس الخرقة عند الصوفية لها دلالة ، فما هي؟

الخرقة في اللغة هي: القِطْعَةُ من الثَّوْبِ، وجمعُها خِرَق.[1]

وفي مصطلح الصوفية: هي الثوب، أو العباءة التي يلبسها الشيخ للمريد الذي سلك معه الطريق ودخل في إرادته.

وفي إلباس المريد الخرقة سريان للبركة من الشيخ إلى المريد.

وإلباس الخرقة مما جرى العمل به سلفًا وخلفًا، وله من السنة النبوية ما يستدل به على جوازه، فعن أم خالد رضي الله عنها قالت: "أتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة، فقال: «من ترون أن نكسو هذه» فسكت القوم، قال: «ائتوني بأم خالد». فأتي بها تحمل، فأخذ الخميصة بيده فألبسها، وقال: «أبلي وأخلقي». وكان فيها علم أخضر أو أصفر، فقال: «يا أم خالد، هذا سناه».[2]

وقد نص العلماء على أن في هذا الحديث مستندًا على جواز إلباس المشايخ الخرقة.[3]

كما أن للسادة الصوفية في إلباس الخرقة سند متصل، ذكره الإمام السيوطي فيما ينقله عن ابن الصلاح؛ حيث قال: قال الشيخ الإمام الحافظ تقي الدين ابن الصلاح إمام الشافعية

---

١ - المنجد في اللغة (ص: ١٩٠، ط. عالم الكتب).

٢ - أخرجه البخاري في "صحيحه"

٣ - نص على ذلك العلامة الشِّيرازيُّ الحَنَفيُّ المشهورُ بالمُظْهِري (المتوفى: ٧٢٧ هـ) في "المفاتيح في شرح المصابيح" ١٢٢/٦، ط. دار النوادر، والطيبي في "شرح المشكاة" (١٢/ ٣٦٩٠، ط. مكتبة نزار مصطفى).

والمحدثين في عصره: "لبس الخرقة من القرب، وقد استخرج لها بعض المشايخ أصلا من سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو حديث خميصة أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص .. الحديث، قال ابن الصلاح: ولي في لبس الخرقة إسناد عالي جدًا، ألبسني الخرقة أبو الحسن المؤيد بن محمد الطوسي، قال: أخذت الخرقة من أبي الأسعد هبة الرحمن بن أبي سعيد عبد الواحد بن أبي القاسم القشيري، قال: أخذت الخرقة من جدي أبي القاسم، وهو أخذها من أبي علي الدقاق، وهو أخذها من أبي القاسم إبراهيم بن محمد بن حمويه النصراباذي، هو أخذها من أبي بكر دلف بن جحدر الشبلي، وهو أخذها من الجنيد، وهو أخذها من السري السقطي، هو أخذها من معروف الكرخي، وهو أخذها من داود الطائي، وهو أخذها من حبيب العجمي، هو أخذها من الحسن البصري، وهو أخذها من علي بن أبي طالب، وهو أخذها من النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

قال ابن الصلاح: وليس بقادح فيما أوردناه كون لبس الخرقة ليس متصلًا إلى منتهاه على شرط أصحاب الحديث في الأسانيد، فإن المراد ما يحصل به البركة والفائدة باتصالها بجماعة من السادة الصالحين[1]

ويروي الإمام الجزري سنده في لبس الخرقة فيقول: "أما لبس الخرقة واتصالها بأمير المؤمنين علي كرم الله وجهه، فإني لبستها من جماعة ووصلت إلي منه من طرق رجاء أن أكون في زمرة محبيه وجملة مواليه يوم القيامة. فمن ذلك أني لبست الخرقة المتبركة من يد شيخي وأستاذي الشيخ الصالح المسند المعمر أبي حفص عمر بن الحسن بن مزيد بن أميلة المراغي، ثم الحلبي، ثم المزي، في يوم الثلاثاء ثاني عشر شوال سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وأخبرني

١ - الحافظ السيوطي : "تأييد الحقيقة العلية" (ص: ١٢، ط. المكتبة العلمية)

أنه لبسها من يد شيخه الإمام العلامة الزاهد العارف العابد الناسك خطيب الخطباء عز الدين أبي العباس أحمد بن الشيخ الإمام الصالح الزاهد محيي الدين إبراهيم بن عمر بن الفرج بن أحمد بن شابور الواسطي الفاروبي شيخ القراءات والتفسير والتصوف في سنة تسعين وستمائة، وللشيخ عز الدين المذكور في خرقة التصوف ثلاث طرق: أحمدية وقادرية وسهروردية. فأما الأحمدية: فإنه لبسها من يد والده الشيخ محيي الدين إبراهيم المذكور وهو لبسها من يد شيخه ومربيه الشيخ الصالح الإمام العالم سيد مشايخ زمانه سيدي أحمد بن الشيخ أبي الحسن علي بن أحمد بن يحيى بن حازم بن علي بن رفاعة المغربي المعروف بابن الرفاعي رحمة الله تعالى عليه.

وأما القادرية فإنه لبسها من يد شيخه الإمام شيخ العارفين وإمام السالكين شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله المعروف بعمويه ابن سعد بن الحسين البكري السهروردي، وهو لبسها من الشيخ الإمام العالم السيد الكبير صاحب المواهب والكرامات والعجائب الظاهرات أبي محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى بن حبكي دوست ابن أبي عبد الله بن يحيى الكيلاني.

وأما السهرورديه: فإن الشيخ شهاب الدين السهروردي رحمة الله عليه لبسها من يد شيخه وعمه الشيخ الإمام العارف الكبير ضياء الدين أبي النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن سعد بن الحسين بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه .."[1]

فلبس الخرقة علامة المصاحبة والاقتداء بين الشيخ والمريد، وهي مما استحسنه المشايخ

١ – شمس الدين ابن الجزري في مناقب الأسد الغالب مُمزق الكتائب (ص:٧١-٧٢، ط. مكتبة القرآن)

ورأوا من أثره وبركته الكثير، وهو مما له أصل في السنة النبوية، فلا صحة لقول من يراه بدعة منهي عنها، كما أنه ليس كل بدعة مستحدثة منهي عنها، فمن البدع ما يكون حكمه الاستحباب، بل والوجوب أيضًا.

قال الشيخ تقي الدين بن الصلاح: "من القرب لبس الخرقة، وقد استخرج لها بعض المشايخ أصلًا .. فمن يلبسها فله مقصد صحيح وأصل في السنة وشاهد من الشرع ومن لم يلبسها فله رأيه، وكل تصاريف المشايخ محمولة على السداد والصواب ولا تخلو عن نية صالحة"[(١)] اهـ.

وقد ألبسني الخرقة سيدي الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري[(٢)] وكان يتبع الطريقة الدرقاوية[(٣)] الشاذلية[(٤)].

---

١ - الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية (١/ ٣٠٨، ط. جمعية النشر والتأليف الأزهرية)

(٢) هو الحافظ السيد أبو الفضل عبد الله محمد محمد الصديق الغماري الطنجي وينتهي نسبة على سيدنا الحسن السبط عليه السلام، المتوفى ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، حفظ القرآن والمتون والتحق بجامعة القرويين وحضر عدة شروح منها: شرح الخرشي، وحاشية أحمد بن الخيّاط وحضر شرح البخاري للقسطلاني وجمع الجوامع شرح المحلي من أوّله إلى كتاب السُّنّة. وأجازه السيد مهدي العزوزي. وكان الشيخ عبد الله واحدا من كبار علماء الحديث في عصره. رجع إلى طنجة فدرّس بالزاوية الصديقيّة. سافر إلى مصر في ١٩٣٠م والتحق بالأزهر. حصل على عالمية الأزهر في ١٩٣١م. وطريقتنا العلية الصديقية منسوبة إليه.

(٣) الدرقاوية: طريقة شاذلية سنية، مؤسسها أبو المعالي مولانا محمد العربي بن أحمد الدرقاوي الحسني (ت١٢٣٩هـ)، قامت على هدى من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، طريقة مجددة لما بلي من طريق القوم، ومحيية لما مات من السنن على نهجهم وسلوكهم، مصفية ومميزة للتصوف الحق ، ومنها تفرعت كثير من الطرق كالصديقية والحبيبية والكتانية والحراقية والعجيبية.

(٤) الشاذلية طريقة صوفية سنية مؤسسها الإمام أبو الحسن الشاذلي (٥٩١ - ٦٥٦ هـ) وهو شيخ الطريقة

فقد جاء في يومٍ، ومعه عباءة، لها شكل معين، ووجدته يلبسني إياها، فقلت له: "ما هذا يا سيدي؟" قال: هذه الخرقة، والخرقة ألبسها سيدنا علي رضي الله عنه، للحسن البصري.. ثم قال لي: "هذه أمة مرحومة، لا تتبع الأوهام، ولا تبتدع، وإنما تتبع، أمة فيها معونة وفيها حفظ".

ب- السند في الطرق الصوفية:

يهتم الصوفية بمسألة الإسناد في الطريق، فما هو معنى السند، وما أهمية الانتساب لسند من الإسناد، ومن هم رجال الإسناد في الطرق الصوفية؟

السند هو سلسلة الرواة الذين نقلوا النص (المتن) عن مصدره الأول، وسمى هذا الطريق سندًا، والسند في التصوف الإسلامي هو سلسلة الشيوخ وصولًا إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأساس السند والسلوك هو الصحبة والمتابعة والاقتداء. وهو يماثل السند في العلوم الشرعية، وخاصة علوم الحديث.

فالسند فيه بركة وخير كثير؛ لأنه حلقات اتصلت وارتبط بعضها ببعض حتى يصلوا بذلك إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيمتد ويسري بها النور من نوره صلى الله عليه

الشاذلية، وإليه ترجع أورادها وسلوكها وأحزابها، وهو علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي المغربي، ولد في بلاد "غمارة" بريف المغرب، ونشأ في بني زرويل (قرب شفشاون) وتفقه وتصوف بتونس، وسكن "شاذلة" قرب تونس، فنسب إليها. وتوفي بصحراء عيذاب في مكان يقال له حميثرة، وكان في طريقه إلى الحج عن عمر ثلاثة وستون عاما كالعمر الذي توفي به النبي صلى الله عليه وسلم. تتلمذ عند نشأته على الإمام عبد السلام بن مشيش، في المغرب، وكان له كل الأثر في حياته العلمية والصوفية، ورحل إلى مصر وأقام بالأسكندرية، حيث أصبح له أتباع ومريدون، وانتشرت طريقته في مصر بعد ذلك. ومفتاح طريقته الحب، ومن سماتها أنها الأقرب إلى السنة والأيسر والأرفق.

وآله وسلم، من حلقة إلى حلقة، ومن جيل إلى جيل. فصاحب السند قوي بسنده لا ينفرد فيه بقول من نفسه؛ بل يروي وينقل عن مشايخه الذى نقلوه عن مشايخهم، ومشايخهم عمن فوقهم، وهكذا في سلسلة متصلة يشد بعضها بعضًا من أعلاها إلى أدنها جيلًا عن جيل، وهذا يعني أن حامل السند وراءه تاريخ طويل مشرف من النحت في صخور العلم والعبادة.

أهمية السند ومكانته:

الأصل عند الصوفية في تحقيق سلسلة السند وأخذ العهد على المريد هو التلقينُ والتلقي على يد الشيخ، وأخذ العهد عليه، وإن البيعة للمربي المرشد سنة حسنة، ودليلها في الشرع:

١- تمت البيعة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم في أمور شتى، وتخصيصها في أحد أفرادها لا يضر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح ١٠] .

٢- وَعَنْ يَعْلَى بْنِ شَدَّادٍ قَالَ: حَدَّثَنِى أَبِى شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ - وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ حَاضِرٌ يُصَدِّقُهُ - قَالَ: "كُنَّا عِنْدَ النَّبِى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "هَلْ فِيكُمْ غَرِيبٌ؟" قُلْنَا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ. فَأَمَرَ بِغَلْقِ الْبَابِ وَقَالَ: "ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ وَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ". فَرَفَعْنَا أَيْدِينَا سَاعَةً، ثُمَّ وَضَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ..."(١). فأفاد هذا الحديث ضمن ما فيه من فوائد التلقينَ بالذكر، والاجتماعَ عليه.

ولهذا قال الإمام الجنيد رضى الله عنه (ت ٢٩٧ هـ): "سبق في علم الله القديم ألا يدخل أحد حضرته إلا على يد عبد من عباده"(٢).

٣- عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (ح ١٧١٢١)، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٨١): "وفيه راشد بن داود، وقد وثقه غير واحد، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات".

(٢) أحمد بن الصديق الغمارى، "البرهان الجلى"، (ص ٣).

أَبِيهِ، أَوِ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ، ؛ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ".(١)

ووجه القياس: أن من لم يعرف آباءه وأجداده في الطريق فهو أعمى، وربما انتسب إلى غير أبيه، والروح ألصق بك من حقيقتك، فأبو الروح يليك، وأبو الجسم بعده، فكان بذلك أحق بأن تنتسب إليه، وقد اندرج السلف الصالح على تعليم المريدين آداب آبائهم.(٢)

وطريق السادة الشاذلية مبنية على الصحبة والاقتداء، لا على الخرقة والتلقين فقط، ومن ثم لا تقتصر أهمية السلسلة على دلالتها التاريخية على النشأة والتطور التاريخي من خلال تتبع رجال السلسلة ودورهم في تاريخ الطريقة.

ولكن تشير السلسلة أيضا إلى منابع أصول الطريقة، وواضعي منهجها، ومقرري نظرياتها الصوفية.

ولا شك أنه منذ أسس علماء الإسلام المنهج النقلي؛ ضبطوه ضبطا غاية في الإتقان من أجل الاطمئنان إلى صحة النص الشرعي المنقول، سواء في القرآن الكريم، والذى نُقل إلينا من خلال أسانيد القراءات، أو في السنة النبوية الشريفة والتي نقلت إلينا من خلال أسانيد الأحاديث، أو في الفقه والذى ينقل إلينا عبر أسانيد المذاهب، وهكذا في سائر العلوم.

وهنا تأتى الدلالة المهمة في مسألة سلاسل الطرق، والتي حرصت عليها عامة الطرق الصوفية، وهى أنهم يريدون أن يعطونا إشارة إلى أن الطريق نَقْلٌ واتِّبَاعٌ واقْتِدَاءٌ، وليس هو بأمر عقلي، ولا مُخْتَرَع.

وربما نجد أيضا جذور هذا التقليد مبكرا قبل نشأة الطرق الصوفية بمعناها الحرفي؛ في

(١) أخرجه مسلم (ح ١٣٧٠) عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه. وفى البخارى نحوه فى مواضع أقربها لفظا (ح٧٣٠٠).

(٢) الشعرانى، "مدارج السالكين إلى رسوم طريق العارفين" مخطوطة، (ق٢و).

ذكر شيوخ الطريق الصوفي الذين عليهم المعول عند الكلاباذي (ت٣٨٠هـ)، والذى قدم سردًا، بدون تراجم، لأسماء رجال الصُّوفِيَّة مِمَّن نطق بعلومهم وَعبر عَن مواجيدهم وَنشر مقاماتهم وَوصف أَحْوَالهم قولا وفعلا بعد الصَّحَابَة رضوَان الله عَلَيْهِم، ثم ذكر أسماء مَن نشر عُلُوم الْإِشَارَة كتبا ورسائل، وختم ذكرهم بقوله: "وَهَؤُلَاء هم الْأَعْلَام المذكورون المشهورون الْمَشْهُود لَهُم بِالْفَضْلِ الَّذين جمعُوا عُلُوم الْمَوَارِيث إِلَى عُلُوم الِاكْتِسَاب، سمعُوا الحَدِيث وجمعوا الفِقْهَ وَالْكَلَامَ واللغة وَعلمَ الْقُرْآن. تشهد بذلك كتبهم ومصنفاتهم، وَلم نَذْكُرْ الْمُتَأَخِّرين وَأهل الْعَصْر وَإِن لم يَكُونُوا بِدُونِ مَنْ ذَكَرْنَا علمًا؛ لِأَن الشُّهُود يُغنى عَن الْخَبَر عَنْهُم"(١).

ونرى التقليدَ نفسه عند الإمام القشيري(٢) (ت٤٦٥هـ) في رسالته، إلا أنه لم يكتف بسرد الأسماء، بل وضع تراجم مختصرة لمن ذكرهم، حيث عقد الباب الثالث في ذكر مشايخ هذه الطريقة وَمَا يدل من سيرهم وأقوالهم عَلَى تعظيم الشريعة(٣)، ثم ترجم لأكثر من ثمانين شيخا من شيوخ التصوف، من شتى المشارب الصوفية، ولا يمثلون مدرسة ما أو مذهبا صوفيا بعينه، يقول: "كَانَ الغرض من ذكرهم في هَذَا الموضع التنبيه عَلَى أنهم مجمعون عَلَى تعظيم الشريعة، متصفون بسلوك طرق الرياضة، مقيمون عَلَى متابعة السنة، غَيْر مخلين بشيء من آداب الديانة.

ولو تتبعنا ما ورد عَنْهُم من ألفاظهم وحكاياتهم ووصف سيرهم، مِمَّا يدل عَلَى أحوالهم

---

(١) الكلاباذي، "التعرف لمذهب أهل التصوف"، (ص ٢٧ – ٣٣).

(٢) انظر د. إبراهيم بسيوني، الإمام القشيري: سيرته، آثاره، مذهبه فى التصوف.

(٣) الرسالة القشيرية ١/ ٣٤ – ١٤٩. الشيخ زكريا الأنصاري، "إحكام الدلالة" (١/ ٧٤ – ٢٤٣).

لطال بِهِ الكتاب".[1]

وقضية "شيوخ الطريق" ستأخذ نحوا أكثر تحديدا كلما مضت الطرق الصوفية في التبلور والتميز بخصائص سلوكية وتجليات ربانية تجعل من كل طريق مدرسة بذاتها، ومن ثم لها سلسلتها الخاصة بها.

والانتساب إلى السادة الشاذلية وغيرهم من الصوفية إنما يحصل بالتلقين عن شيخ، تلقن عن شيخه بالإذن والسند الصحيح، وهكذا إلى إمام الطريقة ومنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبِسِرِّ هذا التلقين يحصل ارتباط القلوب بعضها ببعض إلى باب الله الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم[2]، وتسري البركة الموروثة جيلا بعد جيل، وطبقة بعد طبقة.

ويؤكد أحد علماء الشاذلية المتأخرين على أهمية السلسلة عندهم بقوله: "وجب علينا أن نذكر سندنا ونبين نسبتنا في هذه الطريق الدرقاوية التي هى لب الطرق الاتصالية الجامعة بين الجيلانية والشاذلية المؤسسة على الكتاب والسنة ... وإن في اتصال سببنا بسببهم ونسبتنا بنسبتهم استمطارا للرحمات الإلهية وتحريكا للسلسلة النبوية؛ مع أن الإسناد من الدين في كل وقت..."[3].

ومن الملاحظات المهمة عند الكلام على سلاسل الطريقة الشاذلية هو خفاء تراجم بعض رجالها على الباحثين، وهو لا يوجب شيئًا في هذا السند، ولا يكسبه ضعفا ولا علة؛ لما

(١) الرسالة القشيري (١/ ١٢٧). وللمزيد عن السلسلة عند الصوفية، راجع: الشعراني، مدارج السالكين إلى رسوم طريق العارفين، (ق٢و – ق٥و). أ/د حسن الشافعى، " فصول فى التصوف " (ص ٦٥، ١٧٦ – ١٨٠).

(٢) العيسوي، "نعيم الجنان "، (ص١٠٢). ولكيفية أخذ العهد عند الشاذلية، انظر (ص١٠٧ – ١٠٨).

(٣) أحمد بن الصديق الغماري، "البرهان الجلي "، (ص ٣-٤).

عُلِمَ من أن علماء الظاهر لا يعتنون بمعرفة رجال هذه الطريق، ولا بالتعريف بهم؛ لعدم ترتب حكم شرعي على ذلك، كما يترتب عليه في نقل الحديث، وإنما اقتصرت العناية بترجمتهم على أهل التصوف والمنتسبين إليه.

ثم العلم بهؤلاء السادات الماضين من حيث الظاهر إنما هو بالشهرة والسماع، وقد يكون الإنسان في قُطْرٍ شهيرًا، وأهل قطر آخر لا يعرفونه، وهو لم يطأ تلك الأقطار كلها حتى يستقرئ المجهول من المعلوم، وحيث لم يعرفهم ولا عرف شهرتهم فليستند إلى من عرفهم، حتى لا يحكم على معلوم بجهالة ولا على مستور بخمالة.(١)

والحاكم بعدم الوقوف على ترجمة أحد الأعلام إنما نسب الجهل إلى نفسه بهم، وعدم وقوفه على تراجمهم، وذلك لا يستلزم أن يكونوا في نفس الأمر مجهولين.(٢)

وظاهرة خفاء تراجم أغلب رجال السلسلة الشاذلية - فيما قبل ابن مشيش، وهى السلسلة الأكثر تداولا بينهم - يشير إليها الشيخ أبو العباس المرسى بقوله: "طريقتنا هذه لا تنسب للمشارقة ولا للمغاربة، بل واحد عن واحد إلى الحسن بن على بن أبى طالب وهو أول الأقطاب، وإنما يلزم تعيين المشايخ الذين يستند إليهم طريق الانتساب من كانت طريقته بلبس الخرقة فإنها رواية، والرواية تتعين بتعيين رجال سندها، وهذه هداية"(٣).

وطبيعة السلسلة عند السادة الشاذلية مبنية على الصحبة والاقتداء، ومن ثم فالشاذلية لا يثبتون السلسلة بالأخذ بالروحانية التي عند بعض الطرق الأخرى كالنقشبندية، بل واشتراط الشاذلية الصحبة والاقتداء يجعل مجرد اللقى أو الإدراك الزماني غير كاف بين

(١) نقله أحمد بن الصديق عن القادري في " المقصد الأحمد ". "البرهان الجلي"، (ص ٧- ٨).

(٢) البرهان الجلي"، (ص ٩).

(٣) ابن عطاء الله السكندري، "لطائف المنن"، (ص ٩٣). "البرهان الجلي"، (ص ١٦).

رجال السلسلة، ومع خفاء تراجم بعضهم وقع الكثير من الصعوبات في تعيين بعض رجالها، ويثير هذا قضية السند الجُمْلِي.

السَّنَدُ الجُمْلِيُّ:

اهتم المسلمون بنقل مصادر الإسلام من الكتاب والسنة والسيرة المشرفة واللغة العربية التي وردت بها النصوص المقدسة، فاهتموا بالإسناد الذي تولد منه الاهتمام بعلوم استقلت وتخصصت تخصصًا دقيقا وعميقا لخدمة المنقول، وفرقوا بين هذا المنقول وبين المعقول الذي يفسره، حتى أصبح هناك فارق بين النص وتفسيره؛ مما أعطى الإسلام مرونة عالية جعلته صالحًا لكل زمان ومكان ولكل شخص وحال، وأصبح إدراك الواقع جزءا لا يتجزأ من الاجتهاد، وإيقاع الحكم على الواقع المعيش، وأصبح جزءا لا يتجزأ من الفتوى التي اختلفت باختلاف الواقع: الزمان، والمكان، والأشخاص، والأحوال، والعمل بالمقاصد الشرعية التي هى حفظ النفس والعقل والدين وكرامة الإنسان والمال، وتحصيل المصالح المرعية للخلق، ومراعاة المآلات المعتبرة، وعدم الخروج على هوية الإسلام - والتي يمثلها الإجماع - والتي تُدرك حقيقتها باللغة، إلا أنهم جعلوا السند على نوعين: سند تفصيلي، وسند جُمْلي.

اهتم المحدثون بالسند التفصيلي حتى يثبتوا الأحاديث، ويبينوا درجتها من صحة وحسن وضعف، ومن ثم قبولها أو ردها، ينظرون في حلقات هذا السند وحال رجاله والعلاقة بين كل طبقة وما فوقها، وهذا هو السند التفصيلي الذي انتهى مع عصر البيهقي في منتصف القرن الخامس الهجري، حيث تم إيداع كل الروايات في دفاتر المصنفين، ولم يعد هناك حديث له أصل يقع خارج هذه المصنفات المسنده، وأصبح قبول الحديث أو رده مبنيا على أمرين:

الأول: هذا النظر التفصيلي في السند المسجل في تلك المصنفات .

الثاني: بحثه من جهة الدراية؛ ليتم الحكم عليه دراية ورواية بالقبول أو الرد .

وهذا السند التفصيلي تم بصورته الكاملة التامة في طريقة نقل الحديث النبوي الشريف من خلال علم الرجال والمصطلح والجرح والتعديل وغيره من علوم السنة المشرفة التي زادت على عشرين علما.

لكن رأى المسلمون أن هذا النقل ينبغي أن يتم أيضا عن طريق السند الجملي الذي لا يُنظر فيه إلى كل حلقة على حده، بل إلى الشيوع والشهرة والانتشار، وأن هذا النقل ليس متعلقا فقط باللفظ بل أيضا بطريقة الأداء، كما في علوم نقل القرآن الكريم والقراءات العشر المتواترة، ورسم المصحف، وغيرها من العلوم التي تعلقت بكتاب الله.

وهذا السند الجملي رأيناه أيضا في علم التاريخ، وفي علم الآثار حيث نُقِلَتْ إلينا النُمِّيَّات من دراهم ودنانير، والمقاييس، والموازين، والمكاييل، والأطوال، وكذلك رأيناه في علم التصوف حيث نقلت هيئة أهل الله نقلا إجماليا كنقل القرآن واللغة والتاريخ والآثار، واكتفي فيها بالسند الجُمْلي الذي لا ينظر فيه إلى أفراد السلسلة ولا إلى حلقاتها كنظر المحدث إلى سند الحديث، بل النظر في علم التصوف كالنظر في علم اللغة إلى السند الجملي الذي تميزت به الأمة عمن سواها، والذي ينقل فيه الكافة عن الكافة نقلا متتاليا موثوقا به.

ومحاولة بعضهم الخلط بين السند التفصيلي والسند الجملي ابتغاء إضاعة علوم الأمة؛ هو نوع من التلاعب الذي يدركه الراسخون في العلم، ويستمع إليه الذين في قلوبهم زيغ من أصحاب الفتنة، وممن أرادوا عبر العصور أن ينحرفوا بأهوائهم بأمة الإسلام عن طريق الله وعن الصراط المستقيم، وأن يفهموا الدين بطريقة سطحية (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [النور: ٦٣] .

ولنذكر سلسلة الطريق علما بأن للسادة الشاذلية سلاسل أخرى مذكورة في المطولات،

منها ما هو سلسلة خرقة أو تلقين، ومنها ما هو من غير طريق ابن مشيش.

والشيوخ على ثلاثة أنواع:

١- شيخ التلقين.

٢- شيخ الخرقة.

٣- شيخ الصحبة والاقتداء. وهذا الأخير هو الذى عليه الاعتماد ولا سيما عند الشاذلية؛ فإنهم لا يعتمدون الخرقة إلا تبركا، وطريقهم طريق صحبة واقتداء وإرادة وتحكيم، وعلى هذا مضى شيوخ الطريقة العلية الصديقية الشاذلية، فإنهم إنما يعرفون الصحبة والاقتداء والسلوك والاجتماع، الذى يصح به الانتساب ويحصل به النفع من الأعلى إلى الأدنى.(١)

---

(١) "البرهان الجلي"، (ص ١٥- ١٦) بتصرف.

سلسلة الطريقة الصديقية الشاذلية

(سلسلة الصحبة والاقتداء)

١. سيدي أبو الحسن نور الدين علي بن جمعة بن محمد بن عبد الوهاب الشافعي المصري حفظه الله تعالى.

٢. عن سيدي الإمام السيد عبد الله بن محمد بن الصِّدِّيق الغُمَارِيِّ (١٣٢٨هـ- ١٤١٣هـ).

٣. عن والده سيدي الإمام أبى عبد الله محمد بن الصِّدِّيق بن أحمد بن عبد المؤمن الغُمَارِيّ الشريف الحسنى (١٢٩٥هـ- ١٣٥٤ هـ).

٤. عن سيدي الإمام محمد بن إبراهيم الفَاسِيِّ (....- ١٣٢٦هـ).

٥. عن سيدي الإمام عبد الواحد بَنَانِيّ (....- ١٢٨٥هـ).

٦. عن سيدي الإمام محمد بن الغالي أيوب (....-١٢٧٣هـ).

٧. عن سيدي الإمام أحمد بن عبد المؤمن جد الشيخ محمد بن الصديق (١٢٠٠هـ- ١٢٦٢هـ).

٨. عن سيدي الإمام العربي بن أحمد الدَّرْقَاوِيّ (١١٥٢هـ - ١٢٣٩هـ).

٩. عن سيدي الإمام على الجمل العُمْرَانِيّ (....- ١١٩٤هـ).

١٠. عن سيدي الإمام العربي بن أحمد بن عبد الله (١٠٧٩هـ-١١٦٦هـ).

١١. عن سيدي الشيخ الإمام أحمد بن عبد الله (١٠٤٢هـ - ١١٢٠هـ).

١٢. عن سيدي الإمام قاسم الخَصَاصِيّ (١٠٠٢هـ- ١٠٨٣هـ).

١٣. عن سيدي الإمام محمد بن عبد الله الفَاسِيّ مَعْن (٩٧٨هـ- ١٠٦٢هـ).

١٤. عن سيدي الإمام عبد الرحمن بن محمد الفاسي (٩٧٢هـ- ١٠٣٦هـ).

١٥. عن أخيه سيدي الإمام يوسف بن محمد الفاسي (٩٣٨هـ -١٠١٣).

١٦. عن سيدي الإمام عبد الرحمن المَجْذُوب (٩٠٩هـ- ٩٧٦هـ).

١٧. عن سيدي الإمام على الدَّوَّار (....- ٩٤٧هـ).

١٨. عن سيدي الإمام إبراهيم أفحام الزَّرْهُونِيّ (....-٩٢٦هـ).

١٩. عن سيدي الإمام زروق البُرْنُسِي (٨٤٦هـ - ٨٩٩ هـ).

٢٠. عن سيدي العارف الكبير أبى العباس أحمد بن عُقْبَةَ الحَضْرَمِيّ (....-٨٩٥ هـ).

٢١. عن سيدي أبى زكريا يحيى بن أحمد (٧٩٨هـ - ٨٥٧هـ).

٢٢. عن سيدي الإمام علي وَفَا (٧٦١هـ - ٨٠٧ هـ).

٢٣. عن والده سيدي الإمام محمد وَفَا (٧٠٢هـ- ٧٦٥ هـ).

٢٤. عن سيدي الإمام أبى سليمان داود بن عمر البَاخِلِيّ (....- ٧٣٣ هـ).

٢٥. عن سيدي تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري (....- ٧٠٩ هـ).

٢٦. عن سيدي الإمام أبى العباس المُرْسِيّ (...- ٦٨٦هـ).

٢٧. عن سيدي الإمام أَبِى الحَسَنِ الشَّاذُلِيّ (٥٧١هـ- ٦٥٦م)

٢٨. عن سيدي الإمام أبى محمد عبد السلام ابن مَشِيش (....- ٦٢٢هـ).

٢٩. عن سيدي الإمام عبد الرحمن بن الحسين المدني العَطَّار الزَّيَّات.

٣٠. عن سيدي تُقَيِّ الدِّينِ الفُقَيْر: عبد الرحمن النهروندي (ت ٥٩٤هـ).

٣١. عن سيدي الشيخ الإمام فخر الدين محمد.

٣٢. عن سيدي الإمام نور الدين أبي الحسن علي.

٣٣. عن سيدي الإمام تاج الدين محمد .

٣٤. عن سيدي الإمام شمس الدين محمد، المتوفى بأرض الترك.

٣٥. عن سيدي الإمام زين الدين محمود القَزْوِينِيّ.

٣٦. عن سيدي الإمام أبى إسحاق إبراهيم البصري.

٣٧. عن سيدي الإمام أبى القاسم أحمد المَرْوَانِيّ .

٣٨. عن سيدي الإمام أبى محمد سعيد.

٣٩. عن سيدي سعد.

٤٠. عن سيدي الإمام أبى محمد فتح السُّعُود.

٤١. عن سيدي الإمام سعيد الغَزْوَانِيّ.

٤٢. عن الصحابي سيدنا أبى محمد جابر بن عبد الله الأنصاري رضى الله عنه.

٤٣. عن سيدنا الإمام الحسن بن علي بن أبى طالب رضى الله عنهما.

٤٤. عن والده سيدنا الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

٤٥. عن سيدنا وسيد الخلق أجمعين نبي الله وخليله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلى الله عليه وآله وسلم[١].

ومن اللطيف ذكره أن طريقتنا "علية" وهو وصف من العلو، وسميت "الصديقية" نظرًا إلى الأسانيد؛ حيث تلقيتها عن سيدنا الشيخ عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري، وكذلك نجد في سندها الإمام الدرقاوي فتسمى الطريقة بالصديقية الدرقاوية، ويسير السند بنا حتى نصل إلى الإمام أبى الحسن الشاذلي، إلى منتهاه إلى سيد الخلق أجمعين.

وهنا لطيفة لا بد لأبناء طريقتنا أن يعلموها، وهي أن طريقتنا العلية، سندها عليٌّ،

---

(١) السلسلة العلية الصديقية الشاذلية المذكورة بناء على ما حرره الحافظ أحمد بن الصديق الغماري في "البرهان الجلي" (ص ١٠ – ٣٥)، ومنهج التحقيق في الكلام على سلسلة الطريق للحافظ أحمد بن الصديق أيضا.

فشيخها اسمه عليّ، إلى سيدي أبي الحسن الشاذلي، وكان اسمه عليّ، إلى سيدنا عليٍّ بن أبي طالب، إلى صاحب القدر العليِّ من قال فيه ربه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ إلى رب العزة العليّ الأعلى.

ج-الإشراقات والواردات :

يتردد عند الصوفية دائما لفظ الإشراقات، والواردات، والكرامات مما يتعلق بالكشف عن أمور غيبية، فما هي حقيقة هذه الأمور، وما الدلالة على صحتها، ومتي تحدث للسالك، وما الذي يجب عليه حينما تظهر له تلك الاشراقات؟

الكشف عن بعض الأمور الغيبية لبعض الأشخاص مما هو جائز في الشرع ومشهور؛ ويكون ذلك بعدة أمور يسميها الصوفية الإشراقات ومنها: الواردات، والرؤيا الصالحة، والإلهام، وغير ذلك.

فالغيب قسمان، قسم لا يعلمه إلا الله تعالى، يقول تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقسم قد يطلع الله تعالى عليه بعض عباده بشارة أو نذارة أو تثبيتًا، وعلى ذلك نصت السنة النبوية الشريفة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يقول: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات». قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»[١]، فالرؤيا الصالحة من الوحي، وهي مما يطلع به المؤمن على بعض الأمور الغيبية.

الإشراقات هي: بداية ظهور الأنوار الإلهية في قلب المريد، وهي من نعم الله تعالى عليه، وتتمثل في الرؤى، والواردات، والخواطر، والإلهام ومثل ذلك مما يدل على أن المريد

١- أخرجه البخاري في" صحيحه"

ينكشف له بعض من الأمور المستترة عن أعين الناس بعد ما بذله من مجاهدة وعبادة.

فالسائر إلى الله تعالى يمر في سيره بعدة مراحل، تبدأ بالتخلية ثم التحلية، ثم الرياضة والتربية بمجاهدة نفسه ومحاربة الشهوات، حتى إذا ما تجاوز ذلك صفت روحه، وكان الفتح والمشاهدة والكشف بشروق أنوار الله تعالى في قلبه.

والإشراقات من نعم الله تعالى على المريد التي لا ينبغي له أن يتوقف عندها ولا يلتفت لها، فإن ملتفت لا يصل، فنحن لا نسعى لحدوث الإشراقات ولا ننتظرها، نحن نسعى للوصول لله تعالى ورضاه ومحبته، فإذا ما صاحب ذلك أن فتح الله بكشف أو غيره نحمده تعالى على ذلك ولا نقف عنده ولا نلتفت.

ومن قبيل الإشراقات الواردات ما يرد على القلب عند ذكر كل اسمٍ من أسماء الله، ويستغرق القلب بعد أن يبدو على القلب حال من الحق.

وقد يكون الوارد مما يُسر به الإنسان، كما قد يكون مما ينقبض به أو يحزن.

يقول القشيري: "والوارد: ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة، مما لا يكون بتعمد العبد، وكذلك ما لا يكون من قبيل الخواطر، فهو أيضًا: وارد.

فالواردات أعم من الخواطر؛ لأن الخواطر تختص بنوع الخطاب، أو ما يتضمن معناه.

والواردات قد تكون: وارد سرور، ووارد حزن، ووارد قبض؛ ووارد بسط، إلى غير ذلك من المعاني"[1]

وقد قال ذو النون المصري رحمه الله في السماع: "إنه وارد حق جاء يزعج القلوب إلى الحق فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق". [2]

١ - الرسالة القشيرية ١/ ٢٠٠. طبعة دار المعارف، بتحقيق: الإمام عبد الحليم محمود.

٢ - إحياء علوم الدين (٢/ ٢٩٢).

فإذا أنار القلب بمعرفة الله تعالى كان محلًا لتلقي الواردات والتجليات الإلهية، ليزداد بها تثبيتًا واقبالًا على الله تعالى يقول ابن عجيبة في شرحه للحكم: "إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردًا، قلت: الوارد نور إلهي يقذفه الله في قلب من أحب من عباده".

وتختلف الواردات على قلب المريد باختلاف حاله ما بين مبتدأ ومتوسط ومنتهي، كل بما يتناسب مع حالته ودرجته ما بين طالب، وسائر، وواصل، وعلى ذلك فالواردات ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وارد الانتباه.

وهو نور يخرجك من ظلمة الغفلة، إلى نور اليقظة وهو لأهل البداية من الطالبين فإذا تيقظ من نومه وانتبه من غفلته استوى على قدمه طالبًا لربه، فيقبل عليه بقلبه وقالبه وينجمع عليه بكليته.

القسم الثاني: وارد الأقبال.

وهو نور يقذفه الله في قلب عبده فيحركه لذكر مولاه ويغيبه عما سواه فلا يزال مشتغلًا بذكره غائبًا عن غيره حتى يمتلأ القلب بالنور ويغيب عما سوى المذكور فلا يرى إلا النور فيخرج من سجن الأغيار ويتحرر من رق الآثار.

القسم الثالث: وارد الوصال .

وهو نور يستولي على قلب العبد، ثم يستولي على ظاهره وباطنه فيخرجه من سجن نفسه ويغيبه عن شهود حسه[1].

والسالك إلى الله لا ينشغل بالواردات ولا يطلبها فهي ليست مقصوده؛ لأن مقصوده

١ - إيقاظ الهمم شرح متن الحكم (ص: ٦٥، بترقيم الشاملة آليا)

الله فلا ينشغل عن مقصوده بما يقابله في الطريق من عوارض تعرض له، فيقول ابن عطاء السكندري في حكمه: "لا تطلبن بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها وأودعت أسرارها، فلك في الله تعالى غنى عن كل شيء، وليس يغنيك عنه شيء".

فإن كان ما ورد في المنام أو في الإلهام أو في الخواطر أو غيرها من الإشراقات موافقًا للشرع الشريف؛ جاز العمل به في المباحات، ومن ذلك تلقي الذكر والأدعية والأحزاب في الرؤى، فقد روي عن سيدنا أبي الحسن الشاذلي أنه تلقى حزب البحر من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الرؤيا، فقال رضي الله عنه: "لُقِّنْتُه من رسول الله حرفًا حرفا".

فالواردات ليست حجة في ذاتها إنما هي بشريات، والرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو تُرى له، كما ورد في الحديث الشريف(١)، حيث ورد أيضا أن النبوة انقطعت وبقيت المبشرات فهي من المبشرات(٢)، فإذا كانت هذه المبشرات لا تحرم حلالا ولا تحل حراما كانت في نطاق المباح، والمباح يجوز أن نفعله بلا رؤية ويجوز أن نفعله بلا خواطر، فإذا جاءت الرؤيا كأنها تعلمني شيئًا وهذا الشيء لا يخالف الشرع صح العمل به.

أما إذا كانت مما يخالف الشرع فهي من قبيل الوارد الشيطاني إذ الشيطان يحاول أن يقطع على المؤمن سلوكه ويصرفه عن مسيره، فيشغله بواردات ورؤى ومثل ذلك.

خامسًا: الْخَلْوَة.

الخلوة عند الصوفية: هي نوع من الرياضة والتربية وتكون بالانقطاع عن البشر، والتخلي عن زينة الدنيا ومفاتنها، لمراجعة النفس والوقوف على أخطائها، والتفكر في خلق الله تعالى، وتمجيده وذكره، والتلذذ بالزيادة من العبادات والمناجاة، وذلك لفترة محددة،

---

(١) من حديث مسلم: "الرُّؤْيا الصَّالِحَةُ يَرَاها الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ".

(٢) من حديث البخاري: "لَمْ يَبْقَ مِنْ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ قَالُوا وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ قَالَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ".

يتفرغ فيها القلب من كل ما سوى الله تعالى فتسمو الروح وتصفو، ويستنير الباطن، وتتخلص النفس من الآفات والمعاصي.

دليل مشروعيتها:

الخلوة من العبادات التي خص الله تعالى بها من اصطفى من عبادة، من الأنبياء والأولياء والصالحين، فسيدنا إبراهيم عليه السلام اعتزل قومه متوجها لدعاء ربه ومناجاته، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

وسيدنا موسى عليه السلام واعد ربه ثلاثين ليله يناجيه في جبل الطور فيفتح الله عليه فيها الفتوحات والتجليات ويلقي إليه الألواح، قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ويُعْلِي الله تعالى ذكر السيدة مريم العذراء عليها السلام بذكرها من الكتاب، بأنها من العابدات لله تعالى المعتكفات في المحراب، حتى أفاض الله تعالى عليها من الرزق والتجليات مما كان مثارا لعجب سيدنا زكريا، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ~ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٦، ١٧].

وقد كان نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ممن حبب له الخلاء قبل مبدأ الوحي، فكان يخلو بغار حراء الليال ذوات العدد يتعبد ويتفكر في خلق السماوات والأرض.

فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "أول ما بدئ به رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك". متفق عليه.

ثم جاء الشرع الشريف بسنية الاعتكاف وهو لزوم المسجد وقطع العلائق عن الخلائق للاتصال بخدمة الخالق فترة محددة، اختلف الفقهاء في أكثرها وأقلها، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان». متفق عليه.

فالخلوة عبادة السر وهي في شرع من قبلنا مشروعة، وفي شرعنا مشروعة مندوب إليها محببة إلى الله تعالى ورسوله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: -وذكر منهم-ورجل ذكر الله خاليا، ففاضت عيناه". متفق عليه

ولذا فقد اتخذ الصوفية الخلوة من المجاهدات والرياضات التي يصلون بها إلى الترقي في الدرجات، فيحدث لهم بها كثير من الفتح والكشف، بشرط ألا يدخل المريد الخلوة إلا بإذن من شيخه وتحت إرشاده، حتى يعلمه إذا جهل، ويذكره إذا غفل، وينشطه إذا فتر، ويساعده على دفع وساوس الشيطان وهواجس النفس.

متى يأذن الشيخ بالخلوة؟

عندما يستشعر الشيخ من مريده القدرة والقوة على فعل هذا، لأن هناك عوارض في الخلوة تواجهه، كأن يصيبه عرقًا شديدًا، أو دوخة أو إغماء أو ارتفاع الحرارة، وكل ذلك له ترتيب وتصرفات، تحتاج إلى التعامل الخاص معها ليتجاوزها المريد، ولذلك لابد من إذن الشيخ حتى يُعْلِمه بكل هذه العوارض، وحتى يكون هناك صلة بين الشيخ وبين المريد، كي

تكون الخلوة منتجة لأسرارها وأنوارها[1].

آداب الخلوة:

١- إخلاص النية لله، تعبدًا لله تعالى وإصلاحًا لنفسه من الآفات.

٢-الاكتفاء بالقليل من الطعام والشراب والمنام.

٣-الاكثار من العبادات.

٤- الانصراف بكليته عن شواغل الدنيا .

٥- أن يلبس البياض .

٦- أن يستقبل القبلة .

٧- الاكثار من الأذكار والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتلاوة القرآن الكريم، والباقيات الصالحات إلى غير ذلك من الأحزاب والأوراد التي يأذن له بها الشيخ المربي.

٨- ألا يسند المختلي ظهره إلى حائط، والحكمة من ذلك أن يشعر المريد فيها بنوع من أنواع الاهتمام، وشد الجسد والنفس.

وقديما كانت المساجد مليئة بالْخَلْوَات، وفي حالة الخلوة الأربعينية (أربعين يوما)، كان المختلي يصلي الجمعة والجماعات، دون أن يلتقي بأحد؛ لأن خلوته مغلقة عليه، وهناك أيضًا من يفعل هذا في بيته؛ لأنه من الممكن أن تكون الخلوة في مكان منعزل، ودليله التحنث في غار حراء، وحاصل الأمر أن ينعدم اتصاله بالخلق حتى عمن يقوم بخدمته ممن يقدم له

الطعام والشراب والحوائج البشرية التي لابد فيها من الحياة، فيتركها له على رأس الخلوة (باب الخلوة)، ولا يخاطبه أو يطلب شيئا.

ويرد على من يدعى بأن الخلوة تصيب المسلم بالاكتئاب والشعور بالوحدة، بأن الخلوة هي إحدى وسائل المحافظة على الصحة النفسية والبدنية، ويؤكد أطباء الصحة الجسمية والنفسية ضرورة تعيين أوقات ينعزل بها الإنسان عن كل شيء للراحة والتخلص من هموم الحياة وشواغلها.

سادسًا: طلب المدد من المشايخ والصالحين.

يعترض على الصوفية قولهم لمشايخهم الأحياء والأموات: مدد يا سيدي، ومدد يا شيخنا، بأن ذلك طلب الاستعانة بغير الله تعالى، وإن المدد إنما يكون من الله تعالى وحده، لا من المخلوقين، فما هو المراد من طلب المدد هنا، وهل لذلك أصل من الشرع الشريف؟

المدد في اللغة هو: الزيادة والكثرة، يقول تعالى: (والْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ)؛ أَي يزيد فيه ماء من خلفه تجره إليه وتكثره.

ومادة الشيء: ما يمده، ومدَّ الشيء أي زاده وأكثره، ومنه أَمَدَّ الجيشَ بمددٍ؛ إذا أرسل إليه زيادة، ويُجمَع على أمداد، وقال ابن الأثير: هم الأعوان والأنصار الذين كانوا يمدون المسلمين في الجهاد، والإمداد أن يرسل الرجل للرجل مددًا.[1]

أما المدد في الاصطلاح الصوفي فهو: طلب الدعاء من الشيخ، أو طلب الإعانة والمساعدة، إذ يتيقن المريد في صلاح شيخه وولايته، وأن الله تعالى يستجيب دعاء الصالحين والأولياء وينفع بهم الناس، كما يتيقن أن الصالحين من عباد الله تعالى وسيلته إلى الله تعالى،

---

١ – ابن منظور "لسان العرب" (٣/٣٩٨، ط. دار صادر)، الحافظ العيني في "عمدة القاري" (١٤/٣٠٩، ط. دار إحياء التراث العربي)

وأن بهم صلاحه وصلاح حاله، فيطلب المدد منهم على سبيل السببية لا الفاعلية، إذ كيف يظن فيهم فاعليه الخلق والايجاد، كما يردد أصحاب الفهم المشوه، والصوفي هو الذي تربي على الإخلاص لله تعالى في الفعل والقول، وعلى التجرد عن كل ما سواه حتى يصل إلى الفناء به تعالى.

والأصل في جواز كلمة مدد، أن اللغة العربية لغة واسعة فيها الحقيقة وفيها المجاز، وفيها الإثبات وفيها الحذف، وفيها الكناية، ولها فنون عديدة تكلم بها العرب الفصحاء، ونزل بها القرآن الكريم، وتكلم بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد كان أفصح العرب، وتعلمنا منه صلى الله عليه وآله وسلم أن نتكلم باللغة العربية على جميع وجوهها، حتى خرج علينا هؤلاء الذين جهلوا ذلك وتعاملوا على ظاهر الألفاظ فأخذوا يتشدقون بتبديع المسلمين واتهامهم بالشرك جهلًا منهم و ضلالًا، ولو أنهم علموا أو تعلموا، ثم قرأوا القرآن الكريم لوجدوا أن إسناد الفعل لغير الفاعل مبحث من مباحث اللغة وهو كبير، وكثر ذكره في القرآن الكريم، ومن الأمثلة على ذلك:

إسناد الإماتة إلى ملك الموت والله تعالى هو المميت وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١].

وإسناد الهداية للرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الصالحين، والله تعالى هو الهادي الحقيقي، يقول تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تهدِي مَنْ أحبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

ويقول تعالى: ﴿وإِنَّكَ لَتَهدي إلى صراطٍ مُستَقيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ويقول تعالى:﴿وجَعَلْنا مِنْهُم أَئِمَّةً يَهدُونَ بأمرِنا لمَّا صَبَروا وكانوا بآياتِنا يوقِنونَ﴾[السجدة: ٢٤].

وإسناد العون لغير الله تعالى على سبيل السببية لا الفاعلية، فقد أخرج الإمام مسلم في

صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه".

فإذا قال المريد لشيخه أو لأي من أولياء الله الصالحين كلمة "مدد" قاصدًا بها طلب العون سواء بالدعاء أو بما يعلم من بركة شيخه التي تسري إليه، على تجاوز أمر ما، فلا يكون بذلك مشركًا مع الله تعالى أحدًا، أو مستعينًا بغير الله تعالى؛ لأن المؤمن ينظر بعينيه، فيرى المسبِّب والسبب، ويعلم أن العلماء هم ورثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في هداية الخلق ودلالتهم على الله تعالى، فإذا استرشد بهم، فقد اتخذ سببًا من أسباب الهداية التي أمر الله بها، وجعل لها أئمة يدلون عليها.

كما أن طلب المدد من المخلوق ثابت بصحيح سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفعل الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ رِعْلًا، وَذَكْوَانَ، وَعُصَيَّةَ، وَبَنِي لَحْيَانَ، اسْتَمَدُّوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ عَلَى عَدُوٍّ، فَأَمَدَّهُمْ بِسَبْعِينَ مِنَ الأَنْصَارِ".

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إِذَا أَضَلَّ أَحَدُكُمْ شَيْئًا أَوْ أَرَادَ أَحَدُكُمْ عَوْنًا وَهُوَ بِأَرْضٍ لَيْسَ بِهَا أَنِيسٌ، فَلْيَقُلْ: يَا عِبَادَ اللهِ أَغِيثُونِي، يَا عِبَادَ اللهِ أَغِيثُونِي، فَإِنَّ للهِ عِبَادًا لا نَرَاهُمْ».

وروى الإمام أحمد عن عياض الأشعري قال: «شهدت اليرموك وعليها خمسة أمراء: أبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وخالد بن الوليد، وعياض بن غنم رضي الله عنهم، قال عمر رضوان الله عليه: إذا كان قتالٌ فعليكم أبو عبيدة، فكتبنا إليه: أن قد جاش إلينا الموت، واستمددناه، فكتب إلينا: إنه قد جاءني كتابكم تستمدوني، وإني أدلكم على ما هو أعز نصرا وأحصن جندا؛ الله فاستنصروه؛ فإن محمدا صلى الله عليه

وآله وسلم قد نُصِرَ بأقل مِن عددكم، فإذا أتاكم كتابي، فقاتلوهم ولا تراجعوني، قال: فقاتلناهم فهزمناهم وقتلناهم أربع فراسخ.[1]

ويتفرع عن ذلك بيان جواز طلب المدد من الأموات، إذ قد تبين جوازه في حق الأحياء، فكان في حق الأموات أولى، ذلك لأنه قد ثبت بالأدلة الشرعية أن الموت ليس فناء محضًا، وإنما هو انتقال من حياة إلى حياة، والروح لها تعلق بموضع جسدها، لذا شرع لنا زيارة الموتى والسلام عليهم وقراءة القرآن عن قبورهم للتخفيف عنهم ومؤانستهم.

كما أنه قد ثبت أن للموتى إدراكًا وأنهم يعلمون بزيارة أقاربهم لهم، ويسعدون بذلك وأن سماعهم لا يقل عن سماع الأحياء في شيء، إذ ثبت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، نادى الكفار من قتلى بدر وخاطبهم، فعن أنس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ترك قتلى بدر ثلاثا، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم، فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا»؟ فسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيفوا؟ قال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا».

وإذا كان قد ثبت بذلك إدراك الكفار وسماعهم الخطاب بعد موتهم -مع ما هم فيه من سوء العاقبة- فلأن يسمع موتى الصالحين من المؤمنين -مع ما هم فيه من حسن العاقبة- أَوْلى وأحرى؛ وذلك لأن إدراك الروح خارج الجسد أوسع وأقوى من إدراكها وهي داخل الجسد الذي هو عائقٌ لها.

١- أخرجه الإمام أحمد في "المسند" وابن حبان في "الصحيح".

وإذا ثبت سماع الصالحين من موتى المسلمين جاز لهم الدعاء لمن يطلب منهم الدعاء من الأحياء.

فصل

مزايا الطريقة الشاذلية وفضلها

يسعد كثير من المريدين أن منَّ الله تعالى عليهم بأن انتسبوا للطريقة الشاذلية، بخلاف غيرها من الطرق، رغم أن جميع الطرق موصلة إلى الله تعالى، فما هو الذي يميز الطريقة الشاذلية عن غيرها من الطرق؟

جميع الطرق موصلة إلى الله تعالى، وهي مشارب ومدارس تختلف باختلاف الأنفاس، ويقولون دائما: إن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق. فطريق الله تعالى أشبه بالدائرة، الله – سبحانه وتعالى –في مركزها، والمريد على طرفها، ومحيطها تختلف فيه أنصاف الأقطار، والكل يوصل إلى الله – سبحانه وتعالى– ومعيار صحة السير بهذا الطريق عن غيره، هو الترقي والأدب والديمومة، أن يشعر المريد أنه كل يوم في ترق، وأنه كل يوم يتعلم أدبًا جديدًا مع الله تعالى، وأنه في ديمومة واستمرار على عمله ووِرده، فإذا وجد ذلك من نفسه، فقد وفقه الله تعالى إلى الطريق الذي يتوافق مع مشربه وطبيعته وسلوكه، أما إذا لم يجد ذلك، بأن كان لا يتقدم ولا يتحرك ولا يستطيع الاستمرار على ما ينصحه به شيخه، فالخلل حينئذ ليس في الشيخ ولا في الطريق، بل كل ما في الأمر أن ذلك المريد ليس له رزق عند هذا الشيخ، لاختلاف المشرب بينهما أو لعدم التوأمة بينهما، أو لأن رزقه عند شيخ آخر وذلك ما قسمه الله تعالى له، فعليه حينها أن يبحث عن شيخه وعن طريقه الذي يجد فيه أن نفسه تترقى وتتقدم، وربما يتنقل بين أكثر من شيخ وطريق حتى يجد نفسه.

فإذا رآه الله تعالى مخلصًا، مداومًا، مستمرًا على السعي لمعرفة طريق الله، والسعي فيه، فإن الله يفتح عليه، ويوفقه، ويجذبه إلى شيخه الذي تصلح معه تربيته، فالأمر بيد الله لا بحول منا، ولا بقوة، ولا بذكاء، ولا ببحث، ولا بعلم، إنما هو بتوفيق الله رب العالمين.

ومن هنا نعلم أن التميز في الطرق بالنسبة للمريدين ليس بما اشتهر عنها وشاع، فربما اشتهر شيخ بكرامات وبحسن تربيته وتوصيله، إلا أن رزق هذا المريد ليس عنده، وربما يكون رزقه عند شيخ مغمور، وطريقة ليست مشهورة ومثل هذا، وهذا لا يقلل غيرها من الطرق أو غيره من المشايخ.

ومن هنا نرى أن طريقتنا الشاذلية هي مما ساد من الطرق، ومما اشتهر مشايخها.

وما تتميز به الطريقة الشاذلية:

الطريقة الشاذلية طريقة تربية، وإرشاد روحي، وعلم، ومشايخها يربون تلاميذهم بالهمة والحال، اعتمدوا في علومهم على الذوق على لا النقش، فعلومهم علوم أذواق لا علوم أوراق، وطريقهم روح تنقح لا مسائل تنسخ.

ومما تميز به الشاذلية عن غيرهم التربية عن طريق النظرة، وفي ذلك يقول سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: "والله ما بيني وبين المريد إلا أن أنظر إليه نظرة، وقد أغنيته". وليس لمعترض أن يعترض ويتعجب من هذا، فهم ورثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يربي أصحابه بالنظرة، ولذا فقد ثبتت الصحبة لكل من نظر إليه النبي مسلمًا، لأن تلك النظرة منه صلى الله عليه وآله وسلم كفيلة بإحداث ما يلزم من تربية وتغيير في نفس الناظر إليه، وعلى هذا كان مشايخ الشاذلية ورجالها رضي الله عنهم، ولذا قال الشاذلي أيضًا: "لا خير فيمن لا يربي أولاده بالنظر كالسلحفاة تربي أولادها بالنظر". فقد أودع الله تعالى في السلحفاة هذه الخصيصة وهي أن تضم أولادها بالنظر إليهم، فكيف يستنكر أن يربي الشيخ تلاميذه بالنظر إليهم، وقد ثبت هذا بما لا يدع مجالا لإقامة الأدلة عليه.

وقد توارث التربية بالنظرة تلاميذ الإمام الشاذلي رضي الله عنه، عنه وإلى النبي صلى

الله عليه وآله وسلم، فقد كان المرسي أبو العباس ممن يربون تلاميذهم بالنظرة أيضًا، وفي ذلك يقول عنه شيخه الإمام أبو الحسن: "نعم الرجل الكامل يأتيه البدوي يبول على ساقية فلا يمس عليه الليل إلا وقد أوصله إلى الله تعالى".

فالطريقة الشاذلية سادت أنوارها في مشارق الأرض ومغاربها، وأبهرت العقول بأسرارها، فهم كالنجوم يهتدي بهم السائرون، علومهم ربانية، وأسرارهم جبروتيه، ومعارفهم غيبية، وقد قيل في فضلهم أنهم "أجلسهم الحقُّ على كراسي أطباق أهل معرفته، فقال لهم: إن أتاكم عليلٌ من فقْدي فداووه، أو من فَرَقي فعالجوه، أو ليس منّي فخذوه، أو جبانٌ في متاجرتي فشجعوه، أو داخلٌ نحوي فشجعوه، أو شاردٌ عني فردُّوه، أو متباعدٌ من حضرتي فقرِّبوه وأدنوه، أو غريقٌ في بحار الشهوات فخذوا بيده وأنجدوه، أو منسدلُ الحجاب على قلبه فارفعوه".[1]

وقد كثرت التآليف في جمع مآثر الشاذلية وذكر محاسنهم ومن ذلك: "لطائف المنن" لابن عطاء الله السكندري، و"المفاخر العلية" لابن عباد، و"الأذكار العلية والأسرار الشاذلية" له أيضا، و "درة الأسرار وتحفة الأبرار فيها للأستاذ الولي العارف المحقق الصديق القطب الغوث أبي الحسن علي من الأحوال والمقامات والخوارق والكرامات والدعوات والأذكار" لابن الصباغ، و"الفتوحات الربانية في تفضيل الطريقة الشاذلية" لمحمد بن محمود الفاسي، وغير ذلك من التآليف.

وقد فضلت الطريقة الشاذلية عن غيرها من الطرق بوجوه عديدة ومن ذلك:

١-أن علومهم مؤيدة بالكتاب والسنة.

---

١ - الفتوحات الربانية في تفضيل الطريقة الشاذلية (ص:٨).

٢-أن شيخ التربية لا ينقطع من طريقهم إلى يوم القيامة.

٣-أن القطب لا يكون إلا منهم.

٤-أنهم مختارون من اللوح المحفوظ.

٥-أن مجذوبهم يرجع إلى الصحو.

٦-أنهم مأمونون من السلب.

٧- أن المريد إذا أتاهم يلقنونه الاسم الأعظم؛ لأنه للتعلق وهو اسم الذات ولذلك يقال لهم الذاتيون، وهذا الاسم مخصوص بهم وإذا أطلق عند القوم فالمراد بهم أهل الطريقة الشاذلية.

٨-أن الولي لا تكمل ولايته إلا إذا ختم بالطريق الشاذلية.

٩-أن بواطنهم منطوية على ما كانت منطوية عليه بواطن الصحابة رضي الله عنهم من التوحيد الخالص الذي هو توحيد الأنبياء والرسل عليهم السلام.

١٠-أن المبتدئ إذا دخل طريقهم بصدق طوية، وحسن سريرة يجتمع من أول وهلة بالنبي صلى الله عليه وسلم يقظة، وتدوم معه إلى أن يحصل له الوصول، ويتمكن فيه فحينئذ لا يفارقه النبي صلى الله ليه وسلم أبدا، وفي ذلك يقول الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه: "والله لو غاب عني رسول الله طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين".

وقد قال سيدي أبو الحسن العباس وسيدي أحمد بن عطاء الله وسيدي علي وفا ووالده سيدي محمد بحر الصفا، وسيدي داود الباخلي وسيدي أحمد زروق وغيرهم مثل مقالة الإمام الشاذلي رضي الله عنهم جميعا. وهذا خاص بأهل الطريقة الشاذلية وإن كان غيرهم من أهل الطريق لهم الاجتماع به صلى الله عليه وسلم لكن لم ينخرق الحجاب بينهم وبينه مثل ما انخرق لأهل الطريقة الشاذلية رضي الله عنهم.

١١- شهادة من عاصر الإمام الشاذلي رضي الله عنه من سلاطين العلماء وسادات العصر الأعيان الفضلاء كالأستاذ عز الدين بن عبد السلام، والامام القسطلاني، وابن دقيق العيد، والمنذري، وشمس الدين الاصفهاني، وتقي الدين السبكي، وابن سراقة، وابن عصفور، بولايته وخصوصيته وظهوره بالحق المبين، وكلهم أخذ عنه العهود والأوراد، وكانوا يحضرون معه في مجالس الذكر والسماع، ويتبركون بدروسه التفسيرية والحديثية في المدرسة الكاملية بمحروسة مصر.

١٢-أن أهل الديوان رضي الله عنهم وجعلنا منهم؛ كلهم شاذلية، ولا يدخل أحد من أهل الدائرة والعدد للديوان إلا تشذل، وإن بلغ الولاية في طريقة غيرها فإذا دخل الديوان أخذ الطريقة الشاذلية عن الغوث؛ لأنها أمان للولي من السلب وسوء الخاتمة.

١٣-أن المريد إذا دخل الطريقة الشاذلية صادقًا مخلصًا قاطعًا للعوائق والعلائق حصل له الفتح في أقرب وقت وأسرع مدة.

١٤- أن الطريق الشاذلية طريقة التربية بالهمة والحال والمقال.

١٥-أنهم جامعون بين الشريعة والحقيقة ظواهرهم معمورة بالمتابعة في الماضي والآتي، وبواطنهم مستنيرة بمشاهدة أنوار الذات، وأنهم لا يحجبون بجمع ولا فرق، يعطون كل ذي حق حقه، ويوفون كل ذي قسط قسطه، وهذه حالة كمثل العارفين رضي الله عنهم، وجعلنا منهم.

١٦- أن إمامها الأكبر سيدي أبا الحسن الشاذلي رضي الله عنه، كان هيكلًا ذاتيًّا ولطيفة ربانيّة، وأنه وكذا جميع من اتصل بسند طريقه إلى يوم قيام الساعة، كلهم ذاتيون، وأنه لا تطلق هذه النسبة على غيرهم من أرباب الأحوال المجاذيب وأهل الشطحات ولو ظهرت منهم الخوارق بكثرة، فإنهم من عامة الأولياء الصفاتيين، لا من

خواصهم الذاتيين.

١٧- أنه لم يثبت عن أحد من مشايخ الشاذلية انجذاب أحد من مريديهم حتى غاب عن إحساسه، وفني عن عالم جنسه، حتى هتك أسرار الحقيقة، وتفوه بما نهى عن إظهاره الشريعة، إذ لا يصدر هذا إلا من ضعف المشاهدة، إما من الأستاذ حيث أمره بما لا يطيقه؛ لعدم تمكنه، وإما لضعف استعداد التلميذ، وفتور مجاهدته، أو وقوفه مع شهوته.

١٨- أنه لا تطلق سلسة الذهب عند أهل الله إلا على الطريقة الشاذلية؛ لأنها مسلسلة بالأقطاب، ومعنعنة بهم.

١٩- أن الطريقة الشاذلية طريقة الغنى بالله، والفقر إلى الله، ورفض ما سواه، فهم يتخلون عن كل ما يقطعهم عن الله تعالى.

٢٠- أن القطب الكامل مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله تعالى عنه، ضمن له النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن طريقه لا ينقطع منها شيخ التربية إلى يوم القيامة.

٢١- أنهم يعاملون أعداءهم بما يعاملون به أحبابهم من مكارم الأخلاق.

٢٢- انتشار رجال هذه الطريقة في الأرض انتشار الشمس في السماء في الطول والعرض وانتفاع الوجود بأذكارهم والتوسل بإمامها إلى الله تعالى في قضاء الحوائج والمهمات في الماضي والآت والحاضر .

٢٣- أن طريقهم أساسه الحب فهم يدخلون إلى الله تعالى من باب الحب حب الشيخ، ومنه يتعلمون محبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لأنهم علموا أن بالحب وحده تفتح

المغاليق، ولأن من أحب اتبع، وأحسن الاتباع.[1]

وكل هذه الوجوه على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، فالحديث عن فضائلهم لا يحصيه كاتب ولا ينتهي عنده المقال، فالشاذلية شموس في بلادهم بهم يستضاء وبهم يتبرك وبهم ينتفع الناس جميعًا.

وقد قيل في فضل الانتساب إليهم:

تمسك بحبل الشاذلي ولا ترد سواه ... من الأشياخ إن كنت ذا لب

فأصحابه كالشمس زاد ضياؤها ... على النجم والبدر المنير من الحب.

وقال آخر:

تمسك حب الشاذلي فإنه له ... طرق التسليك في السر والجهر

أبو الحسن السامي على أهل عصره ... كراماته عن الحد والحصر.

وقد نقل الأستاذ زروق عن بعض المشايخ من أهل الورع أنه كان يقول للحالف أن يحلف ولا يستثني على أن طريقة الشاذلية عليها كانت بواطن الصحابة رضي الله عنهم.

ويقول البوصيري رحمه الله

إن الإمام الشاذلي طريقه في ... الفضل واضحة لعين المقتدي

فانقل ولو قدما على آثاره ... فإذا فعلت فذاك أخذ باليد

والحديث عن فضل الشاذلية مع شرف نسبتنا إليهم ليس تقليلًا من غيرهم من الطرق، فكما أكدنا مرارًا أن جميع الطرق موصلة إلى الله تعالى وكما يقول الشاعر:

وكلُّهم من رسولِ الله ملتمس ... غرفًا من البحر أو رشفًا من الدِّيم

---

١ - تراجم السادة الشاذلية ومناقبهم ل (ص: ٥٥-٨٥، ط. أبو علي الحسن الفاسي، ط. دار الكتب العلمية).

إلا أن من أحب قوما أكثر من ذكرهم، وبذكر الصالحين تتنزل البركات، ولله درُّ القائل: اسرد حديث الصالحين وذكرهم فبذكرهم تتنزل الرحمات.

وفي الختام نسأل الله تعالى أن يسلك بنا الطريق إليه؛ وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يستعملنا ولا يستبدلنا .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفهرس